

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

٧٠٠٢٢ - ٨٢٢٠٤

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر
مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر
مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر

هَوَارِيتُ عَنْ إِسْلَامٍ وَإِسْلَامِيْنَ

من شرق العالم إلى غربته

جميع حقوق الطبع والنشر والنشر محفوظة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

فهرسة أثناء النشر

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية
إدارة الشؤون الفنية

بيومي، عيسى

حوارات عن الإسلام والمسلمين من شرق العالم إلى غربه / عيسى بيومي
ط١ القاهرة: المكتب المصري الحديث ٢٠٠٧م

٢٥٨ص، ٢٤×١٧سم

تدمك: ٩٧٧٢٠٩٢٦٧٤

الإسلام- دفع مطاعن

٢١٦

أ- العنوان

المكتبة المصرية الحديث

www.almaktabalmasry.com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية

حوارات عن الإسلام والمسلمين من شرق العالم إلى غربة

عائسي بيومي

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

دینا دینا دینا دینا دینا

میر تقی علی والا دینا دینا

دینا دینا دینا

دینا دینا دینا

www.dinadina.com

مقدمة

على مدى عقد من الزمان زرت عدیدا من البلدان فى الشرق والغرب، قابلت كثيرا من أنماط البشر، تحدثت وتناقشت مع كثير منهم اختلف فى ثقافته وجنسيته ودينه، كان منهم المسلمون والمسيحيون واليهود والبوذيون والذين لا يعترفون بوجود إله، تنوعت الآراء وتباينت وأحيانا تضادت وتعارضت، كان موضوع الحديث الدين بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة، لم تكن هناك صعوبة فى الإفصاح عن رأى أو توجس من اختلاف فى الرؤية والحكم إلى أن أتى يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حين اتشح العالم بالوجوم وابتلعت الحكمة فى ظلام الريبة والظنون، بدا الإنسان كأنه يعتزم التقهقر فى تاريخ نضاله وتقدمه من أجل الحرية والعدل وأنه يساوم بكفاح القرون والندهور فى لحظة طائشة ليست فى سياق بقائه بأي حال.

فى لقاء مع الناشر المهندس ماجد يحيى عام ٢٠٠٣ لمتابعة نشر إحدى رواياتي طرح على فكرة إعداد كتاب يعتمد على أسفاري للعديد من بلدان العالم وما تجمع لدى من أفكار وخواطر مشاهداتي وحواراتي مع مختلف الأجناس يتمحور حول نظرة العالم إلى الإسلام والمسلمين خاصة فى الأيام الراهنة.

أخذت اقتراحه مأخذ الجد وتبينت أهمية أن تتضافر كل الجهود المخلصة لتصحيح النظرة السطحية الخاطئة التى تستحوذ على رؤية العالم للإسلام والمسلمين من ناحية، وأيضا النظرة الضيقة المتملقة التى تحكم رؤية بعض المسلمين لدينهم من ناحية أخرى، تلك النظرة التى تنفر العقل من موضوعية الحكم على الأشياء.

على أن ذلك التصحيح يرتبط فى العمق بتقدير العالم لدور الدين فى العصر الحديث وتعظيم دور الفكر الإسلامى المستير القادر على مواجهة تحديات هذا العصر بالقدر الذى يقنع العالم من حوله بجدارته وجدواه، الذى يخاطب عقل الإنسان فى كل مكان محاولا الوصول إلى ضميره ويخاطب ضمير المسلم بصفة خاصة محاولا الوصول إلى عقله.

على أن هذا الكتاب ليس مقصودا به الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد أى هجوم مفترض، لكنه محاولة لتبنيه الجميع مسلمين وغير مسلمين إلى حقيقة هامة مفادها أننا جميعا ننتمي إلى جنس واحد وأن مسؤولية الحفاظ على بقاء هذا الجنس مسؤولية مشتركة وأن قدرتنا على تحمل تلك المسؤولية والقيام بتبعاتها تعتمد على الجهد المبذول من الجميع، وأن فاعلية تحصيل هذا الجهد تشترط أن نتفهم وأن نقبل ما بيننا وبين الآخرين من اختلاف أوجده القدر ليعظم من صور هذا البقاء ويضمن استمراره.

كما أن هذا الكتاب دعوة للإنسان أن يتناول قضايا عصره بالمنطق العادل؛ الذى لا تسبق أحكامه قضايا ولا تقفز نتائجها أمام مقدماته.

يشير "بوب وادوارد" الصحفى اللامع فى "الواشنطن بوست" فى كتابه الأخير "حالة إنكار" الذى صدر نهاية عام ٢٠٠٦، إلى اجتماع نخبة مختارة من العقول الأمريكية عقد سرا فى فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية فى يوم الخميس التاسع والعشرين من نوفمبر عام ٢٠٠١، ضمت هذه النخبة خبراء متخصصين فى دراسة الإسلام ودراسات الشرق الأوسط وأساتذة فى الجريمة والسلوك البشرى وصحفيين وسفير متخصص فى دراسة الدكتاتوريات وغيرهم، هدف الاجتماع التوصل لاقتراح استراتيجية يقدم لمخططي السياسة الأمريكية

فى لحظة مواجهة كارثة غير مسبوقة ، كان عليهم أن يجيبوا على أسئلة ملحة وهامة مثل من هم الإرهابيون؟ ومن أين أتوا؟ وما صلتهم بالتاريخ الإسلامى عامة وتاريخ الشرق الأوسط خاصة وبما يدور فيه من صراعات حاضرة وما الذى يواجههم فى الغرب من جراء ذلك كانت محصلة مؤتمريهم وثيقة أطلق عليها "دلتا الإرهاب" خلصت إلى أنهم يواجهون حربا ضد الإرهاب لعقدين من الزمان تبدأ بالعراق.

هذا ما أعنيه بالنتائج التى تقفز أمام مقدماتها والمنطق غير العادل فى تناول قضايا العصر ونتائج لا تخطئها العيون فى العراق وأفغانستان الآن. كيف نخاطب هنا عقل الإنسان وصولا إلى ضميره؟

من ناحية أخرى تعاني معظم الشعوب الإسلامية من الفقر خاصة فى دول الشرق الأوسط حيث ترتفع معدلات النمو السكانى، وتنخفض الإنتاجية. تدل مؤشرات الأمم المتحدة والبنك الدولى أن الدول العربية تأتى فى ذيل القائمة فى قضايا مثل التعليم والتكنولوجيا وخلق الوظائف، ليس فقط مقارنة بالغرب بل كذلك مقارنة بدول أقل تقدما مثل كوريا وتايوان وسنغافورة. إذا أخذنا تركيا على سبيل المثال كدولة مسلمة أكثر تقدما لوجدناها تأتى فى المركز الثالث والعشرين فى ترتيب الدخل القومى وهو أعلى مركز لدولة مسلمة بعدد سكان أربعة وستين مليونا متساوية مع الدنمارك بعدد سكان خمسة ملايين، إندونيسيا بعدد سكان مائتين واثنا عشر مليونا تأتى فى المركز الثامن والعشرين بعد النرويج بعدد سكان أربعة ملايين ونصف المليون نسمة. بالنسبة للنتاج الصناعى أعلى دولة عربية هى مصر فى المركز الخامس والثلاثين بعدد سكان اثنين وسبعين مليونا متساوية مع النرويج.

فى تصنيف لمبيعات الكتب من سبعة وعشرين دولة تبدأ بالولايات المتحدة وتنتهى بفيتنام، لا يوجد فى هذا الترتيب بلد مسلم واحد.

فى تقرير للتنمية البشرية فى الدول العربية، يترجم العالم العربى سنويا حوالى ثلاثمائة وثلاثين كتابا وهو خمس العدد الذى تقوم بترجمته دولة مثل اليونان، مجموع ما تم ترجمته من كتب منذ زمن الخليفة المأمون فى القرن التاسع الميلادى حوالى مائة ألف كتاب يساوى تقريبا معدل ما تترجمه أسبانيا فى عام واحد.

وهذا ما أعنيه بمخاطبة ضمير المسلم محاولا الوصول إلى عقله.

الحوارات والمشاهد فى هذا الكتاب لا تقدم حلولا ولا تقترح خططا لكنها تسطر واقعا قد يفيد فى تحديد نظرتنا لأنفسنا ولغيرنا، ولندرك أن العالم لن يدعنا لشأننا لأننا جزء هام منه، وأتينا لا يجب أن نغفل عن ضرورة أن نرى العالم كما يرانا ونحاول أن نجعله يرى ما نحب أن يراه منا، وهى مهمة تتطلب الدراسة والوعى وتحديد الفكر.

بقى أن أقول أن معظم الحوارات المسطرة فى الكتاب قد حدثت مع أشخاص حقيقيين فى الأماكن التى ذكرت وإن لم يصرح بأسمائهم الحقيقية فى أغلب الأحيان حتى تكون مسئولية الحوار كاملة على من «طرحها».

انتقاء سبعة دول من بين ما يزيد عن خمسة وعشرين دولة همت بزيارتها، سببه واقعية التواصل مع أهل تلك الدول وفرصة الحوار البناء مع بعض أبنائها بما يسمح بالحديث أن يتصل ويثرى وعى القارئ حين ينتقل إليه. على الرغم من زيارتى لسبع دول عربية مثلا لم تتح لى فرصة

اللقاء والحوار كما أنشده، وربما حدث ذلك فى المستقبل بما يسمح بإضافة فى طبعات أخرى للكتاب إذا شاء العزيز القدير.

أما ترتيب الدول المختارة فى الحوار، فقصد منه المقابلة كما سيلمح القارئ، برونائ دولة مسلمة صغيرة جدا تطبق الشريعة الإسلامية فى سماحة ويسر، تقابلها فيتنام دولة كبيرة جدا بالمقارنة لا يوجد فيها مسلمون بقدر يذكر، إيران دولة مسلمة كبيرة تطبق الشريعة الإسلامية بشدة وصرامة تقابلها تركيا دولة ذات أغلبية مسلمة كبيرة تفصل بين الدين والدولة بشكل حاسم وتتخذ من الغرب مثالا تحتذى به، المكسيك دولة كبيرة ذات أغلبية مسيحية تقابلها نيجيريا ذات أغلبية مسلمة لا يبدو للدين أثرا يذكر فى حياة أيا من سكانهما سلبا أو إيجابا، ثم تأتى ألمانيا أكبر وأهم دولة فى أوروبا...

ولا يسعني فى النهاية إلا أن أشكر من أوعز إلى بفكرة الكتاب آملا أن يحقق ما ظنه ممكنا من فائده ولا يملك المرء إلا أن يكون مخلصا فى نيته مستوفيا فى جهده وعلى الله قصد السبيل.

عيسى بيومي

القاهرة ٥ مارس ٢٠٠٧

الفصل الأول

سلطنة برونای دار السلام

من أصغر بلدان العالم وأكثرها ثراء، دولة مسلمة تقع في الطرف القصي من شرق قارة آسيا، جزء صغير من جزيرة بورنيو تقارب مساحته ستة آلاف كيلو متر مربع أي حوالي ستة على ألف من مساحة مصر، تطل سواحلها على بحر الصين الجنوبي الذي يفصلها عن شرق قارة آسيا، أما بقية جزيرة بورنيو الضخمة فتقتسمها دولتان هما ماليزيا وإندونيسيا، لكن القدر شاء أن يكتشف البترول في أرض وسواحل تلك الدولة الصغيرة ليحولها دخله إلى تلك السلطنة الثرية التي يزيد تعدادها قليلا عن الثلاثمائة ألف نسمة معظمهم من المسلمين.

كان على الطائرة أن تقطع ما يقرب من عشرة آلاف كيلو متر لكي تحملني من القاهرة إلى بندر سيرى باجوان عاصمة برونای، فاستغرقت الرحلة ست عشرة ساعة مع توقف قصير في مطار دبي و سنغافورة.

تستقبل القادمين إلى مطار برونای الدولي لافتات الترحيب مكتوبة بلغة المالاي ولكن بحروف عربية يطلق عليها جاوي، لا تخلو الجمل من كلمات يسهل فهمها مثل سلامات ودار السلام، كما تصافح القادمين أيضا صورة كبيرة للسلطان حسن البلقية سلطان برونای تقف عن يمينه إحدى زوجتيه وعن يساره تقف الأخرى. ضباط الجوازات بضعة رجال وسيدة يؤدون عملهم في هدوء تكتسى وجوههم سكينة ومودة بادية، المرأة ترتدي الحجاب، الذي وجدته - بعد ذلك - شائعا بين نساء المسلمين هناك، ورداء رسميا لموظفات الدولة.

اللغة الإنجليزية سائدة يتعلمها الجميع منذ الصغر بجانب اللغة القومية وهى المالاي، لقد كانت بروناى إحدى مستعمرات التاج البريطانى ثم تخلصت من الحماية البريطانية نهائيا عام ١٩٨٤ وأصبحت دولة مستقلة، لكن اللغة الإنجليزية استمرت شائعة للتخاطب بين أهل بروناى خاصة بين الأجناس المختلفة اللذين يعيشون فيها، أما اللغة العربية فيعرفها أئمة المساجد وحفظة القرآن بالضرورة ومنهم من درس في الأزهر الشريف.

بعد مراجعة الجوازات يمر القادمون بموظفي الجمارك لتفتيش الحقائب والتأكد من خلوها من المنوعات خاصة الخمر، حيث لا يسمح إلا بقدر محدد لغير المسلمين فقط ويجب عليهم الإعلان عنه مقدما، فالخمر محظور بيعها أو تداولها داخل بروناى، لكن توجد مطاعم تقدم لحم الخنزير مع الإعلان أن المطعم غير مناسب للمسلمين.

خرجت من المطار أتفحص المنتظرين بحثا عمن ينتظرني منهم فلمحت أحدهم يرفع لافتة مكتوبا عليها إسمى فتقدمت إليه ليصطحبني إلى السيارة التى ستقلني إلى ما ينتظرني من مجهول. كان الجو حارا بدون قسوة حوالى ثلاثين درجة مئوية، رطبا دون اختناق ٨٠ ٪، ولا تتغير الظروف المناخية كثيرا طوال العام لاقترب المنطقة من خط الاستواء.

الشعور بالإثارة يحد منه إجهاد السفر، الإحساس بالترقب والقلق تسكنه الألفة بما شاهدته حتى الآن من عادات وتقاليد إسلامية لا يستغربها القادم من بلد مسلم خاصة من بلد عربى وهو يلاحظ حروف لغته قد سطرت بها جميع الإعلانات على الطريق.

سألت السائق ونظري يسبق السيارة المسرعة: كم يبعد مكان وصولنا عن العاصمة؟

أجابني: بلهجة صعبة الفهم: العاصمة "بندر" تقع في شرق السلطنة، نحن متجهون إلى مقاطعة بيلاييت في أقصى الغرب على بعد مائة وعشرين كيلو مترا.

بعد قليل عدت أستفسر منه: أرى صور السلطان منتشرة في كل مكان.. يبدو أنه محبوب من شعبه؟

أجابني: نعم هو كذلك، لكن الصور منتشرة بمناسبة عيد ميلاده تفرست في وجه السائق لحظة ثم سألته ولكنته تحفز ذاكرتي: هل توجد جالية صينية كبيرة هنا؟ ابتسم وقد فهم مغزى سؤالي وقال: - صدق ظنك، فأنا من أصول صينية، نحن نشكل حوالي ١٥ ٪ من عدد السكان في برونای، والذي نزح من الصين الوطن الأم، مضى نصف قرن منذ هذا التاريخ، لكننا نعتبر "برونای" وطننا أيضا. الحياة هنا سهلة والبلد آمن تماما.

دفعني فضولي وصراحته لاستمرار الحوار فقلت: أعرف أن بالصين ما يقرب من مائة مليون مسلم، فليس من الغريب أن يهاجر الصينيون إلى برونای ويستوطنونها.

قال بعفوية واضحة: نحن لا نعتنق الدين الإسلامي، ولا يجبرنا أحد على ذلك، نحن من أتباع بوذا ولنا معابدنا هنا، أنا لا أعرف ديانتك، لكن توجد هنا أيضا كنائس للمسيحيين إلى جانب المساجد الكثيرة كما ستري بنفسك، كلنا نعيش معا في سلام.

ابتسمت وأضفت لقوله: أليست هي برونای دار السلام؟

وصلنا إلى فندق "سى فيو" المطل على بحر الصين الجنوبي كما يوحي اسمه، هنالك سأقيم فترة تواجدي في هذه المقاطعة. بدأت روح المكان تهمس همسها الغريب.

وضعت حقائبى فى الحجرة الواسعة وأخذت أهيم فى أرجائها مستطلعا محتوياتها، عثرت على نسخة من القرآن الكريم فى أحد الأدراج، كانت تحمل إلى جوار النص العربى ترجمة باللغة الإنجليزية والناشر من ماليزيا. لقد تحول الهمس الغريب إلى مناجاة مألوفة.

أخلدت للنوم بعد هذا السفر الطويل وبينما أقلب فى الفراش وقد مضى من الليل معظمه إذا بصوت المؤذن ينادى لصلاة الفجر يتهادى إلى سمعى فتتهز نفسى ونداء الله أكبر يطوى تلك المسافة الشاسعة بين منبع الإسلام فى مكة وهذا الطرف القصي من أطراف الأرض. ألح على عقلى بالسؤال: كيف يصدق منصف أن تنتشر دعوة الإسلام بحد السيف على بعد عشرة آلاف كيلو متر من مصدره، فى زمن ركب فيه الإنسان الخيل والجمال ولم يعرف المذيع والتلفاز، ثم يستمسك به معتقوه على هذا النحو وقد مرت عليهم عشرات القرون؟

فى الصباح سألت موظفة الاستقبال بالفندق عن مكان هذا المسجد القريب عازما أن أتوجه إليه بالمساء بعد عودتى من العمل، أجابت أنه مسجد باندان على بعد حوالى سبعمائة مترا من الفندق.



يتوسط مسجد "باندان" - وهو اسم الحي الواقع فيه - ميدانا فسيحا يحده جدول صغير فى شماله، ومن جهاته الأخرى تنتشر مجموعة من البيوت الخاصة أو الفيلات ذات تصاميم وألوان جميلة يتفاوت نمطها المعماري بين أوروبا والصين. المسجد نفسه أسس حديثا، ذو مساحة معقولة تسع بضعة آلاف مصلى، مكيف الهواء. لاحظت أن كل من يدخله يترك حذاءه خارجه ففعلت مثلهم قبل دخولي، وكانت صلاة المغرب يقترب أوانها.

خزانات الكتب الموزعة فى أنحاء المسجد ممتلئة بنسخ من القرآن الكريم مع ترجمة بلغة المالاي المكتوبة بحروف لاتينية، هناك أيضا

كتب الأدعية المعروفة مثل دعاء سورة يس، بعضها باللغة العربية وبعضها باللغة المحلية.

استغرقت أتأمل المكان في شغف وجو الخشوع يسرى في أرجائه، وبينما أتبين في أحد أركان المسجد مكانا محددًا بقطاعات من المعدن والزجاج فهمت أنه مخصص للسيدات، انطلق صوت المؤذن يتردد في الأرجاء بعدوية وسلاسة تطمئن لها القلوب.

بعد أن قضيت الصلاة كما تؤدي في مصر، أعقبها الإمام بالدعاء والاستغفار الذي رددته باللغة العربية في معظمه، ثم أقبل المصلون يصفاح بعضهم بعضا بمودة وعطف، لا فرق بين وجه مألوف أو غريب عابر.

وجدت نفسي أنخرط في هذا الجمع أبادل بالتحية والمصافحة كل فرد من حولي كأننا جمع من الأصدقاء التقينا على موعد.

اقترب مني أحد المصلين، كهل يقترب من الستين، مد يده في حفاوة، ابتسامته الطيبة تشع من وجهه سلاما، قال
- أنا السيد عبد الرحيم، من أي البلاد أنت؟

أجبتة ويده ممسكة يدي بمودة: من مصر، هل زرتها من قبل؟
- بلد الأزهر، لم يسعدني الحظ بزيارتها، لكن أعرف أحد أصدقائي درس هناك وتعلم العربية.

- هي بلد مضياف كبلدكم أتمنى أن تزورها.
- هل يمكنني أن أدعوك لشرب الشاي في منزلي؟
- كيف يمكنني أن أرفض دعوة أخ كريم؟
- لا يبعد منزلي كثيرا عن هنا، سنستقل سيارتي ثم أعود بك إلى هنا مرة أخرى.

في أثناء الطريق سألته: هل تتردد على هذا المسجد بانتظام؟

أجابني :- لا يسمح لي وقتي بذلك بشكل منتظم، لكنني أفعل بقدر المستطاع، بعد تقاعدي عن العمل في الخامسة والخمسين التحقت بوكالة لبيع السيارات كمندوب مبيعات حيث أمضى النهار، في المساء أنشغل باحتياجات أسرتي.

- لقد لعبت المصادفة دورها في التقائنا، إنها المرة الأولى التي أدخل فيها هذا المسجد ولم يمض على وجودي في بروناى أيام قليلة.
- إرادة الله.

فى منزله قدمني لزوجته وأولاده الذين لا يزالون يقيمون معه بالبيت، ووجدنا صديقه الأزهرى أبو بكر وزوجته فى زيارة لهم، تم التعارف بيننا وكانت فرصة لتبادل الحديث معه باللغة العربية..قال

قضيت وزوجتي أربع سنوات فى مصر للدراسة فى الأزهر ونتمنى أن نعود. فى تلك السنوات تعلمت العربية وزرت مدنا كثيرة أذكر منها الإسكندرية وطنطا وكفر الشيخ والأقصر.. وكنا نقيم فى القاهرة بالطبع.

- أين تعمل الآن؟ فى وزارة الشؤون الدينية بالعاصمة "بندر" ونقيم هناك، تصادف وجودي هنا الليلة لحسن الحظ للتعرف إليك وإحياء ذكريات الماضي، الفضل لصديقي سيد عبد الرحيم.

- لاحظت منذ قدومي إلى بروناى أثر الإسلام فى حياة الناس، ملبسهم ومأكلهم ومسلكهم العام، الاحترام والود الشائع بين الجميع، حتى أسماء المسلمين معظمها مأخوذ عن أسماء الرسول وأصحابه.

قال أبو بكر: الدولة تدعم هذا الاتجاه فترسل البعثات إلى الأزهر فى مصر على سبيل المثال، كما تكفل لموظفيها الحج لمن يشاء منهم.

قال السيد عبد الرحيم: كان لقانون منع تداول الخمر أثره العميق في الحد من حوادث الطريق بعد أن زادت بشكل ملحوظ منذ عدة سنوات، وتبين أن معظمها بسبب القيادة تحت تأثير الخمر. قلت معلقا: بالرغم من وجود العديد من الأجانب المقيمين هنا بصفة دائمة.

قال عبد الرحيم: لم يتذمر أحد، ولم يغادروا بروناي لخلوها من الخمر أو الدعارة.

قال أبو بكر: لقد حفظ الإسلام أهله من غياب العقل وإذلال الجسد.

قلت: إنها غاية الدين الحق

قال عبد الرحيم: لهذا نعتبر ما حدث في أمريكا يوم الحادي عشر من سبتمبر وأودى بحياة الآلاف ليس من الإسلام ولا يعقل أن يكون فاعله مسلم أو مؤمن بأي دين. لا بد أنه مصاب بلوثة في عقله أو انحراف في نفسه.

قال أبو بكر: يظن البعض أن هناك مؤامرة وأن جماعة بن لادن ليست مسئولة فضلا عن أنها غير قادرة على هذا الفعل المعقد والبشع معا.

قلت: ليست المرة الأولى التي يسئ فيها أصحاب ملة إلى ملتهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا. لقد سبق تفجير برجى التجارة في نيويورك تفجير السفارات في كينيا، ومهما كانت حسابات الذين فعلوا ذلك ساذجة في توقع نتائج حاسمة تنتصر لفكرهم وموقفهم من الحضارة المعاصرة، فإن تداعيات ما حدث خلقت حالة من التوجس والعداء أو على الأقل الاحتراس والحيطة من كل ما ينتمى إلى الإسلام في جميع أنحاء العالم، تبدد صوت العقل في أرجاء الفوضى التي تنشأ من نزعة الانتقام.

قال عبد الرحيم: كيف تنتظر من أسرة فقدت عائلها أو أحد أبنائها في تلك الأحداث أن تعمل العقل وتتنظر إلى الفاعلين كحفنة من الشاردين عن ركب الإنسانية دون النظر إلى دينهم أو جنسهم؟

قلت: ليس من الحكمة أن تنتظر منهم ذلك، لكن من الضروري ألا تتبنى حكوماتهم مواقف طائشة تتصدى بها للظاهرة دون فهم أو اعتبار لأسبابها ودوافعها دعني أقول ألا تنتهز الفرصة لخلط الأوراق وتحقيق أطماع وطموحات لا سند لها من عرف دولي أو قانون مقبول.

أضفت بعد لحظة: لكن بروناى في مأمن من كل ذلك لبعدها الشاسع سواء في الجغرافيا أو السياسة الدولية.

قال أبو بكر: ليس بالضبط، فسوف يجتمع مجموعة الآسيان في بروناى الشهر القادم للتداول حول موضوع واحد هو الإرهاب، لكنك محق في أننا نعلم هنا بسلام فريد.

قال عبد الرحيم مذكرا: لكن إندونيسيا ليست بعيدة ولا الفلبين.

قلت: أظن لبروناى طبيعة خاصة تحميها من رياح السيكلون العنيفة التي تعصف دوريا بشرق آسيا، ستحميها تلك الطبيعة الخاصة من أي سوء بإذن الله.

أتت الزوجة الفاضلة سيدة البيت تدعونا لعشاء خفيف فنهضنا ملبين الدعوة.

قال عبد الرحيم وهو يودعني في ساحة مسجد بانندان حيث تركت سيارتي: أعرف أن عملك سيشتغل معظم الوقت، لكن سيسعدنا أن نلتقي بك مرة أخرى وقتما وجدت ذلك ممكنا..

قلت ويدي تشد على يده في مودة: - تأكد أنني سعدت بمعرفتك وسوف نلتقي مرة أخرى بإذن الله ولن نتركها للمصادفة.



فى صباح اليوم التالى دعاني "عثمان" و"ويليام" لمرافقتهم لتناول كوب من عصير الجزر وقطعة من "الروتى" وهو ما يشبه الفطائر الصغيرة فى مصر، توجهنا إلى "سيريا" وهى مدينة صغيرة تبعد عدة كيلو مترات عن مقر العمل.

سألني عثمان: وهو مهندس من أبناء برونای - بينما نتخذ أماكننا فى السيارة

- كيف وجدت الحياة فى بلدنا وقد مضى عليك أسبوع بيننا؟

أجبتة: الحياة هنا هادئة ومريحة، الناس يتسمون بالطيبة والود.. برونای عالم خاص بأهلها على الرغم من صغر مساحتها وقلة عدد السكان فيها، لكنني لاحظت فى زيارتي للسيوبر ماركت المجاور للفندق أن كل المعروضات مستوردة سواء طعاما أو ملبسا، يبدو أن النشاط الصناعى والزراعى محدود فى برونای.

قال عثمان: لا توجد غير صناعة البترول والغاز عليها يقوم اقتصاد برونای، هناك محاولات لتنشيط السياحة لما تتمتع به برونای من غابات وأدغال لازالت بكرا، لكنها لا زالت فى المهد.

كانت السيارة تقترب من معالم البلدة التى تبرز للقادمين إليها بمسجدها ذي القباب المخروطية المتعددة والمآذن العالية. تخير ويليام - وهو مهندس إنجليزى مقيم فى برونای - مكانا مناسبيا ليصف فيه سيارته ثم نزلنا. لاحظته يضع دولارا على الزجاج الأمامى للسيارة بعد أن ثبته بالماسحة قبل أن يتبعنا نحو المطعم المقصود، نظرت إليه مستغريا، فقال مفسرا: أجرة اصطفاف السيارة هنا نصف دولار سوف يحصلها الموظف أثناء مروره من هنا ويترك لى نصف دولار فى نفس المكان مع إيصال السداد.

سألته: ولا تتوقع أن يأخذ الدولار عابر سبيل ويمضى لحاله؟

ابتسم وقال: هذا لا يحدث في بروناي، مضى على إقامتي في هذا البلد خمس سنوات، لم أتردد مرة واحدة في تكرار هذا الفعل، الأمانة هنا تَمْضى مع الأمان، لكنني لن أفعل هذا في مكان آخر حتى بلدي.

لاحظت أثناء عبوري الطريق نحو المطعم لافتة معلقة خارجه تعلن أن هذا المطعم حلال فسألت عثمان عن دلالة ذلك فأجابني: بعض المطاعم تعلق هذه اللافتة لتؤكد لزيائنها عدم وجود لحم خنزير في قائمة الطعام التي تقدمها، عموما المطاعم التي تقدمه قليلة جدا ومعروفة.

شارك ويليام في الحديث قائلا: لا أذكر آخر مرة بحثا فيها عن أحد هذه المطاعم ولا أذكر أن أسرتي حثتني على ذلك، ولا نهتم كثيرا لعدم توفر الخمر والبيرة هنا.

قلت: الإنسان يعتاد بطبعه ويألف ما يحيطه ولو لم يكن له سند من اعتقاد أو التزام مسبق بمبدأ ما.

قال ويليام: كثير من المسلمين يظنون أن كل ما يشغل عقل الرجل الأوروبي لدى عودته إلى بيته هو احتساء الخمر، وهو ظن خاطئ، لهذا يندهشون ممن يأتي ليعيش في بروناي مضحيا بهذا المطلب الملح. الحقيقة أنها مسألة ترتبط بثقافتنا أكثر من ارتباطها بحاجاتنا الملحة. وإذا تركنا أوطاننا طلبا للمال في بلاد أخرى فعلينا أن نتقبل ثقافة تلك البلاد التي تستضيفنا، بل من الواجب أن نحترمها، ولا نفرض على الغير ما يرفضونه من ثقافتنا.

قال عثمان مؤيدا: هذا أيضا ما ننتظره من أنفسنا إذا أقمنا في بلاد أخرى تختلف عن وطننا في الثقافة أو العقيدة .. الاحترام المتبادل.

كانت الفتاة المضيفة قد أحضرت الروتى وشراب الجزر المخلوط بالبرتقال متمنية لنا طعاما هنيا وذهبت لتستقبل زبونا جديدا، كانت ترتدى الإيشارب الذي يغطي شعرها مثل الفتاة الأخرى التي تعمل معها في المطعم.

عند عودتنا إلى السيارة وجد ويليام الدولار الذى تركه لدفع أجر الاصطفاف كما هو مثبتا بالماسحة، فتوجه بالسيارة بحثا عن الموظف المنوط بالعمل في هذا المكان فلم يجده واضطر للذهاب إلى مكتبه في ساحة الانتظار الرئيسية ودفع له نصف الدولار وعدنا من ثم إلى العمل.



نظام العمل في بروناى خمسة أيام من الاثنين إلى الجمعة، يسمح للعاملين بالتوقف ساعة في منتصف النهار للغداء، تمتد لتصبح ساعتين أيام الجمع للمسلمين ليتسنى لهم قضاء صلاة الجمعة في المساجد.

توجهت حين أذنت صلاة الجمعة إلى مسجد "بندان" الذى يبعد بضعة كيلو مترات عن مكان العمل، الأمطار أخذت تهطل بغزارة شديدة وان ظلت درجة الحرارة كما هى حول الثلاثين فى المسافة بين خروجي من السيارة حتى احتميت بالمسجد اغتسلت ملابسى بماء المطر كأننى أخذت حماما بها، صحن المسجد مكيف الهواء فأصبحت فرصة الإصابة بالأنفلونزا هاجسا يطاردني.

المسجد غاص بالمصلين من جميع الأعمار، عاكفون على الإنصات لما يتلى من القرآن الكريم وإن كانوا لا يفهمون لغته. بعد قليل أذن لصلاة الجمعة ثم صعد الخطيب إلى المنبر وحييا الحاضرين ثم أذن الأذان الثاني كما هو معتاد في مصر أيضا، بعدها وقف الخطيب يقرأ خطبته التى بدأها بحمد الله و الإقرار بوحدانيته ثم الصلاة والسلام على رسوله الكريم، ثم أنشأ يتحدث في موضوع الخطبة بلغة المالاي متخللا ذلك بآيات من القرآن الكريم، وبعد أن انتهى من الخطبة الكبيرة جلس لحظات ثم نهض لياقئ الخطبة الصغيرة عبارة عن دعاء نمطي باللغة العربية انتهى بالدعاء لسلطان البلاد.

بعد الصلاة نظرت حولي أتلمس السيد عبد الرحيم فلم أعثر عليه ،
لكن الوجوه المحيطة بى لم تختلف ملامحها عن ملامحه في طبيعتها
ودعتها.



فى يوم السبت اصطحبني ويليام لتفقد أحد المواقع البحرية للشركة
والتعرف على واقع العمل هناك ، حملتنا الطائرة الهليكوبتر من قاعدتها
في "سيريا" واتجهت إلى أقصى شرق بروناى مبتعدين عن الشاطئ نحو
الأعماق. استغرقت الرحلة خمسا وأربعين دقيقة في جو بديع وسماء
صافية. هبطت الطائرة على مهبط خاص فوق مجموعة من المنشآت
المقامة في عرض البحر لإنتاج البترول ، توجهنا من ثم إلى مقابلة المسؤولين
عن إدارة العمل في هذا الموقع الفريد. كانوا جميعا من أبناء بروناى
لكننا في جولتنا قابلنا عددا من الجنسيات الأخرى كالإنجليز
والصينيين والهنود والفلبينيين.

بعد الجولة جلسنا في قاعة الطعام الفسيحة نتناول غداءنا. يوجد إلى
جوار المطعم صالة للترفيه وصالة أخرى للرياضة ، كما يوجد في نفس
الدور قاعة خصصت للصلاة كمسجد صغير. كثيرون يقيمون في هذا
الموقع البحري إقامة دائمة تصل إلى أربعة أسابيع.

دعانا أحد المسؤولين إلى مكتبه لتناول كوب من الشاي ، كان على
سابق معرفة بويليام.

بعد أن مضى الحديث بينهما في ذكريات الماضي ثم إلى تطورات
الحاضر نظر إلى وقال :- معذرة ، فنحن لم نلتق منذ شهور.

قال ويليام: حسين رجل ودود جدا ومتعاون في العمل إلى أقصى حد.
قلت: في الحقيقة لم أر من أبناء بروناى حتى هذه اللحظة غير الود
والطيبة.

قال حسين: نحن أخوة في الإنسانية، هذا ما تحثنا عليه الأديان خاصة دين الإسلام.

قلت مشجعاً: هذا ما نعرفه أنا وأنت عن الإسلام، لكن ما يروج في العالم الآن عكس ذلك.

قال حسين معلقاً: تقصد ربط الإرهاب بالإسلام والمسلمين؟ لعلك تلاحظ أن التركيز على العرب المسلمين وليس المسلمون أو العرب على الإطلاق.

قال ويليام وكان يتابع الحديث باهتمام: إذا كانت معظم حوادث الإرهاب ترتبط بأشخاص أو جماعات من المسلمين العرب فمن المنطقي أن يركز الغرب اهتمامه أو قل حذره في تلك المنطقة المسماة بالشرق الأوسط.

قلت: من المنطقي أيضاً أن يتم تحليل الأسباب للوصول إلى الحقيقة وراء ذلك وألا توصم منطقة بأكملها ويتهم دين يعتنقه أكثر من مليار إنسان لعشرات القرون قد يكون هؤلاء المسلمون مخطئين في فهم دينهم أو مضللين بغيرهم ممن يدعى الفهم، ربما كانت الأسباب كلها نفسية ترتبط بنزعة انتقام أو شهوة شهرة أو كبت سياسي.

أضاف حسين مؤيداً: أو طموحات هيمنة واستغلال لمشاعر الناس.

قال ويليام: معك حق، لكن أليس هو واجب المسلمين أيضاً أن يبحثوا في تلك الأسباب ويتصدوا لها بما يجنبهم سوء المظنة؟ الذين يفهمون الإسلام على حقيقته في الغرب يدركون فداحة الخطأ في التشنيع به، لأن الضرر من جراء ذلك سيحقيق بالغرب أيضاً في نهاية المطاف، لكن هؤلاء قلة قليلة لا يمكنهم مواجهة المد الجارف للسياسة التي نعرف جميعاً أنها لا تلتزم بمبادئ أو أخلاق.

نظر إليه حسين مستفسراً فأضاف موضحاً: - الحضارة الغربية أساسها العلم، والعلم يستند على الحقائق فإذا بدأنا بتزييفها لكي نروج

لموقف يفيدنا في المدى القريب أو لمد سيطرتنا خارج نطاقها الطبيعي، فلا مناص أن يقوض منطق العلم نفسه.

قلت: هذه نقطة هامة، لكن للأسف العلماء أيضا قلة، وصوت الحق لا يصل إلى وسائل الإعلام العالمي ببساطة حديثنا عنه، فمصالح الغرب في الشرق الأوسط هائلة.

قال ويليام: بروناي بعيدة عن الشرق الأوسط بما يكفي سلامتها.. دعنا نكمل حديثنا في وقت آخر فقد حان موعد عودتنا إلى "كوالا بيلاييت"، الطائرة ستهبط بعد قليل لنقلنا وعلينا تسجيل أسماءنا للمغادرة.

قال حسين وهو يشد على يدي مودعا: عندك حق فيما يختص بتأثير وسائل الإعلام، كيف يدرك الإنسان حقيقة ما يدور في عالمه وسط هذه المتناقضات خاصة لو كنت تحيا مثلي في طرف العالم؟ لهذا ننتهز فرصة وجود شخص مثلك من تلك المنطقة البعيدة عنا لكي نستطلع منه الحقيقة، لكن للأسف لا يسمح الوقت باستكمال الحديث.

قلت: تأكد أن الحقيقة ضائعة أينما بحثت عنها في هذا العصر، بالرغم من وفرة المعلومات وسرعة تداولها، لا يهم ان كنت في بروناي أو في المكسيك، لكن من الضروري ألا يكف المرء عن المحاولة، هذا ما تفعله أنت وأفعله أنا حتى نهتدي.

في طريق العودة سألت ويليام: أمضيت في بروناي فترة طويلة، كيف تفسر شعور الناس الملحوظ بالرضا والطمأنينة هل هو الاستقرار السياسي أم الرخاء الاقتصادي أم كلاهما

أجاب بعد لحظات من التفكير ويداه فوق عجلة القيادة تطاوعان منحنيات الطريق: بادئ ذي بدء لا توجد هنا حياة سياسية بالمعنى الذي تقصده، فلا يوجد برلمان ولا توجد أحزاب ولا قوة معارضة. زمام الحكم في يدي السلطان، وهو رجل محبوب من شعبه. مشهور بعدله وتواضعه، قد يفاجئك في الطريق ويستأذنك أن تصحبه في سيارتك إلى مكان ما

ليرى كيف تمضى حياة الناس على سجيّتها دون ترتيب مسبق من حاشيته ، ولا يتردد في محاسبة أي مسئول يكتشف إهماله أو تقاعسه . كما تلاحظ كل مواطن في برونای آمن على نفسه وأسرته ، له وظيفة مضمونة تكفل له دخلا مرموقا حتى يبلغ سن التقاعد وهو الخامسة والخمسين ، يمنح مواطن برونای أرضا لبناء بيته ويقترض لو شاء دون فائدة وبفترة سماح تمتد لعشرات السنين ، تعليم الأبناء مجاني مع فرصة لاستكمال خارج البلاد لمن يتفوق ، ساعات العمل وظروفه - كما رأيت - مريحة لا تجدها في أغنى الدول ، جميع الاحتياجات المعقولة من ملابس ومأكل ومسكن متوفرة ، لا توجد مشكلة واحدة تؤرق أبناء هذا البلد ، فكيف لا يشعرون بالرضا والطمأنينة؟

قلت بعد لحظات صمت: لابد أن يكون للبترول أثره العميق في هذا الاستقرار.

قال لي رفيقي موضحا: السلطان الحالي هو التاسع والعشرون في تسلسل أسرى يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي كانت برونای قوة يعتد في المنطقة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر حيث كان نفوذها ممتدا لجزيرة "بورنيو" كلها وأيضا في الفلبين ، وهذا يعنى أن الاستقرار الحاضر له جذوره الممتدة في التاريخ ، بالطبع ثروة البترول أضفت عليه الثراء والرخاء.

سألته: وما الذى قلص برونای إلى هذه المساحة الضئيلة جدا من جزيرة بورنيو الهائلة؟

ابتسم وقال: الإنجليزي صديقي ، ابحث عنهم حيثما تعقدت الجغرافيا السياسية كما هو الحال في منطقتكم وفى القارة الهندية وغيرها.

رآني صامتا منتظرا بعض التفاصيل إجابة لسؤالي ، فاستمر يقول: - بوصول الإنجليزي "جيمس بروك" إلى هذه المنطقة من العالم في القرن

التاسع عشر انتهى نفوذ برونای، فقد أرغم السلطان وقتئذ على الدخول في سلسلة من المعاهدات بحجة القضاء على القرصنة وتنمية العلاقات التجارية بين بريطانيا والسلطنة. كانت القرصنة وقتئذ حجة شائعة يبرر بها الأوروبيون انتزاع الأراضي من أصحابها والسيطرة على مقدرات أهلها. أصبحت برونای محمية بريطانية عام ١٨٨٨، وأخذت مساحتها في التقلص والانكماش حتى وصلت إلى مساحتها الحالية المقسمة إلى جزئين يفصل بينهما مقاطعة "ساراواك" التابعة لماليزيا في الوقت الراهن. بل أوشكت برونای أن تبتلع في اتحاد ماليزي لولا اكتشاف البترول في عام ١٩٢٩ وتقضيل السلطان عمر صفی الدين - والد السلطان الحالي - الذي اعتزل الحكم عام ١٩٦٧، أن تظل بلاده محمية بريطانية.

فكرت قليلا فيما استعرضه من تاريخ ثم تساءلت: أليس من الغريب أن يتواجد الإنجليز هنا طوال هذه الحقبة حتى كادت لغتهم أن تصبح لغة قومية ثانية، وتأثر بهم نمط الحياة تأثرا كبيرا، وبالرغم من ذلك لم يتركوا أثرا لديموقراطيتهم العريقة كما حدث في كثير من مستعمراتهم مهما اختلفنا في قيمته وجدواه؟

قال وهو يجمع شتات التاريخ من ذاكرته: جرت انتخابات سياسية في برونای مرة واحدة في تاريخها عام ١٩٦٢، حين مارست بريطانيا ضغوطها على السلطان عمر صفی الدين. كان حزب المعارضة وقتها يسمى "حزب الرعية" يقوده أحمد أزهری هدفه استقلال برونای وتتصيب السلطان بشكل دستوري من خلال ديموقراطية تشريعية وسياسية، وحقق حزب المعارضة هذا انتصارا كاسحا.

أثار الحديث فضولي وتاريخ تلك السلطنة الصغيرة يتكشف أمامي معلنا كل حقائق العالم الكبير بنقائضه ونقائصه، قلت بحماس: - إذن فقد كان هناك محاولة صادقة؟

هز رأسه واستمر يقول: كان السلطان وقتها يخطط للدخول في اتحاد مع ماليزيا، فهرب أزهرى للفليبين حيث أعد لتمرّد مسلح بمساندة من إندونيسيا، لكن هذا التمرّد قضى عليه قضاء مبرما بمساعدة العسكرية البريطانية، بعدها اعتزل السلطان خططه للاتحاد مع ماليزيا، من يومها وبروناي خاضعة لقانون الطوارئ وإن كان لا يشعر بذلك أحد.

— أي أن الديمقراطية التي يساندها الغرب تشترط الاتفاق في المصالح، فإذا أنت بنتائج تهدد تلك المصالح فهي ليست الديمقراطية المقصودة ووجب بترها، كما حدث في الجزائر أيضا.

— أظنك من الذكاء بالقدر الذي يجعلك ترى العالم على حقيقته.. القوة تفرض منطقتها وليس الحق.. فقط إذا لم يعترض مصلحة القوى.

— رغد العيش لعامة الناس هو منتهى الأمل.

— والدين يشبع فيهم الروح ويطمئن النفس. لقد نحت بروناي منحى الأصولية الإسلامية منذ سبعة قرون، وهو ما يشكل منهاجا أساسيا للتعليم في المدارس.

— هل تظن أن الدين يغنى عن السياسة؟

كنا قد اقتربنا من مشارف كوالايبلايت وأمسى الفندق الذي أقيم فيه على مرمى البصر فأجاب في كياسة: هذا موضوع يطول نقاشه مع اقترابنا من منزلك، إلا إذا قبلت دعوتي على العشاء في بيتي، بعده نستكمل الحديث.

— لا أظن اليوم مناسبا لتلك الزيارة لترتب لها موعدا لاحقا، أشكرك على حسن الصحبة.



مع بداية الأسبوع التالى تقرر زيارة موقعي عمل تابعين للشركة أحدهما في "توتونج" المدينة الرئيسية في المقاطعة التى تحمل اسمها وتقع في منتصف المسافة بين العاصمة بندر ومدينة "سيريا" في الغرب، والموقع الآخر في مدينة "موارا" وتقع في الطرف القصي من شرق برونای حيث يوجد ميناء بحري لخدمة حقول البترول البحرية. صحبني في هذه الرحلة المهندس عثمان الذى رتب لسفرنا سيارة مريحة قادها بنفسه.

قبل أن نأخذ وجهتنا إلى الطريق الرئيسي السريع الذى يربط بين تلك المدن استأذن عثمان أن يمر بموقع بيته الجديد ليبلغ مقاول البناء ببعض التعديلات العاجلة كان بيته الجديد واقعا في ناحية مسجد بانندان حيث مجموعة من أجمل البيوت التى رأيتها في برونای، اكتمل بناؤه وأصبح في مرحلة التشطيب النهائي. دعاني عثمان للتجول داخله، واصطحبني في أدواره الثلاثة حيث رأيت فخامة التصميم وجودة البناء، قد تصل مساحة الأدوار الثلاثة إلى خمسمائة متر مربع أو تزيد.. سألته ونحن نستقل السيارة متجهين إلى "توتونج"

. وأين تقيم في الوقت الحالي؟ أقيم مع أسرتي في منزل قريب من هنا تملكه الشركة، منحنا السلطان تلك الأرض لبناء منزل عليها فافترضت من البنك ما يكفى للبناء آملا أن يصبح بيتا لأبنائي في مستقبلهم.

. أتمنى أن يكون بيتا لأحفادك أيضا

ضحك مبتهجا وقال: لا يزال هناك وقت للتفكير في هذا وأنا بعد في الأربعين من عمري.

. جميل أن يحالف الإنسان الحظ وهو في منتصف العمر.. هذا أيضا دليل تفوق في العمل.

. على أن أعترف لك بأن هذا متاح لأبناء برونای دون تفرقة، أما في العمل فليس هناك شئ غير عادى، كلنا نحاول جاهدين أن نؤدى واجبنا.

- على أن أعترف لك بأنني لم أتوقع أن أجد أبناء برونای يشكلون ما يقرب من تسعين في المائة من موظفي الشركة الرئيسية في البلاد مع وجود شريك أجنبي فيها ، هذا يعني أنهم أكفاء.

- لم يكن هذا ليحدث لولا خطة قومية أقرها السلطان لإحلال الوطنيين بالأجانب أينما كان ذلك ممكنا دون أن يتأثر أداء العمل.

- هذا تطلب بالطبع نظاما تدريبيا وتأهليا كبيرا للحصول على الخبرات المطلوبة.

- تكلف ذلك كثيرا ، فأنا مثلا قضيت عامين في بريطانيا للتعلم والدراسة ثم ذهبت بعدها إلى استراليا للتدريب لمدة عامين آخرين قبل أن أتحمل مسئولية مناصبي.

- هل تتاح نفس الفرص للمرأة أيضا أم أنها مقصورة على الرجل.. لم ألاحظ شغل النساء لأية مراكز قيادية في الشركة ، اللهم إلا بعض أعمال السكرتارية؟

- معظم بنات برونای يعملن حتى يتزوجن ثم يتفرغن لرعاية بيوتهن وأولادهن ، حيث أن دخل الرجل يكفل للأسرة حياة لائقة لا يوجد اضطراب لعمل المرأة ، لهذا فالاستثمار في تأهيلهن لمناصب قيادية غير عملي ، الحياة هنا ليس فيها صخب الغرب الذي يفرض بالإنسان ليتجاوز حدوده.

- نعم ، الرخاء يستدعي الراحة ، لكنه في هذه الحالة يرتبط ارتباطا مصيريا بشيء واحد هو ثروة البترول والغاز الطبيعي.

- هذا صحيح في الوقت الراهن ، لكن برونای لديها أيضا ثروة من الأشجار ، لا يجوز قطعها قانونا بالرغم من استيرادنا للأخشاب من الدول الأخرى ، هذه الثروة الطبيعية تمثل أمانا لمستقبلنا ، كما أننا نتوسع في زراعة الأرز وتربية الماشية ، اشترت برونای مزرعة لتربية الماشية في

استراليا تزيد مساحتها عن مساحة بروناي كلها ، أيضا تصدر بروناي كمية من المطاط لا بأس بها.

كانت كثافة الأشجار على جانبي الطريق وعمق امتدادها طوال الرحلة تؤكد قوله ، استأنفت الحديث قائلاً : لا أظن أنه توجد مشكلة بطالة هنا ، فعدد السكان قليل والدولة قادرة على توظيف أبنائها.

ضحك عثمان وقال : توجد بطالة من نوع غريب ، بعض المتقدمين للعمل من الشباب لا ترضيهم أحيانا الوظائف المعروضة عليهم لأنها لا توافق طموحاتهم سواء من ناحية المنصب المنتظر أو الراتب أو المميزات الأخرى ، مع العلم أننا لا ندفع ضرائب على الدخل ونحصل على التعليم لأبنائنا والرعاية الصحية مجاناً ، والتأمين الاجتماعي يوفر معاشاً لائقاً للجميع بعد سن الخامسة والخمسين ، والحد الأدنى للرواتب يعتبر الأعلى في منطقتنا. لا تنس أن للموظف الحق في الحصول على قرض حسن لشراء سيارة وله الحق في الحج على نفقة الدولة ، كل ذلك مقابل ساعات من العمل محدودة في ظروف مريحة ، لقد عشت في الغرب فترة من الزمن وأعرف قواعد العمل هناك ، ربما كان أفضل لهؤلاء المتبطلين أن يذهبوا ليووا العالم الحقيقي خارج بلادهم.

- أتابع يوميا قراءة صحيفة "بورنيو بوليتان" وألاحظ أن معظم حوادث مخالفة القانون المعلنة لا يتعدى تداول الخمر بطريقة غير مشروعة أو المخدرات ، وطبعاً حوادث الطرق ، المشاكل الاجتماعية تكاد تكون منعدمة هنا.

- في الحقيقة معظم هذه الحوادث يرتبط بالأجانب المقيمين في البلاد ، أما أبناء بروناي فلا يوجد ما ينغص عليهم الحياة.. لهذا تطول أعمارهم.

وصلنا إلى موقع الشركة في "توتونج" حيث قضينا ساعة ثم توجهنا بعدها إلى موارد حسب خطتنا، هنالك قضينا ساعتين ثم اتخذنا طريق العودة. قال عثمان في حماس ونحن نقرب من مشارف العاصمة.

. هل تمكنت من زيارة بندر خلال إقامتك هنا؟

. في الحقيقة لم أجد الوقت، ربما تتاح الفرصة قبل مغادرتي برونای.

صمت قليلا وقال: أحيانا لا تتاح تلك الفرصة، الآن نحن على مشارفها ولدينا ساعتان من النهار، دعنا نغتمهما، سنجول فيها معا ونتناول غداً.

كانت لفته كريمة من عثمان، فبعد ثلاثة أسابيع قضيتها مقيما في مقاطعة "كوالا بيلاييت" أو متنقلا في أنحائها كادت تتطبع في ذهني صورة غير صحيحة عن العمران في هذا البلد الجميل المتسم بالهدوء والسكون، لم تصح تلك الصورة سوى زيارتي هذه للعاصمة "بندر سيرى باجوان" أو كما يختصرها أبناء برونای إلى "بندر" حيث شاهدت مبانيها الأنيقة ودروبها المتحضرة واستشقت فيها روح الإسلام المتمثلة في مساجدها الفخمة. هي أكبر مدينة في برونای على الإطلاق وهي موطن معظم المزارات فيها، هادئة ونظيفة تماما، عدد سكانها ستون ألف نسمة يحيا نصفهم في الأبنية والعمارات الجميلة المقامة في شوارعها وميادينها، والنصف الآخر يعيش فيما يسمى قرى المياه التي تصطف أكوأخها على ضفاف الأنهر التي تحيط "بندر" مثل نهر "برونای" و "كيديان". تزلنا في مركز المدينة بالقرب من مجمع التسوق الشهير "ياياسان" وبدأنا جولتنا في حماس، أو هكذا كان شعوري وعياني تصافحان مسجدا فخما على بعد مائتي متر ذا قباب مطلية بالذهب. المسافة كافية لاستيعاب مبناه الرائع جملة واحدة، تجاوره بحيرة صناعية من المياه العذبة أو يسمى "لاجون" متصل بنهر "كيديان" يبرز من سطح تلك البحيرة قارب من الحجر مزين بألوان بديعة زاهية تزيد

المشهد روعة وفخامة. تركنى عثمان مفتونا بالمشهد دقائق قليلة ثم قال :-
هذا مسجد عمر على صفى الدين على اسم سلطان برونای الثامن
والعشرين والد السلطان الحالي. بنى المسجد عام ١٩٥٨ وهو أحد أعلى
المباني في بندر حيث يبلغ ارتفاع مأذنته ٤٤ مترا، وهو واحد من أكثر
المباني فتنة في جنوب شرق آسيا، في المساء تضاء من حوله الأنوار فيمسي
مشهدا يخلب الأبواب، هل تحب أن تراه من الداخل؟

- بكل تأكيد.. دعنا نصلی فيه صلاة العصر.

المسجد من الداخل يتميز بالبساطة والذوق الهادئ عكس مظهره من
الخارج الذى يأسر المشاهد ويفتته، فالمسجد في النهاية هو دور للعبادة
والصلاة. لكن هذا لا يعنى أن الذى شيده بخل في الأنفاق على وضع
اللمسات النهائية فيه، على العكس من ذلك، تجد أرضيته وحوائطه
مصنوعة من أجمل أنواع الرخام الإيطالي، زجاج نوافذه المزخرف صنع
في إنجلترا، السجاد المفروش في أرضه تم استيراده من بلجيكا، زينت
القبة من الداخل بثلاثة ملايين ونصف المليون قطعة من الموزايك أحضرت
من فينسيا، لكن أروع من ذلك كله كان وجوه المصلين الذين تواتروا
على المسجد بسماع صوت المؤذن ملين نداء ربهم، عمل خالص لله لا
يشوبه نفع دنيوى زائل.

بعد خروجنا من المسجد قال عثمان: لعلمك هذا ليس أكبر جامع في
بروناى، وإنما جامع "عصر حسن البلقية" هو أضخم جامع فيها، لكنه
يبعد عن هنا عدة كيلو مترات ولا يتسع الوقت لزيارته.

- ربما أمكن ذلك في مرة قادمة

- نعم، لكن قبل عودتنا إلى "كوالا بيلاييت" دعنا نمر إلى جوار
قصر السلطان لترى امتداده وضخامته وهو يسمى "إستانه نور الإيمان"،
ويعتبر أضخم من قصر الفاتيكان، تكلف بناؤه ٣٥٠ مليون دولار

ويشتمل على ١٧٨٨ حجرة و ٢٠٠ دورة مياه وقاعة تتسع لجلوس أربعة آلاف مدعو، وغير ذلك مما لا يسعه الخيال.

. هل مسموح بدخول العامة.

. مسموح بذلك في عيد الفطر حين يتفضل السلطان بمقابلة رعيته.

فى أثناء عودتنا سألت عثمان :الزائر لبروناي يدرك بدون جهد يذكر أن للإسلام أثرا كبيرا فى حياة الناس على كافة مستوياتهم، تدرك ذلك فى ملابسهم ومأكلهم ومشربهم، فى حسن المعاملة بينهم، الأمانة والصدق، هدوء المناقشة، إقبالهم على الصلاة فى المسجد.. كيف تجد فى ذلك حافزا لبلوغ المستوى الحضاري فى معناه الحديث؟

صمت عثمان طويلا قبل أن يقول: هذا سؤال محير، ربما لأننى أفهم مغزاه.

. لولا أننى عرفت بزياراتك المتكررة لأوروبا وأستراليا ما سألت هذا السؤال: أنت تعرف أن بروناي دولة صغيرة فى المساحة وعدد السكان، وما تقصده بالمستوى الحضاري فى معناه الحديث يتطلب إمكانيات هائلة، لا أقصد بذلك إمكانيات مالية فقط، الحضارة الحديثة أساسها الاكتشافات العلمية وما ينبثق منها من تكنولوجيا تسخر الأرض والفضاء للبشرية، وهذا يتطلب إعداد المختبرات وتأسيس الجامعات ووجود آلية صناعية قوية.

. أنا لا أقصد سلطنة بروناي على التحديد وإنما أعنى بصفة عامة مستعرضا أحوال المسائمين فى العالم التى لا تخفى على أحد.

. فى ظنى أن البحث العلمى تسبقه مرحلة هامة يسيطر فيها العقل على مسلك الإنسان.

. تقصد أن العلم لابد أن تسبقه فلسفة حياه تمهد له.

- تقريبا ، هنا يحدث الصدام مع المسلمات الدينية بصرف النظر عن ماهية الدين الذى تعنيه. أوروبا لم تبدأ عصر التنوير إلا بعد أن حسمت هذه القضية.

- لكن الإسلام استطاع أن يحفز البحث العلمى فى عقول المسلمين إبان عنفوان نهضته ولم تصطدم مسلماته بالعلم وقتئذ.

- هذه فترة استثنائية فى تاريخ المسلمين يحтар المرء فى فهمها.

- وما رأيك فى نجاح الباكستان فى تصنيع القنبلة النووية على أيدى علمائها وخبرائها ، وفى تفوق ماليزيا الصناعى والاقتصادى وكلاهما بلد مسلم كبير.

- فى الحالة الأولى كان لابد من إحداث توازن مع الهند ، وفى الحالة الثانية كان نقل الصناعات التقليدية إلى شرق آسيا ضرورة ملحة ليتفرغ الغرب للصناعات عالية التقنية ، لكننا لم نسمع عن كشف علمى فى أى دولة مسلمة فى العصر الحديث.. أو اختراع معروف فى كل أنحاء الدنيا يمكن انتسابه لها.

- أظن ذلك مرجعه للسياسة والاجتماع وليس للدين فى حد ذاته.

قال بعد صمت قصير: ما رأيك أن نتوقف لدقائق نحتسى كوبا من الشاي فى تلك الكافيتريا المقبلة؟

استأنفنا المسير بعد توقف قصير ، لكننا لم نستأنف نقاشنا فى هذا الموضوع الشائك وقد شعر كلانا بالراحة عند هذا الحد أو بالحرى.



خلال بضعة أيام تالية استكملنا المرحلة الأولى من العمل وبعد مناقشة التقرير الذى أعدته مع مديري الشركة اقتنعوا أن المرحلة التالية لا تستلزم وجودي فى بروناى ، رتبت لعودتي إلى مصر فى الثامن عشر من أغسطس على أن أعود مرة أخرى فى شهر نوفمبر من نفس العام للمتابعة والتقييم.



مرت الشهور مسرعة ووجدت نفسى مرة أخرى بين ربوع برونای هذا البلد الطيب، وكان شهر رمضان ينسج بنصفه الأخير ثوبا بديعا من التقوى والورع، ينساب في ربوع المساجد العامرة وأحاديث الروح في وسائل الإعلام المختلفة، لم أشعر بغريتي عن رمضان مصر المميز، اللهم إلا بغيابي عن أسرتي.

بمجرد أن علم صديقي سيد عبد الرحيم بعودتي إلى برونای حضر إلى الفندق الذى أقيم فيه واصطحبني لتناول طعام الإفطار مع أسرته فكفاني الشعور بافتقاد الأهل في تلك الأيام المباركة. قدمت لهم هدية بسيطة أحصرتها لهم من مصر فتقبلوها شاكرين، بعد الطعام جلسنا نتناول بعض الحلوى ونشرب الشاي. أحد أبناء عبد الرحيم يعمل مضيفا جويا في الخطوط الجوية الملكية لبرونای، سألني عن رحلتي كيف كانت وهل صادفتني متاسب تتعلق بإجراءات الأمن في المطارات المختلفة فأجبتة بالنفي ثم أضفت

- هذا لا ينفي حالة الترقب والفرع التى تسود العالم من أقصاه إلى أقصاه مما يدفع بالتوتر إلى مدى الخطأ والالتباس، بالتأكيد سمعتم عن الرجل المصرى المقيم في أمريكا الذى قتل أمام مكتب شركة العال في مطار بنسلفانيا على يد رجال الأمن، مدعين أنه كان مسلحا ومستعدا للهجوم على موظفي المكتب، اتضح أن الرجل كانت تربطه علاقة تجارية بهذا المكتب وأنه كانت هناك خلافات بينه وبين المكتب وما حدث من مشادة أدت إلى هذه النتيجة المحزنة لا علاقة له بالإرهاب الذى حاول رجال الأمن إلصاقه بالرجل.

قال عبد الرحيم: اختلاط الحق بالباطل ليس بالأمر المستحدث، ما يزيد شناعة أن قوة البطش فيه عمياء، كأن العالم قد خلا من المشاكل كى تعصف بالأمان فيه تلك المشكلة، والله حين أدخل المسجد وأشاهد المصلين خاشعين في صلاتهم لا أصدق أن الدين الذى ابتعث فيهم هذا السمو يمكن أن يصفه عاقل بالعدوانية.

قال ابنه الذى يعمل بالأرصاد الجوية: يجب أن تعرف أيضا يا والدي بأن الجمود قد أصاب الفكر الإسلامى وهو ما يسمح للعالم باتهام

المسلمين بالتخلف، لا بد أن تتحرر عقولنا، بعض الدول المسلمة لا تقبل حساب الفلك في تحديد أوائل الشهور القمرية عندها ويصرون على رؤية الأهلة بالعين المجردة، بالرغم من التقدم الهائل في علوم الفضاء وحسابات الفلك، ألا يشعروا ذلك بالغربة في عصر ينهض على العلم ولا يعترف بغير الأدلة العقلية؟

أجابه أخوه المضيف

- هذا شأن داخلي، لأنهم في معاملاتهم مع العالم يخضعون لقواعده في الوقت والحساب. لا أعرف جداول طيران يحدد فيها التاريخ باحتمالات بداية الشهور القمرية وإلا سادت الفوضى.

قلت بعد فترة صمت سادت بيننا: أظن التحدي الحقيقي الذي يواجه المسلمين هو كيف يفهمون دينهم في ظل متطلبات العصر الحديث، ولو تمكن مفكروهم من إزالة التناقض الظاهر في عديد من الأمور لأقبل عليهم الناس في ثقة وزالت شكوك من حولهم وامتنعت الريبة. لا مفر من أن تتطلق صيحة التحديث في شجاعة ودون خوف من لوم أو اتهام من أحد.

قال عبد الرحيم: دعنا ندعو الله أن يوفقنا لفهم دينه كما يشاء... أرى أن ننطلق إلى المسجد لنلحق بصلاة العشاء والتراويح.

وصلنا إلى مسجد "كوالايبلايت" فوجدته غاصا بالمصلين حتى اضطررنا لترك السيارة على مسافة بعيدة من المسجد لازدحام الشوارع المجاورة للمسجد بسيارات المصلين داخله بالرغم من وجود المسجد في وسط المدينة تحيطه الشوارع والميادين الفسيحة. قضيت صلاة العشاء ثم التراويح دون اختلاف يذكر عما هو معتاد في مساجد مصر خلال أشهر الكريم، إلا أن الإمام يستمسك بقراءة قصار السور في القرآن الكريم لأسباب تتعلق باللغة.

كانت الاستعدادات لاستقبال عيد الفطر المنتظر بعد عشرة أيام تمضي في حماس متمثلة في الزينات الخاصة بالمحلات والميادين العامة، إعلانات التهنية التي تصافح السائرين في الشوارع، والموسيقى التي تصدح في فرحة لقدوم "هارى زايا عيد الفطر" كما يطلقون عليه في

بروناي. أشار عبد الرحيم إلى ازدحام الأسواق وسألني بلسان الحال: هل ستقضى عيد الفطر معنا في بروناي.

أجبت: خطة العمل المتفق عليها لا تتطلب أكثر من أسبوع هذه المرة، بعده سأعود إلى مصر لأقضى العيد مع أسرتي، لكن لو حدث تغيير في هذا الترتيب لأي سبب واضطرت للبقاء فسوف أخطررك.. دعني أهنيك بالعيد مقدما.



في اليوم التالي دعاني وليم لطعام الإفطار في مطعم افتتح حديثا في "كوالا بيلاي"، شملت الدعوة أيضا مهندسا زائرا من استراليا وزميلا لويليام ينتمي إلى الجالية الصينية في بروناي.

وصلنا إلى المطعم بعد أذان المغرب فكان الموعد مناسباً لنبدأ الطعام معا حيث أنني كنت المسلم الوحيد بينهم. جلسنا إلى المائدة في ركن من أركان صالة الطعام قريبا من النوافذ الزجاجية التي تسمح برؤية نهر "بيلاي" الذي تشرف عليه المدينة وتنتمي لأسمه.

استطرد الحديث مع الطعام في موضوعات شتى بما فيها الحرب ضد الإرهاب التي تتزعّمها أمريكا وتفرضها على العالم فرضا والتي يدفع تكلفتها الفقير قبل الغني رضى أم أبى.

قال المهندس الأسترالي ويدعى "ديف": لو خاض العالم حربا ضد الفقر والجهل بنفس الحماس لارتقت البشرية وتقدمت شعوبها.

قال وليم معلقا: تخيل أن تتفق تلك المليارات الهائلة من الدولارات على أبحاث السرطان أو الإيدز فنقضى عليهما قضاء مبرما.

قلت: نادرا ما تجد فردا عاديا مثلنا راضيا عما يجري في العالم، أي دليل إذن على وجود ديمقراطية فيه؟

ابتسم وليم وقال: لا شك أن الديمقراطية تواجه تحديا خطيرا متمثلا في الإرهاب الذي اصطبغ بصبغة دينية أو إن شئت الصراحة ارتدى بزى إسلامي صريح مهما اختلفنا في صدق ذلك من زيفه، لازلت أذكر سؤالك عن السياسة والدين، في الغرب انفصلت الكنيسة عن الدولة

وتفرض الناس لشئون حياتهم دون محاذير أو قيود إلا ما تسنه الدساتير الموضوعية من قبل ممثليهم وهذا وجه من الديمقراطية لا جدال فيه.

قال المهندس الصيني ويدعى "تانج": أرى المجتمعات البشرية كلها تتحوّل هذا النحو بما فيها معظم المجتمعات المسلمة وإن لم يعلنوها صراحة، الإنسانية كلها تبدو وقد عقدت عزمها أن تأخذ أقدارها بيديها ولا تنتظر ما يأتي به الغيب.. ما يحاول المتطرفون أن يظهروه من مقاومة لن يصمد أمام زحف المجموع، العصر هو عصر البراجماتية العلمية ولا توجد عقيدة مؤهلة للتحالف معه.

قلت: أعتقد أن السبب في إعلان الغرب الحرب على الإسلام هو أنه عقيدة حياة وليس منظومة للعبادات والشعائر فحسب ومن هنا تأتي القوى المنظمة لحياة البشر من الغيب كما وصفت أو من الخالق كما يقرر الإسلام.. لا أظن أنها مسألة تفصل فيها قوة العناد.

قال ديف: كان من المفترض أن تزيد ثورة الاتصالات من تفاهم بنى البشر ومن ثم تقرب بين أفكارهم وخواطرهم، لكن ما يحدث هو العكس، فعالم اليوم أكثر فرقة وتباعدا بالرغم من تشابك مصالحه.

قال ويليام: أصبحت مساحة إبداء الرأي أمام الفرد هائلة عن طريق الإنترنت أو البريد الإلكتروني، لم يعد ذلك قاصرا على فئة محدودة من المفكرين والكتاب، لهذا يبدو التشرذم تغذية وسائل الإعلام بطرقها المختلفة.. لكن سوء الاستخدام صفة تلازم كل منتج حديث.

قال تانج: تطبيقات العلم تيسر حياة الإنسان من جانب وتعقدها من جانب آخر، لكنها لا شك تجعل منه سيّدا لنفسه والأرض التي يعيش عليها.

قلت: كيف يمكنه أن يكون سيّدا لنفسه ونزعات الشر تسوقه للعدوان والظلم، كيف يكون سيّدا للأرض وهو لا يملك أن يسير رجا أو يمطر سماء أو يسكن موجا. إنجازات الإنسان لا يمكن الاستخفاف بها لو قيس بعمره القصير على وجه الأرض خاصة في المائة سنة الأخيرة..

لكن الطريق أمامه ليسود نفسه والأرض التى يسكنها لا يزال ممتدا
وبعيدا.

قال ويليام: من هنا تتساب الأديان في نفوس البشر ويكون للغيب دور
فاعل.

قلت: لماذا لا نبدأ بقبول الاختلاف ثم نسعى للفهم وإذا تعسر علينا
ذلك نتجاوزه إلى حين تسمح عقولنا بفهمه وتتسع نفوسنا لقبوله؟

قال ويليام: هذه لحظة مناسبة لتذوق الحلوى واحتساء القهوة والشاي.



بعد يومين وجدت نفسى جالسا في غرفتي بالفندق وحيدا دون موعد
أو ارتباط، أذان المغرب يقترب حسيسا، فقررت الخروج وتناول طعام
الإفطار في نفس المطعم الذى دعاني فيه ويليام من قبل، الطعام فيه جيد
ويكفى أن تكون الموائد من حولي عامرة بالمفطرين فلا أشعر بالوحدة

اصطحبني المضيف إلى مائدة منفردة بعد أن تأكد أنى بمفردي،
جلست أنتظر الدقائق الأخيرة في صيام اليوم الثالث والعشرين من
رمضان، فجأة برزت فتاة محجبة يصطحبها شاب نحو مائدة مجاورة،
نظرت في اتجاهي وابتسمت قائلة:.. هل تذكرني؟ عايدة!

شعرت بالسرور أن يصادفني شخص أعرفه وأجبتها

- بلا شك، سألت عنك في المكتب اليوم وعلمت أنك في أجازة.

- هذا خطيبي عبد الرحمن، لماذا لا تنضم إلى مائدتنا ونفطر معا.

مددت يدي لمصافحة خطيبها وقلت: بكل سرور على ألا يكون في
ذلك إزعاج لكما.

بدأنا نتناول طعامنا بحبات التمر كما هي العادة هنا ومع الطعام
نتبادل الحديث، سألتني: هل ستمكث في بروناى بعض الوقت كالمرة
السابقة؟ حفل زفافنا سيكون بعد عيد الفطر بأسبوع ونزعم أن ندعوك.

أجبتها: أوشكت على إنهاء مهمتي وسأعود إلى مصر بعد يومين، أشكرك على دعوتك وتهنئتي القلبية لكما، هل تتوين الاستمرار في عملك بالشركة بعد الزواج؟

. فقط بعض الوقت حتى يرزقنا الله بطفل فأمكنك بالبيت لتربيته، هذا هو المعتاد هنا، وإن كان البعض يستمر في العمل بالرغم من ذلك معتمدا على الأهل أو المريات.

سألني خطيبها: هل مسموح بعمل المرأة في مصر أيضا أم تتحو مثل بعض الدول المسلمة التي تجاورها؟

. مسموح به في جميع المجالات التي تختارها حتى في البوليس كما هو شأنها في برونای، ربما كان العامل الاقتصادي يحتم عليها الاستمرار في عملها بعد الزواج في كثير من الأحيان، والمجتمع لا يناهض ذلك.

قال: عندك حق فالإسلام لم يحرم المرأة حقها في العمل وكسب العيش، إنما يؤثر في ذلك المجتمع الذي تعيش فيه بعاداته وتقاليده سلبا أو إيجابا.

قالت عائدة: من الواجب أن تتفتح تلك المجتمعات على العصر الذي نعيشه، أعرف أن بعضها لا يسمح للمرأة بقيادة السيارة بادعاء حمايتها وصونها .

قلت مذكرا إياها: حين أتيت لاصطحابي إلى المكتب بسيارتك في اليوم الأول لعملي هنا كان ذلك دليلا على أشياء طيبة كثيرة تمضي في برونای. أين ستمضيان شهر العسل؟

قالت: كما عرفت عبد الرحمن يعمل في شركة الخطوط الجوية الملكية لبرونای وقد رتب لنا رحلة إلى سنغافورة ثم "كوالالامبور". نرجو أن تكون لك زيارات أخرى لبرونای إذ يسعدنا دعوتك إلى بيتنا.

بعد انتهاء الطعام انصرفا معذرين لارتباطهما بموعد، وأخذت احتسى كوبا من الشاي، أسعدتني صحبتها على غير موعد أو أمل في صعبة إفطار، لكن المفاجأة التالية كانت أصعب على التصديق.

اقترب منى رجل من أهل برونباي كان يجلس ضمن مجموعة من رجال ونساء إلى المائدة المقابلة وسألني بعد تحية معتادة: من أي البلاد يا أخي؟

أجبتة فقال:- انتظر ذهب إلى مائدته ونبه أحد الجالسين كان موليا ظهره لى، اصطحبه في اتجاهي قائلا: هذا ممدوح أخ فاضل آخر من مصر.

لم يخطر ببالي مطلقا أن يصادفنى مصري في تلك الدولة الصغيرة من طرف العالم، والأعجب من ذلك أنه يعمل طبيبا بيطريا في عيادته الخاصة بالعاصمة "بندر" والتي تكاد تكون العيادة البيطرية الوحيدة في برونباي، كان في زيارة لأحد عملائه في "كوالا بيلاليت" الذي دعاه لطعام الإفطار في هذا المطعم، ولكن لممدوح هذا قصة أعجب من تلك المصادفة لا يتسع لها هذا الكتاب.



جلست في مطار برونباي الدولي أنتظر النداء على الطائرة التي ستقلنى إلى سنغافورة ومن هناك إلى القاهرة كنت أشعر بالرضا لنجاحي في المهمة التي كلفت بها وفى نفس الوقت نجاحي في الوصول إلى الإنسان في هذا البلد المسلم والتعرف على جوانب الحياة التي يعيشها سواء كان من أبنائه أو وافد إليها من بلاد تبعد عنها آلاف الأميال في المسافة وتختلف معها في الدين والسياسة، لكن الطيبة والسماحة والخلق الحسن أظل الجميع بظلال الإنسانية الوارفة التي شكل الإسلام أصولها وأصبح عنوانا لها في برونباي.

لكنني لم أجد إجابة لبعض الأسئلة التي قفزت إلى ذهني في استعراضى لذكرياتى عن هذا البلد... هل الدين يغنى عن السياسة؟ هل الحياة الرغدة المريحة هي هدف المسلم؟ هل التقرب إلى الله بالصلاة والحج يكفي المسلم لريادة الحضارة الإنسانية؟

لماذا لا توجد مختبرات علمية إلى جوار المساجد؟ لماذا لا يؤهل للعلم كما يؤهل للإمامة؟



السيد عبد الرحيم وأسرته



مسجد "باندان" في ضاحية باندان

هل هى طبيعة البشر التى تميل بهم إلى الدعة؟ هل الضرورة هى شرط الإبداع والشعور بالخطر هو الذى يقدر العقل؟
ظلت تلك التساؤلات تحاصرني والطائرة تندفع فى قوة تحملها فوق جاذبية الأرض ثم أخذت تعلو فى غرور والأرض تتضاءل لمن يتابعها من النافذة. بعد لحظات اختفت بروناى كنقطة صغيرة على بحر الصين الجنوبي ثم توارت كل النقط والطائرة تعلو فوق السحاب.. لكن ما تنظر إليه العيون ليس كل ما تخبئه العقول.



السيد عبد الرحيم وأسرته



مسجد السلطان عمر علي صفي الدين ذو القباب المذهبة في العاصمة "بندر"



على أبواب مسجد السلطان عمر علي صفي الدين في "بندر" العاصمة



أمام مسجد السلطان عمر في العاصمة "بندر"



مسجد "كوالا بيلاييت" .. طراز مختلف من العمارة

الفصل الثاني

جمهورية فيتنام الاشتراكية

يفرق بحر الصين الجنوبي بين برونای وفيتنام لكن الفروق الأخرى بين البلدين أكثر عمقا واتساعا. لعل شعوري بذلك الاختلاف البين كان سببه أن زيارة أحدهما تبعتها زيارة الآخر دون ترتيب أو تخطيط مسبق، فالزمن يذيب الذكريات إذا امتد واتصل ويحد من الانفعال بالاختلاف، لكن هناك حقائق تظل ثابتة مع بعد المكان وامتداد الزمن.

مساحة فيتنام ستة وخمسون ضعفا مساحة برونای وتمتد سواحلها إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف كيلو مترا بينما ساحل برونای يمتد حوالى مائة وعشرون كيلو مترا، تعداد السكان في برونای كما ذكر من قبل - ثلاثمائة وخمسين ألفا بينما تعدادهم في فيتنام عام ٢٠٠٢ حوالى ثمانين مليوناً يمثلون أربعة وخمسين أصلا عرقيا تتفاوت نسب تمثيلهم في هذا التعداد، لكنهم يعيشون كشعب واحد خاصة بعد أن توحد شطرا وطنهم عام ١٩٧٥، يتحدثون اللغة الفيتنامية والبعض منهم يتحدث الروسية كلغة ثانية ونادرا ما تجد أحدا يتحدث الإنجليزية، الديانة الأساسية البوذية ثم المسيحية التى يعتنقها حوالى ١٠٪ من السكان، المسلمون في هذا البلد قلة قليلة حوالى نصف في المائة، والفارق في مستوى المعيشة ودخل الفرد بين برونای وفيتنام هائل، وكما هو معروف فنظام الحكم في فيتنام لا يزال شيوعيا في مذهبه السياسي.

هل كانت الطائرة التى أقلتنا من باريس إلى مدينة "هوشى منه" تدرك وهى في أعماق السماء وأحضان الليل ما يحوم في خيال راكبيها من قلق فتعبر عن ذلك بالانتفاض والاهتزاز؟ نظر إلى "إرفين" - رفيقي في تلك الرحلة - وكان يحاول الاستغراق في النوم وقال دون أن يبدو عليه أي قلق

- العاصفة تداعب الطائرة كما نبه قائدها منذ قليل، ربما من الأفضل أن نربط الأحزمة.

قلت محاولا الابتسام: على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم والظلمة تحيط بنا ودرجة الحرارة خارج الطائرة ناقص ستين درجة مئوية أظنها مداعبة خسنة.

- لا بد أن بدن الطائرة يتحمل تلك الاهتزازات، تأكد أن مفاصلها أقوى من مفاصلنا.

- نعم، سوف أتأكد من ذلك حين تطأ أقدامنا مطار سايجون..

قال مذكرا: سوف تتوقف الطائرة قليلا في مطار بانجوك مع مطلع النهار قبل أن تواصل رحلتها إلى سايجون أو "هوشى منه" اسمها الحديث. دعنا نحاول الاسترخاء قليلا.

إنه لأمر غريب أن يحملك هذا الصندوق المعدني المسمى طائرة على هذا الارتفاع الشاهق من أعنان السماء وينطلق بسرعة ثمانمائة كيلو متر في الساعة لتجد نفسك في الطرف الآخر من العالم، تشاهد أقواما يختلفون عنك في الثقافة واللغة واللون والجنس والدين، ولا يزال هناك من الإنسانية مساحة تكفى لتتواصل بهم وتهنأ بصحبتهم والعيش بينهم. لقد كانت تلك الرحلة إلى فيتنام أبعد ما تكون في خيالي، ولولا أنني كلفت بمهمة عمل هناك ما فكرت في السفر إلى تلك البلاد التي تحيط بخيالنا في مصر بانتصارهم على أمريكا بعد دفاعهم البطولي عن وطنهم بالرغم من الفارق الشاسع في الثروة والقوة.. نموذج فذ في الاستماتة على الحق حتى ينتصر وتدعن له قوى الباطل الغاشمة.

طبقا للأسطورة التي أطلعها بهذا الشعب المناضل بمجموعاته العرقية المتعددة هو نسل "لاك لونج كوان" و "أو كو" الذي انحدر من فقس مائة بيضة نصفهم تبع أمهم إلى الجبل والنصف الآخر صحب أباهم إلى البحر وتكاثفت أيديهم جميعا لبناء هذا الوطن من جبال ثلاثة

وبحور أربعة واليابسة. هذا ما يفسر الطبيعة الغنية لتلك البلاد من أنهار وبحار وجبال وسهول ومرتفعات وجزر. ثلاثة أرباع مساحة فيتنام يتكون من جبال وهضاب، والأنهار العظيمة مثل نهر "ميكونج" ونهر "دونج ناى". هبطت الطائرة في مطار "هوشي منه" مع منتصف النهار، استغرقت إجراءات الخروج من المطار حوالى الساعة. الوجوه المتزاحمة التى تصافحنا تعلن أننا قد غادرنا أوروبا إلى بقعة أخرى من العالم، تتبئ بذلك الملامح واللون والقامة.

لفحتنا حرارة الجو والرطوبة لدى مرورنا بالجموع المصطفة في انتظار القادمين ولاحت لنا مظاهر الفوضى والازدحام خارج المطار حتى عثرنا على الدليل الذى ينتظرنا والذى اصطحبنا إلى السيارة التى سبتقلنا إلى محطة الوصول مدينة "فونج تاو".

نظر إلى "إرفين" وابتسم، إجهاد السفر باد في ملامحه، قال

- تركنا ألمانيا بالأمس ودرجة الحرارة خمس مئوية، هنا درجة الحرارة لا تقل عن الثلاثين مع ارتفاع الرطوبة الملحوظ... يحسن بنا أن نخفف من ملابسنا وإلا سوف نخنق.

هالنا مشهد الموتوسيكلات التى لا يمكن حصرها ونحن نخترق شوارع سايجون بما لا يدع للسيارات القليلة فرصة السير دون استعمال النفير، واللحظات التى تتوقف متحفزة للسير عند إشارة مرور يزار صوت محرركاتها مهددا في غضب يصم الأذان.

كافحت السيارة كفاحا مريرا حتى تجاوزت شوارع المدينة المزدحمة بالناس والموتوسيكلات وما تنفثه من عوادم الوقود والضوضاء ثم اتخذت طريقها نحو مدينة "فونج تاو" التى تبعد حوالى مائة وخمسين كيلو مترا إلى الجنوب الشرقي من سايجون العاصمة القديمة لما كان يطلق عليه فيتنام الجنوبية.

كان الليل قد بدأ يهبط والسيارة ماضية في سرعة تلائم حالة الطريق التي تتحسن في بعض الأجزاء ثم تعود لما هي عليه، حتى وصلنا إلى المدينة المنشودة بعد حوالي ثلاث ساعات، لطف من وعشاء السفر ترحيب موظفات الاستقبال بنا في فندق "بترو هاوس".

بالرغم من ارتباط الجسد بموعد النوم واليقظة مع فارق في التوقيت بلغ ست ساعات إلا أن الشيء الملح في تلك اللحظة بعد مضي أربع وعشرين ساعة منذ مغادرتنا هامبورج في ألمانيا إلى فرنسا إلى فييتنام - كان الاستسلام للنوم كيفما كان، ومع نصف في المائة من تعداد السكان يدينون بالإسلام لم أنتظر أن يتسرب إلى حجرتي صوت مؤذن الفجر كما حدث في "بروناى" ولم يحدث.



ذهبنا في الصباح لاجتماع مع ممثلي الشركة الفيتنامية لمناقشة برنامج العمل في المرحلة الأولى. في الطريق إلى مقر الشركة كانت المحلات قد فتحت أبوابها وعرضت منتجاتها على قارعة الطريق من كل صنف ولون، المشهد لا يوحى بالوفرة والثراء لكنه مشع بالحيوية والإقبال على الحياة بكل معطياتها. لاحظ "إرفين" محلا يعرض توابيت الموتى من مختلف التصاميم والألوان فأبدى حماسا مفاجئا للتوقف وإمعان النظر، لكن "مايكل" زميلنا الإنجليزي المقيم في فييتنام رجاء أن يرجئ رغبته إلى وقت آخر..

ابتسم "إرفين" في صدق قائلا: أرجو المَعذرة، لأننى أكبركم سنا أشعر أننى أقرب إليه منكم، يثير اهتمامي مستقري الأخير.

قلت مترددا في الخوض بحديث الموت مع بدء صباح جديد: ليس بالضرورة أن تكون أقربنا إليه لأنك أكبرنا سنا، الاهتمام بالمستقر الأخير لا جدال فيه.

تدخل مايكل مسرعاً قبل أن تتفارق المناقشة: اقتربنا من مقر الشركة.. هل نحن مستعدون؟

قادت المناقشات من الجانب الفيتنامي "مدام مي" امرأة دقيقة الملامح قصيرة القامة حتى بالقياس المحلي نحيلة جداً، كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة كذلك الروسية إلى جانب لغتها الفيتنامية، رجاحة في العقل واضحة ومقدرة على سياسة الرجال من حولها، كانت تقوم بترجمة ما نعرضه إلى الوفد الحاضر معها ثم تناقشهم فيه وتعرض علينا الرد حتى وضحت الأمور للجانبين سألتني بعد انتهاء الاجتماع الجو في جنوب فيتنام يختلف عنه في ألمانيا خاصة في شهور الشتاء لا نشعر هنا باختلاف يذكر في درجات الحرارة على مدار العام، فقط توجد مواسم للأمطار. هل يمكنك التأقلم بسهولة مع هذا الجو الاستوائي، وجودك معنا سوف يستغرق بعض الوقت؟

كان واضحاً أنها تجاملني بحديثها، أجبته قائلاً: لا أظنني سأجد صعوبة في ذلك، لأنه يشبه الصيف في موطني مصر، فيما عدا سقوط الأمطار صيفاً.

. تصورت أنك تعمل وتعيش في ألمانيا.

. أعمل هناك حسبما تحتم ضرورات العمل، لكنني أعيش في مصر.

. هل فيتنام معروفة في هذا المكان من العالم؟

. لم ينتصر على الأمريكيان أحد غيركم حتى الآن. لابد أن فيتنام معروفة في العالم أجمع.

قالت منبهة: هذه الحرب كلفتنا الكثير، نحن مشغولون ببناء ما تهدم ولا نلتفت طويلاً إلى الوراثة. في منطقتكم أيضاً عانيتم الكثير من الحروب ويجب أن يكون لذلك نهاية.

قلت ونحن نستعد للانصراف: أرجو أن يتوفر لك الوقت لحضور البرنامج التدريبي يوم الجمعة القادم.

قالت مودعة: على الأقل سأحضر جانباً منه لأننى منوطة بمتابعة هذا المشروع الذى نعول على نجاحه.



كانت العضلة الرئيسية فى برنامج العمل اللغة، لأن أحداً منا لا يتحدث الفيتنامية، ولا يتحدث الإنجليزية أحد من موظفي الشركة المتدربين، لهذا استعنا بمترجم للفيتنامية وآخر للروسية لوجود عدد من المتدربين الروس وتم اجتياز تلك العقبة بالصبر والمثابرة.

فى خلال اليوم دعونا المتدربين إلى غداء بأحد المطاعم فى فندق بترو هاوس بعد أن عرفنا أن نظام العمل فى فيتنام يمنح العامل أو الموظف فترة توقف لمدة ساعتين من الحادية عشرة حتى الواحدة يحق له فيها الذهاب لمنزله لتناول طعام الغداء وربما لإغفاءة قصيرة.

تجمعنا حول الموائد ولاحظت أن النساء الحاضرات تخيرن مائدة منفردة تجمعن حولها، اجتمع الحاضرون الروس وعددهم أربعة إلى مائدة انضم إليها اثنان من الفيتناميين وأنا معهم والباقيين تفرقوا بين الموائد الأخرى وبينهم إرفين زميلى فى العمل. كان العنصر الفاصل اللغة والجنس، لكن الحد الأدنى من التوافق الإنسانى كان متوفراً، كأننا نجلس جميعاً إلى مائدة واحدة. على مائدة الطعام فى فيتنام يشتهر لحم الخنزير فهو رخيص الثمن ومتعدد الأطباق، لذا كان على أن آخذ حذري فى انتقاء طعامي، لحم البقر متوفر إلى حد ما لكنه غير مستساغ، لهذا كان طعامي المفضل والمعتاد الأسماك.

بدأنا برنامج الغداء كما هو متبع فى كل مكان بالحساء والسلطة ثم الطعام الأساسى وانتهاءً بالحلوى والشاي، خلال ذلك امتد الحديث وتشعب يدفع به الفضول وحب الاستكشاف وربما الدهشة والرفض.

فى البداية لاحظ الفيتنامى الجالس إلى جوارى ويدعى "هو" تفحصى فى قائمة الطعام ففرض مساعدته قائلاً بإنجليزية ضعيفة: يمكننى إيضاح محتويات الأطباق التى تغمض عليك.

قلت شاكراً: أتجنب منها ما يحتوى لحم الخنزير فهد محرم على المسلمين.

قال الروسى المواجه لى ويدعى "فاليرى" باللغة الروسية وقد فهم ما يدور من همس بيننا.. ترجم حديثه مواطنه "أليكسى" المترجم المعين من قبلنا

- لحم الخنزير فى فيتنام من أشهى الأطباق وأرخصها، ما دخل الدين فيما يأكله المرء ويشربه؟

لم تفاجئني جرأة سؤاله وإن كان التوقيت غير لائق.. أجبته عبر مترجمي

- هذا يعتمد على تقديرى لدور الدين، هل هو عبادات وشعائر فحسب أم نظام شامل لحياة الإنسان بما فيه مأكله ومشربه.

قال فاليرى: نظم الإنسان حياته فى كثير من الأمم دون حاجة ملحة لهذا الدور.. انهيار الاتحاد السوفيتي لم يكن سببه غياب الدين، والروس ليسوا أكثر تدبناً من ذى قبل، ولا الجمهوريات الإسلامية التى انفصلت عنه أكثر إسلاماً مما كانت عليه تحت حكم الروس.

قال "هو" بعد أن أشار على ببعض الأطباق الخالية من الخنزير: فى تصورى الأكل فى مجمله ما يعتاده المرء فى مجتمعه.

قال "فاليرى": هذا صحيح، لهذا يألف مجموعة من البشر ما تتجه بيئتهم من طعام مما قد ينفر منه مجموعة أخرى نشأت فى بيئة مختلفة.. كما أنه ليس من الطبيعى أن يشذ الإنسان عن الطبيعة.

قلت له متسائلا: إذن أنت تتفق معى في أن الطبيعة البشرية جزء من الطبيعة التى تعنيها؟

- ماذا تقصد؟ من طبيعة الإنسان الارتباط بالغيب ومنه تنشأ العاطفة الدينية كما أثبتت دراسات الأنثروبولوجي لقبائل الإنسان في فجر التاريخ، هل تنشأ بسبب الخوف من المجهول أو الرجاء فيه لا يهم.

بدأ يدرك ما أرمى إليه إذ قال: تعنى أن الدين أو بالأحرى العاطفة الدينية جزء من طبيعة الإنسان، لأنه يرسم صلته بالغيب الذى لا ينقطع عن التفكير فيه.

استرسلت موضحا: من هنا كان للدين ضرورة لاستجابته لفطرة الإنسان.

قال "هو" الذى بدا ملما ببعض الروسية: أنا لا أدري علاقة ذلك بلحم الخنزير

قلت: لا يوجد دين معروف لم يرتبط بتحريم أو تقديس نوع من الطعام ولو ارتبط ذلك بفترة محددة. المرء إذا اعتنق دينا لا يفصله على هواه وإنما يقبله بما فيه، إذا كان مسلما آمن بالله الواحد واتبع ما أمره به وانتهى عما نهى عنه، ومحرمات الإسلام في الطعام لا تقتصر على لحم الخنزير بل تمتد إلى الميتة والدم وغيرها مما ترفضه أيضا الأديان الأخرى.

تساءل "فاليرى": ويموت المسلم جوعا إذا لم يجد أمامه الطعام الذي يوافق ملته؟

قلت: هذا غير صحيح، فالضرورات تبيح المحظورات، والحفاظ على الحياة من الهلاك له الأولوية في الإسلام، وحدث في التاريخ الإسلامى أيام المجاعات ما يؤكد ذلك حيث أبيع كل ما أتى من طعام.

تساءل "هو": وما الحكمة من ذلك إذا كان الطعام لا يضر طاعمه على أى حال؟ أعرف أن الخنزير كان يحمل في جسده البكتريا، لكن العلم الحديث تمكن من تخليصه من هذا الخطر الكامن وأصبح لحمه سليما خاليا من أية شبهة تضر بالصحة علاوة على طعمه الشهي ورخص ثمنه مقارنة بالأبقار؟

أضاف أليكسى مؤكدا: التحريم يكون مفهوما منذ ألف عام حين كان العلم قاصرا وكان ذلك مصدرا للعدوى والمرض، أما الآن فالحكمة تتقضى.

قلت: الدين لا يحل محل العلم والعكس صحيح، الحكمة المقصودة من أى تحريم هى طاعة الله، المعبود الذى يتساوى أمامه الجميع، حين يحكم البشر دستور سماوى لن يتطرس قوى ولن يتجبر طاغية وينتشر العدل في الأرض، البداية هى التسليم بأنه القوى المطلق الواجب طاعته على الجميع.

قال فاليرى: وكنا قد بدأنا نحتسى الشاي والقهوة وأسلمنا أنفسنا لاسترخاء الظهيرة

- العدل حلم البشر الذى لن يتحقق لأنه ضد منطق الطبيعة الذى لا يعرف غير القوة ولا ينتصر لغير الغالب.

بعد انتهاء الغداء تفرقنا لبعض الوقت، ثم عدنا لاستكمال يوم العمل الذى امتد حتى الخامسة. كنا متشوقين لنهاية الأسبوع كي نختطف قسطا من الراحة بعد أسبوعين متصلين من العمل والسفر.



فى الغد عقدنا العزم أن نخرج للتريض على ساحل البحر بالرغم من حرارة الجو، أثناء انتظاري "إرفين" في بهو الفندق سألت موظفة الاستقبال الأنسة "زوم" عن خريطة لمدينة "فونج تاو" فأحضرت واحدة وتطوعت لتحديد مكاننا فوقها وكيف نتوجه إلى الشاطئ وما هى علائم المدينة

المميزة. كانت تتحدث بلغة إنجليزية جيدة بتلقائية وود يحث على الاستمرار في الحديث خاصة أنها لم تكن مشغولة تلك الدقائق. قالت: - عليك أن تأخذ حذرك، السير في هذا الجو فترة طويلة قد يؤذيك.. الجو كما أسمع عن أوروبا شديد البرودة هذا الوقت من السنة.

قلت موضعا: تمر بنا في مصر أيام حارة كتلك، لكن ليس في هذا الوقت من العام.. في فبراير يكون الجو باردا أيضا. عموما لا يعادل السير على الأقدام وسيلة للتعرف على مكان جديد.

قالت: كيف لي أن أعرف ولم أخرج من "فونج تاو"، لابد أنك كثير الأسفار؟

- مهما كانت أسفاري فأنت أعلم بمدينتك.

- إذا احتجت لمشورة ستجدني هنا أيام الأسبوع ما عدا الأحد، إجازتي الأسبوعية.

لمحت إرفين يهبط السلم ثم يتقدم نحونا ليترك مفتاح غرفته.. ألقى تحية الصباح، شكرت الأنسة "زوم" وانطلقنا نحو الشاطئ.

لفحتنا حرارة النهار فور خروجنا من الفندق المكيف مع ضوضاء الشارع وهدير الموتوسيكلات المتناغم مع النفير المستمر وراكبيها الذين يغطون أفواههم حماية من الجو الخانق والحرارة.. لقد وجدت مكانا يفوق القاهرة في صحبه وحيويته. نظر إرفين إلى وابتمسم دون تعليق فقد سبقت له زيارة القاهرة عدة مرات من قبل.

بدأنا نسير بمحاذاة الشاطئ الذي التصقت لجانبه في فوضى واضحة محلات كثيرة لبيع المشغولات اليدوية البسيطة والقهواى والمطاعم بما لا يترك للمشاة فسحة كبيرة للامسة رمال الشاطئ. كانت هناك بعض مراكب الصيد الخشبية المتراكية على بعد أمتار قليلة في مياه لا يشجع لونها على الاستحمام فيها وإن شاهدنا البعض يلهو فيها بمرح.

طوال الطريق لم يدعنا محل واحد نمر من أمامه دون أن يلح علينا في الدخول والمشاهدة، غير الباعة الجائلين الذين تحلقوا حولنا في كل خطوة في إصرار كى نلقى نظرة على ما يحملونه من كروت سياحية وهدايا تذكارية بسيطة. كان مواصلة السير على هذا المنوال تنغص علينا حديثنا ورغبتنا في تواصل أفكارنا فعرض على "إرفين" اللجوء لأحد المقاهي للاحتماء به فقبلت على الفور، وبالرغم من ذلك لم نسلم من متابعة هؤلاء الباعة لنا وكأننا صيد ثمين، حتى استغثنا بصاحب المقهى ليحمينا من عدوانهم. بدأنا ننتبه لرائحة الفقر المنتشرة في معظم المكان.

كنا نتبادل الرأى في كيفية تنفيذ برنامج العمل حيث كان مقررا عودة "إرفين" إلى ألمانيا بعد ظهر هذا اليوم على أن أستكمل أنا البرنامج التدريبي على الحفارات البحرية التى تبعد مائتين وخمسين كيلو مترا في البحر، ولم يكن مقدرا له الذهاب هناك لكبر سنه. بينما نحن مشغولان بالحديث، إذا بفتاتين تقتربان من مجلسنا فشعرنا بالانزعاج، لكنهما قفتا قريبا منا وجلستا إلى المائدة المجاورة لنا. عاودنا الشعور بالهدوء واستأنفنا حديثنا، لكن إحداهما فاجأتنا بتوجيه حديثها نحونا بإنجليزية لا بأس بها، كنت أجلس إلى ناحيتها فسمعتها تقول: - اليوم عطلة نهاية الأسبوع.. نحن نبحث عن بعض المرح.

حاولت أن أكون مهذبا فأجبتها: نحن نستمتع ببعض الهدوء على الشاطئ بعد أسبوع من العمل الشاق.

قالت وكانت أكبرهما سنا: هناك وسائل أخرى للاستمتاع بالوقت.. أنظر إلى صديقتي ألا تراها جميلة.

بدأ الحوار ينحو منحى خطرا ولاحظت أن إرفين لاذ بالصمت.. قلت لها: - انظري إلى الجالس جوارى، إنه أخى الأكبر ولا أفعل شيئا دون موافقته، سوف يغادر فونج تاو بعد الظهر وعلينا أن نرتب بعض شئونا.

ابتسمت غير مصدقة وهى تقارن بين ملامح إرفين الألمانية وملامحي
المصرية ثم قالت: بعد أن يذهب يمكنك أن تفعل ما تشاء، يمكننا أن
نقابلك في أى مكان، لو أعطيتنا عنوان منزلك سوف نحضر إليك.

- إننى أقيم في فندق حيث يراقبون النزلاء

- لا تخش شيئاً سوف نتدبر أمرنا معهم.

ظللت صامتا فترة طويلة عساها تياس لكنها ظلت تنتظر جوابا
يرضيها، فلما أعيانى انتظارها قلت لها: لا تؤاخذيني، سوف أستكمل
حديثي مع صديقي وأشكرك على كل حال.

نهضت وهى تصحب صديقتها من يدها وسمعتها تقول: - بداية لا بأس
بها.. رجل مسن يصحبه رجل لا يهوى النساء.

نظرت إلى إرفين الذى انفجرت أساريه بابتسامة كبيرة وقال: - على
الأقل قالت نصف الحقيقة، لكنك أحسنت التصرف، لو عنفتها أو
أعرضت عنها باستعلاء لاستنفرت غضبها ضدنا ولا ندرى ما قد يعقب
ذلك، ربما هناك من يراقبهما ويعلن ظهوره في اللحظة المناسبة، لقد
حدث لى موقف مشابه في هامبورج، وحين سألت الفتاة عن عمرها
هاجت غاضبة ثم وجدت أمامى شخصا مسلحا قفز من الظلام، نهرنى
بشدة، ولولا اكتشافه لكبر سننى لأذاني.

- لكنك ظللت صامتا طوال الوقت.

- كنت أستمتع بحديثكما.

- لم أنتظر أن تصادفني بائعات الهوى على شاطئ "فونج تاو" صباح
سبت.

- لا فرق بين "فونج تاو" و"هامبورج" من هذه الناحية، فقط نعترف به
في ألمانيا وننظمه بالقوانين، أما هنا في فيتنام وفي بلاد أخرى مثلها
ينكرونه، ونكران الواقع لا ينفيه كما رأيت.

- أتصوره جزءا من العبودية الإنسانية

- إذا كنت تقصد بالعبودية الحاجة الغريزية فالتحرر منها محال وكلنا خاضعين لها بطريقة أو بأخرى.

- ما لم نتسامى فوق غرائزنا متطلعين إلى السماء.

- لا شك أن الإيمان بالأديان تحت أى مسمى يلهم الإنسان معنى لوجوده أسمى من استسلامه لغرائزه، وحتى تلك القضية محل نزاع.

- أظن هذا النزاع يتعلق بالدين الإسلامى فحسب، الذى أعلنته أمريكا مصدر التهديد القادم لحضارة الغرب.

لم يكن الشاطئ القريب لأبصارنا نظيفا رائقا بل طافت على سطحه الساكن الأخشاب البالية وبقايا القمامة التى يخلفها وجود البشر.. كان أفسح لصدورنا أن نبتعد بأبصارنا عن الشاطئ القريب ونستلهم الأفق الشاسع البعيد حيث يطفى عمق البحر واتساعه على أى دخيل، قال إرفين

- العداء للأديان لا يتجزأ، لكن الأديان الأخرى غير الإسلام اختلفت عن السياسة فدعوها وشأنها وهو ما لم يحدث مع الإسلام، كما أن ما حدث في سبتمبر الماضي أضاف بعدا لم يكن منظورا في مخيلة الغرب عن الإسلام.

- هل يعقل أن يتسبب قلة ذات فكر شاذ في تضليل البشرية بأسرها؟

- الحدث كان مرعبا، ولا تنتظر من الساسة دور المفكرين.

بعد وهلة قصيرة أضاف: لاشك أن العالم الآن أقل أمانا من ذي قبل والثقة في مصيره تحاصرها الشكوك. أظن الوقت قد حان للعودة إلى واقعنا، أمامى ساعتان لأعد نفسى للسفر إلى "سايجون" فهيا بنا.

ودعته عند باب الفندق باتفاق أن نلتقي في ألمانيا بعد عشر أيام لتقويم ما أنجزناه والإعداد للمرحلة التالية. كان على أن أזור ثلاثة

مواقع بتروولية بحرية في تلك الأيام العشر، أحدها يبعد مائتين وخمسين كيلو مترا عن اليابسة من "فونج تاو" أما الآخران فأقرب قليلا.

الانتقال إلى تلك المواقع البحرية البعيدة يتم غالبا بطائرات مروحية تبدأ رحلاتها وتنتهى في مطار فونج تاو المخصص لتلك الطائرات والذي يقوم بخدمة كل المواقع البحرية للشركة.

توجهت بصحبة المترجم الروسي إلى مطار فونج تاو حوالى الساعة السادسة صباحا لنستقل الطائرة إلى أحد المواقع البحرية المحددة للزيارة. وجدنا المطار مزدحما بانتظار الإعلان عن بدء الرحلات طبقا للجدول المعتمد من الشركة. تأكدنا من وجود أسمينا في الرحلة المتجهة إلى الحفار البحري "كولونج" وجلسنا ننتظر. معظم المسافرين من فيتنام والبعض من روسيا ولم ألحظ جنسيات أخرى غيري. الشخص الوحيد الذى يمكنني الحديث معه أو عن طريقه هو مترجمي الروسي أليكسى، فيما عداه فاللغة الفيتنامية ثم الروسية هما وسيلتا الحديث والاتصال بين الجمع هنا. المطار يبدو نظيفا ومنظما ومحكم الإدارة ومعظم القائمين على إدارته من النساء. كمادتى في مثل تلك الظروف استخرجت من حقيبتي كتابا واستأنفت مطالعته. مرت ساعتان دون أن يتحرك فرد إلى ضالة السفر. ذهب أليكسى لمعاودة الاستفسار فعلم أن الظروف الجوية لا تسمح بالطيران المروحي ونحن في انتظار قرار سلطات المطار بالسماح لبعض الرحلات القريبة نسبيا ومنها رحلتنا. عرفت أن هذا الوقت من العام تهب الأعاصير على بحر الصين الجنوبي حيث تبلغ سرعة الرياح وقتئذ ما يزيد عن مائتين وخمسين كيلو مترا في الساعة. هل سيؤثر ذلك على خطة عملنا؟ بعد قليل أعلن المطار إلغاء برنامج الطيران لهذا اليوم دون استثناء وتدفق الجمع المنتظر مهللين نحو باب الخروج.

عدنا إلى الفندق، وفي اليوم التالى تكرر الموقف وبدأ القلق يعتريني من صعوبة تنفيذ ما خططنا له، لأن اقترابنا من عطلة نهاية الأسبوع

حيث يتوقف الطيران يعنى احتجازنا في البحر لعدة أيام دون فائدة. في اليوم الثالث حدث تحسن في الأحوال الجوية سمح لنا بالطيران.

وصلنا إلى الحفار بعد نصف ساعة، حفار صغير الحجم قديم البناء يعيش على متنه حوالى ستون شخصا بعضهم من الروس، استضافنا أحدهم في حجرته الضيقة المخصصة لأربعة أفراد ولا تكاد تتسع لفرد.

بعد انتهاء يوم العمل دعانا قبطان الحفار وهو روسي الجنسية أسمه سيرجى لتناول كوب من الشاي في حجرته، أخبرني أنه زار مصر من قبل، شعرت برغبته في الحديث، إنجليزيتة ضعيفة لكن مع وجود إليكسى مضى الحديث في يسر، سألته: متى زرت مصر؟ أجابني بابتسامة من يستعيد ذكريات سعيدة

- في الستينيات، أيام ناصر، كنت في شبابي، أتمنى لو أزورها مجددا، لابد أن التغيير اعترأها كما اعترى كل شئ في العالم.

قلت مؤيدا: لا شك أن انهيار الاتحاد السوفيتي قد غير مسار البشرية أو يدفعها لهذا التغيير على أقل تقدير.. هكذا الأمر كلما ماتت فكرة شائعة أو انبثقت فكرة جديدة.

قال أليكسى: نعم، سواء كانت الفكرة صائبة أو خاطئة.

قلت: لكن الذى يدفع الثمن الشعوب وليس المفكرون.

قال سيرجى: الشعوب تستسلم لمن يعدها بالجنة ثم تنتهى لكسرة خبز. لا هم لأحد في روسيا الآن سوى توفير طعام يومه.. بعد التوضيحية بملايين البشر وعشرات السنين في سبيل فكرة زائفة أطلقوا عليها الاشتراكية.

قال أليكسى وهو شاب في مطلع الثلاثينيات من عمره: للحرية أيضا قيمتها في الحياة

قال سيرجى: نتحدث عن الحرية، يشغلك اندفاع الناس للكنائس و المساجد، انه الاستسلام لنفس الوعد. لقد زرت بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة التي تطلق على نفسها الجمهوريات الإسلامية وشاهدت اليأس والفجور معا. في تصوري أن كل الحلول المطروحة لتنظيم المجتمع البشرى حلول مستهلكة، هل ترغبان في بعض الفودكا؟ بادرت بالقول: أنا مسلم ولا أشرب الخمر.

انتبه لنفسه لحظة ثم سألني: وماذا تفعل في طعامك، لحم الخنزير في هذا البلد يكاد يكون في كل طبق؟ قال أليكسى: لقد نبهت الطاهية الروسية لتطهو له طعاما يناسبه.

قلت مستأنفا حوارنا: كان للشيوعية موقف معروف من الدين يعاديه ويسخر به، فلا تنتظر ممن رزح تحت نيرها سبعين عاما أن يتحرر من أثرها في غمضة عين، لكنني أوافقك أن لقمة العيش هي شغل الإنسان الشاغل في كل مكان، دعنا لا ننتهم الأديان بالقصور أو نفقد الثقة في مصير الإنسان، بقدر ما ننتظر من الدين ما نصلح به شأن حياتنا بقدر ما يصيبنا من إحباط حين نخفق.

قال أليكسى: أظن لجوء الإنسان إلى الدين بحثا عن حل لمشاكله في العصر الحديث مسألة خاسرة، المشاكل المعاصرة لا تصلح لها حلول من التاريخ.

قال سيرجى في صراحة باردة: لكن المسلمين يؤمنون إيمانا راسخا أن دينهم يصلح لكل العصور وبه تستقيم حياة الإنسان في أي مكان، بالرغم أن حالهم لا يدل على ذلك.

قلت: الأديان لا توجد لتلغى وتعاد حسب حاجة العصر خاصة الإسلام لأنه آخر الأديان الكتابية في تاريخ الظهور، وكفى الدين أنه أتى ليصحح الأخطاء في حينه ويفتح في الغد طريقا للإصلاح دون أن يحجر على حق الاجتهاد، كما أن تخطي المسلمين عن الأخذ بالأسباب والسنن

الطبيعية في سبيل التقدم لا يرجع لدينهم أو لأي دين و إلا فما علة تخلف بعض الشعوب المسيحية وأيضا الشعوب الأخرى التى تؤمن أو لا تؤمن بدين؟ التخلف له علة الطبيعية التى يجب التصدي لها بحكم ضرورات الحاضر وهو ما يستلزم الاجتهاد واعمال الفكر، أما إلقاء اللوم على الدين لمجرد أن الغرب المتحضر استغنى عن دوره فهو تحميل للأمور أكثر مما تحتمل.

قال سيرجى مصرا: لكن الأصوليين المسلمين يرفضون فلسفة العصر ويعلمون عن ذلك بالتدمير والقتل.

أجبتة: هؤلاء ليسوا كما وصفتهم، هم لا يفهمون فلسفة العصر ولا يفهمون أصول دينهم.. ظاهرة الإرهاب هذه أقرب لعلم النفس منها للدين أو للسياسة، ولن تجد مسلما واعيا بدينه يوافقهم ما فعلوه.

انقطع الحديث باستدعاء سيرجى إلى حجرة اللاسلكي للرد على بعض الرسائل العاجلة فاستأذناه وعدنا إلى حجرتنا المجاورة نستعد للنوم بعد أن شكرناه حسن ضيافته.



قضينا يومين على متن هذا الحفار بين العمل والانتظار في الحجرة الضيقة حتى أتت إحدى الطائرات لتحملنا إلى الحفار التالى "تام داو" كان ذلك يوم الجمعة مما يعنى اضطرارنا للتواجد حتى يوم الاثنين، خفف عنا وطأة الانتظار أن هذا الحفار كان أكثر رحابة واتساعا، به صالة للعب البلياردو وصالتين كبيرتان لمشاهدة التلفزيون أحدهما مخصصة للفيتامين والأخرى للروس، كما أننى وجدت مهندس الكهرباء على هذا الحفار يتحدث الإنجليزية على نحو يسمح بالتواصل معه بدون مترجم إلى جانب كونه شخصية ودودة قدم لى كل عون ممكن لإنجاز عملي.. اسمه "كوا" قابلني صباح الاثنين فلاحظ توتري فسألني عن السبب، ولما عرف أن حجزنا على الطائرة العائدة للبرلم

يتأكد اصطحبني إلى حجرة اللاسلكي لإجراء كل الاتصالات الممكنة مع إدارة الشركة لتدبير وسيلة لعودتنا. أسوأ شئ أن تحتجز في الحفار البحري دون أن يكون لديك عمل تؤديه.

لم تفلح المحاولات المبذولة وتأجلت عودتنا يوما ثم تأجلت يوما آخر بسبب زيارة مديري الشركة وانشغال الطائرات بهم.

خلال تلك الساعات الثقيلة انتهيت من قراءة رواية رائعة للمؤلف الإنجليزي "كن فوليت" اسمها "أوتاد الأرض" وكانت فرصة لحديث متصل مع "كوا" كلما سمحت أوقات عمله. كان مهتما بإطلاعي على بعض مبادئ البوذية.. الديانة التي يعتنقها، كما أنه أبدى رغبة في معرفة بعض الحقائق عن الإسلام. قال مستأنفا حديثا انقطع للرد على التليفون

. هكذا تجد البوذية وهي أعرق ديانة موجودة في فيتنام يتبعها ما يزيد عن ٧٠٪ من الناس، لم يتأثر ذلك بالحكم الشيوعي لأن مبادئها لا تختلط بالسياسة ولا تعبا بواقع الحال.

قلت متسائلا: ربما لأن البوذية أقرب إلى فلسفة الوجود منها إلى عقيدة متكاملة الأركان ترسم منهاجا للحياة، حينئذ لا بد وأن تتشابه خيوطها بالسياسة والساسة كما هو حادث فعلا مع الإسلام، وربما يكون ذلك سبب المواجهة معه في العصر الحديث، لأن الإنسان المتحضر في الغرب قرر أن يستغني عن السماء ويتولى زمام حياته بيده ويريد أن يفرض موقفه على بنى البشر أينما كانوا.

قال "كوا" دون أن يلتفت للمعنى الذي قصدته: لا أظن الألم قد تقلص من الوجود لمجرد أن هجر "سيد هارثا جواتاما" زوجته الجميلة وابنه وبيته الرائع في "كابيلا فاشتو" بالهند وذهب يبحث عن نهاية لمعاناة العالم.

نظرت إليه مستوضعا المعنى الذي يقصده فأضاف وقد لاحظ حيرتي

- حدث هذا سنة ٥٣٨ قبل ميلاد المسيح، ظل هذا الشاب لمدة ست سنوات يعرض نفسه لكل التجارب المؤلمة دون أن يصل إلى نتيجة واضحة مما أصابه باليأس. فجأة قرر أن يهجر كل الطرق التقليدية في التصوف والبحث في أسرار الوجود وأسلم نفسه لحالة من التجرد التام من كل ما يحيطه فأشرفت عليه أنوار المعرفة. في تلك اللحظة أصبح "جواتاما" بوذا الذي أضيئت له أنوار الوجود فاكتشف طريق الخلاص من آلام هذا العالم، ثم حاولت الجنية "مارا" أن تغريه بالبقاء حيث هو والاحتفاظ بما أحل عليه من بركات لأن أحدا من الناس لن يصدق أنه إذا حاول نشر دعوته.

قلت منتهزا لحظات صمت اعتراه في هذا الاسترسال المفاجئ: لكنه لم يستسلم لإغرائها؟

- لقد استعطفه الملكان "ماهابراهما" و"ساكرا" أن يفسر للعالم ما خلص إليه من طريقه فوافق "بوذا" وقضى خمسة وأربعين عاما يجوب أنحاء الهند واعظا برسائلته، أن شيئا واحدا في هذا العالم المليء بالمعاناة يبقى ثابتا متزنا وهو "دارما" أي حقيقة العيش الصائب التي بها فقط يمكن أن نتحرر من الألم، والتي يمكن لأي إنسان أن يصل إليها إذا عاش بشكل صائب وتعلم أساليب اليوجا.. علينا أن نحرر أنفسنا بأنفسنا.

- ألا يحيط بتلك الدعوة بعض الغموض؟

- في أول لقاء لبوذا بحواريه لخص، لهم المبدأ الأساسي لدعوته وهو أن الوجود بأكمله يحتويه الألم وأن الحياة ليست إلا حالة من الفوضى الكاملة، الأشياء تأتي وتذهب بلا معنى ولا شيء يحمل قيمة دائمة، وقد عبر عن ذلك في كلمة واحدة "دوكها" ويمكن التحرر من تلك الحالة بالعيش في حياة ملؤها الرحمة لكل الكائنات والحديث والتصرف برقة وطيبة وصدق وتجنب ما يذهب العقل مثل الخمر والمخدرات. وقد أصر

"بوذا" في حديثه أنه لم يتدع ذلك الطريق وإنما اكتشفه. قال بلسانه:
لقد رأيت طريقا قديما عبره الكثيرون من البوذيين فيما مضى من زمن
لاشك أنها تجربة إنسانية غنية لا يجب أن تصطدم بتجارب وأفكار
أخرى، فالبحث عن الحقيقة لن يتوقف مادام للإنسان وجود في هذا
الكون.

البوذية لا تتكر الأديان وتعترف بعالم الروح لكنها تعتبر "النرفانا"
الحالة المطلقة للخلاص التي يمكن للإنسان الارتقاء إليها بشكل
طبيعي عن طريق التأمل والحياة الصحيحة مستخدما أساليب اليوجا .

فكرت فيما قاله "كوا" متأثرا بحماسة وصدقته في التعبير عن
نفسه ثم سألته: كيف تنظر للإسلام كأحد الأديان الكبرى في العالم؟
أجابني دون أن يفقد رنة الصديق في حديثه: المسلمون قلة نادرة في
فيتنام، حوالي خمسين ألفا، وحين يذكر المسلم يقفز إلى الذهن تحريم
الخمير والخنزير والزواج بأربع نساء، اعذرني فهذا واقع الأمر، بالإضافة
كما تعلم - ما يشاع تلك الأيام عن الإرهاب والإسلام.

لم تكن تلك المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام لكنني لم
أخف دهشتي أن يصدر منه فسألته: هل تصدق أن ألف مليوناً من البشر
يجتمعون على دين لمئات السنين لا لسبب إلا أنه يحرم عليهم الخمر ولحم
الخنزير ويجيز لهم الزواج بأربع نساء ويحثهم على القتل ؟

أبتسم وقال: لا يوجد دين يحث أتباعه على القتل والإرهاب وإنما هي
نزعة الشر في بعض النفوس أو الانسياق لما تجهله من أمور.. أيضا
الإجباط واليأس إذا صادف فتور الهمة وخور العزيمة، لكن انتشار
الظلم لا يجب أن يتخذ حجة لإيذاء الأبرياء.

- بعض الناس تجيز مقاومة الظلم بالظلم وهو ما يعنى في النهاية
اندثار مبدأ العدل ومن ثم الاستسلام لمنطق القوة الفاشمة كيما كان

شكلاها ومن يحتمي بها سواء مسلم أو غير مسلم.. وهذا تقهقر في مسيرة الإنسانية دون شك.

. أيضا التأثير الإعلامي في تلك القضايا له سلبياته وربما مصالحه، العالم يزداد ارتباطا أو قل ترابطا يوما بعد يوم مما يستفز ردود الأفعال في أنحائه أحيانا بشكل عصبي ودون روية مما يعقد المشاكل.

. نعم! لماذا لم تنشط دور النشر بالكتابة عن الإسلام إلا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولماذا تعالت الاتهامات للإسلام بالعداء للغرب والحضارة الحديثة؟ ليس الإسلام فقط هو الذي يؤسس نموذجا للحياة يختلف عن نموذج الغرب وإنما النماذج الأخرى موجودة في الشرق والغرب، لماذا التركيز على منطقة الشرق الأوسط من العالم الإسلامي الممتد حتى أقصى الشرق؟ المسلمون لا يملكون قوة يمكنهم بها تهديد العالم فلماذا يعتبرونهم خطرا على حضارتهم؟

. لن يخلو العالم من الألم ما لم نحرر أنفسنا من شرورها وتسلم طبيعتنا من نواقصها..

. هل تظن أن ذلك ممكن بدون دين نهدي بمبادئه وتعاليمه؟

. في أوقات الخوف من الفناء يتزايد الاستعداد للتطرف، وقد يحدث هذا التطرف في الفكر أو الفن أو الدين، والدين هو أقواها تأثيرا في أغلب الأحيان لارتباطه بمصير الإنسان في حياته وموته.

ساد الصمت فترة تابع فيها كلانا أفكاره وخواطره، وإذا به يتسم ويسألني: لكن هل حقا من واجب المسلم أن يتزوج بأربع نساء، إنني لا أستطيع فهم هذا الإلزام، أو ربما هذا تحريف لدين مضت عليه قرون؟

. التحريف الحادث سببه الإعلام الزائف، الإسلام في الحقيقة يسمح للمسلم بالزواج بأكثر من امرأة حتى أربع ولكن بشروط، أهمها أن يعدل بينهن، ولا يحق له أن يمسك إحداهن ضد مشيئتها، أما أن يقال إنه واجب فذلك افتراء. الغالبية من المسلمين يتزوجون امرأة واحدة، وإنما

سبب الزواج بأكثر من امرأة في بدء الإسلام لمعالجة أوضاع اجتماعية خاصة كانت غالبية هنالك، من ناحية أخرى فهو يظل ممكنا لمعالجة نفس تلك الأوضاع إذا طرأت على مجتمع مسلم في أى وقت، أما إذا لم يكن لحدوثه علة فلا حاجة إليه على الإطلاق.

- هل هذا يعنى أن للزوجة الحق في إنهاء زواجها وقتما تشاء مثلها مثل الرجل؟ قلت وهو مندهش مما يسمعه: - في الإسلام لا تجبر زوجة على العيش مع زوج تكرهه مهما كانت أسباب كراهيتها له.

سألني في استغراب: وهل يعقل أن تحب امرأة زوجها وقد تزوج سواها، سوف تحاول الخلاص من زواجها لو كانت لديها حيلة.. تلك طبيعة البشر.

- فكر في امرأة مريضة أو عاقر، هل من الأفضل أن تطلقه وتقعد عائلها أم تقبل بزوجة أخرى توفر له ما يبغيه؟ وكيف يواجه المجتمع التفاوت بين عدد الرجال والنساء خاصة في الحروب؟

فكر "كوا" قليلا ثم قال: طالما يحق لها الانفصال فهو ضمان العدل في تلك الحالة..

- الحكم على الأمور بمجرد السمع دون التحقق منها ليس من النزاهة، وهو خطأ يسهل الوقوع فيه لأن المرء غير قادر على التحقق من كل شئ يصل لسمعه خاصة ما لا يؤثر على شخصه تأثيرا مباشرا أو ما يأتيه عبر آلاف الأميال في صورة خبر تتقصه في معظم الأحيان الأسانيد.

- لكن على المسلمين أيضا أن يحسنوا الرد على تلك الاتهامات بلغة يفهمها الناس في القرن الواحد والعشرين وليس بلغة كان يفهمها آخرون منذ مئات السنين.

- في هذا أؤيدك تماما وأضيف عليه أن من واجبهم أن يتعلموا تلك اللغة العصرية وأن يجيدوا الحديث بها حتى يفهمهم الآخرون، لكن هذا اختبار لقدراتهم ونواياهم وليس اختبارا لعقيدتهم ودينهم.

قبل أن نفترق في طريقى لركوب الطائرة الهليكوبتر شد على يدي
وسألني في صدق: هل سنلتقي بك في البر قريباً؟

أجبت: سأعود إلى ألمانيا بعد يومين حيث سأمضى أسبوعين ومنها
إلى مصر.. طبقاً لجدول العمل في هذا المشروع سأعود إلى فيتام بعد
شهرين.



- إذن لنكن على موعد.

بالرغم من شعوري بعدم الرضا للخلل الذي أصاب جدول العمل حيث
مكثت يومين بالحفار دون ضرورة، إلا أن لقاءاتي وأحاديثي مع "كوا"
قد عوضت هذا الشعور وأبدلته إلى تفهم وقبول، هكذا قد يمنحك
القدر ما تقبله باضطرار وقد ترفضه جاهلاً عند الاختيار.

كانت عودتي إلى فيتام بعد هذين الشهرين تتسم بسابق المعرفة
وتفتقر لحس الترقب والمغامرة، حيث كنا نعرف تلك المرة ما ينتظرنا من
مصاعب العمل فأحسننا الاستعداد وتهيأت النفوس لمصافحة المعتاد
والمألوف سواء من ظروف المناخ والطبيعة أو معطيات الحياة والأحياء،
لكن المعتاد والمألوف لا يمنع التعديل والتبديل. لم يتمكن أليكسي
المترجم الروسي من اللحاق بنا في الموعد المحدد فاضطررنا لتكليف أحد
الروس المقيمين في فونج تاو ليترجم لنا ولم يكن بكفاءة ولباقة
أليكسي، كما أن اصطحابي له في رحلات البر والبحر لم يكن
مريحاً، اسمه "يوري". كان على الانتقال إلى ترسانة "فيناشين" لمعاينة
أحد الحفارات التي زرتها من قبل حيث تجرى أعمال الإصلاح والصيانة
لهيكله المعدني وجانب من آلاته، أقرب بلدة تصلح للإقامة خلال فترة
الزيارة هي "ناشانج" وتقع على بعد خمسين كيلو متراً من الترسانة
وثلاثمائة كيلو متراً من "فونج تاو" السفر بالقطار إلى ناشانج ممكن
لكنه يستغرق عشر ساعات، والسفر بالطائرة ممكن لكنه يتطلب

التوجه برا إلى "سايجون" لذا كان أفضل الوسائل هي السفر بالسيارة في طريق ضيق غير آمن ومزدحم معظم الوقت بالموتوسيكلات تعترضه القرى الصغيرة من الجانبين بلا مبالاة. لم تزد سرعة السيارة عن ثمانين كيلو مترا في الساعة فاستغرقت الرحلة ست ساعات متصلة دون توقف.

خفف من وطأة الطريق امتداده على ساحل بحر الصين الجنوبي وسلسلة الجبال المتأجمة مع الخضرة في جمال طبيعي رائع. السائق لا يفهم الإنجليزية أو الروسية لذا كان الحديث معه غير ممكن، أما رفيقي الروسي فكان حديثه غير مشجع لضحاكته. كانت الرحلة تدريبا على الصمت والتأمل.

الفقر شائع في مظاهر الحياة التي تختلط بأبصارنا، لكن النشاط والحركة لا يتوقفان والطمأنينة تغلف الوجوه بعكس ما شاهدته في نيجيريا كما سيأتي ذكره، مع العلم أن حرارة الجو لا تختلف بين البلدين حيث يقع الجنوب في كليهما قريبا من خط الاستواء والظروف الطبيعية عموما متشابهة. فيتنام أيضا تعرضت للاحتلال الأجنبي تارة فرنسا وتارة أخرى أمريكا كما تعرضت نيجيريا للاحتلال الإنجليزي.. هل الاختلاف بين النشاط والكسل، الحركة والجمود يعود إلى اختلاف الثقافة والدين والنظام السياسي؟

لا شك أن مجموع التجارب التاريخية لمجتمع تشكل هويته والدين إحدى القوى المنظمة للنتاج الإنساني إذا اتفق وبديهيات الحياة كما فعل بالعرب في طفرتهم التاريخية مع بزوغ فجر الإسلام، والنظام السياسي له تأثير مشابه، لا يهم كيف نسميه وإنما يهم كيف يتفاعل معه الخاضعين لقواعده..

قطع على تسلسل تفكيري صوت "يوري" متسائلا: تبدو الرحلة طويلة، هل يمكن أن نتوقف لاستراحة قصيرة؟

أجبتة: إذا أمكنك مخاطبة السائق لا مانع عندي، لكنه يبدو قد عقد العزم ألا يعترضه شئ عن الوصول لغايته بأسرع ما يمكن!

صمت "يورى" على مضض ثم عاد يتساءل متملحاً

- كم من الوقت سوف تستغرقه مهمتنا تلك؟

أجبتة بغفوية غير مقصودة: يومان بإذن الله.

تساءل بجرأة مفاجئة: وكيف تعلم أن الله أذن أو لم يأذن؟ أنت الذى تقرر.. هذه مهمتك.

صمت قليلاً قبل أن أقول: نحن نؤمن بأن إرادة مطلقة تهيمن على الوجود وإليها تنتهى الأسباب، سوف تستغرق مهمتنا يومين في تقديري وفيما أعلمه من برنامج العمل، لكن قد يحدث ما ليس في الحسبان، حادثة طريق مثلاً فلا نصل إلى مكان الحفار.. هذا الجزء الذى يغيب عن علمنا نعلقه بتلك الإرادة المطلقة، هل فهمت؟

- لن يحاسبك أحد على ما لا تعلمه، والارتكان للغيب يضعف إرادة البشر.

- الأخذ بالأسباب شرط الإيمان الصحيح وإلا كان وهماً، فالإنسان يواجه الواقع بما يملكه من إرادة، رضى أم أبى، وهذا أساس بقائه واستمراره

- أنا لا أؤمن بغير ما تراه عيناى ولا يعنيني الغيب في شئ...

- الذى تراه نفسه غيباً، فالمادة في نهاية تحليلها مجرد احتمال، حتى العقل لا يستوعب منطقته، عليك الرجوع لنظرية الكم لتدرك ما أعنيه.

بدت الحيرة عليه، أنقذه منها توقف السائق إلى جوار الطريق بالقرب من أحد بائعي المشروبات ليلتقط زجاجة ماء، فقفز "يورى" من السيارة مسرعاً إلى الخلاء ليقضى حاجته.

وصلنا مدينة ناشانج بعد انقضاء الست ساعات وتخطب السائق بعض الوقت باحثاً عن الفندق الذى سنقيم فيه.

بعد الاتصال بالمسؤولين عن الحفار لترتيب برنامج الزيارة أخلدت إلى راحة قصيرة ثم توجهت إلى أحد مطاعم الفندق لتناول طعام العشاء كان الجو لطيفا للجلوس تحت مظلة السماء ومتابعة ما يدور بين نجومها من حوار.. هكذا تحتويك وحدة الوجود. قررت التريض على الشاطئ ومتابعة جموع الناس من مختلف الأعمار تلهو وتلعب كيفما تراهى لها ، الأطفال يلقون عليك التحية إذا التقوك في طريقهم ومعها ابتسامة لا يكدرها قسوة المعرفة.



فى الصباح الباكر توجهنا إلى ترسانة "فيناشين" حيث يقبع الحفار "كولونج" مستعداً لأعمال الصيانة والإصلاح، كنت مشرقاً لمقابلة "سيرجى" مرة أخرى، القبطان الروسي الذى استضافنا من قبل في أعماق البحر.

كان مشهد الحفار وقد برزت أرجله الثلاثة فوق سطح الماء مدهشاً ، حول كل رجل ارتفعت طوابق السقالات إلى ما يزيد عن خمسين متراً في الهواء استعداداً لصعود العمال عليها لبدء أعمال الصيانة وإزالة حشف البحر المتراكم على مر السنين ، كيف يصعد المرء إلى هذا الارتفاع الشاهق الذى يقابل عمارة من عشرين طابقاً دون وسائل حماية كافية ، وكم هو ضروري أن يفعل ذلك؟ أحياناً يكون السعي للبقاء سبباً للفناء.

قابلنا في البداية مدير الحفار فيتنامي الجنسية ، ثم جلسنا لحديث مطول مع القبطان الذى استلم مهام منصبه منذ فترة قصيرة ، أفادني حين سألته عن سيرجى بأنه في أجازة بموطنه روسيا وسيعود بعد أربعة أسابيع ، سألته إن كان ممكناً أن أترك له كمية من "الكركديه"

طلبها منى في المرة السابقة فوافق بحماس وقال: نعرف عن العرب كرم الضيافة حتى خارج أوطانهم.

سكت قليلا قبل أن أقول: - لكن ما يشاع عن العرب والمسلمين في عالم اليوم يختلف عن الكرم الذي تقصده.

قال القبطان الروسي وكان اسمه " فيودر " زرت عددا من الدول في منطقتكم ومنها مصر وأعرف عن شعوبكم تلك العادات الطيبة، لا يجب أن يتهم المجموع بمحاربة الإرهاب لأن القلة تمارسه سواء كانوا عربا مسلمين أو غير ذلك.

قلت: أنت تعرف تلك الحقيقة لأنك زرت منطقتنا، هل يتحتم على كل امرئ أن يأتي إليها ليرى بنفسه كيف يسعى الناس لحياة كريمة مسالمة شأن كل الناس في أنحاء الأرض؟

أجابني: عندك حق، فالإعلام له تأثير جهنمي على عقول الناس في هذا الزمن، وبه تطمس الحقائق وتتأكد الأكاذيب في كثير من الأحيان، مثلما يشاع عن الشيشان في بلادكم بأنهم جماعة من المناضلين يدافعون عن دينهم وحرية وطنهم بينما هم مجموعة من المتمردين الإرهابيين يسعون للانفصال عن وطنهم الأم، روسيا لأغراض سياسية واقتصادية لا تمت للدين بصلة.

قال يورى المترجم مؤكدا وجهة نظر مواطنه: ذلك بينما تهدم إسرائيل منازل الفلسطينيين وتشردهم تحت سمع وبصر العالم معتبرا ذلك دفاعا عن النفس.

قلت: عموما كان الشعب الروسي أكثر تفهما لقضايانا الوطنية من الغرب، لكن الذى يحدث في عالم اليوم يصعب متابعته فضلا عن فهمه، الذى أراه أن العالم أصبح أكثر جراءة في قبول الظلم وفرض الأكاذيب والدفاع عن الشر وأقل اكتراثا لما يهدد مستقبل الإنسانية من الناحية الأخلاقية.

قال فيودر والحديث بيننا يؤذن بنهايته: من المؤكد أن العلاقات بين الدول لا تحكمها الأخلاق خاصة مع فجوة هائلة في الثروة والقوة، لذا يتضاءل الأمل في مستقبل آمن لنا جميعا.

انتهينا من برنامج العمل في اليوم التالي وقد اقترب المساء فقررت قضاء الليلة في ناشانج والعودة إلى فونج تاو في الصباح التالي، فالطريق لا يؤمن جانبه مع ظلمة الليل.



رحبت بنا "زوم" موظفة الاستقبال في فندق "بترو هاوس" بابتسامتها المشرقة كأنها كانت في انتظار وصولنا، سألتني وهي تناولني مفتاح غرفتي

. كيف كانت الرحلة، هل أنجزت العمل المطلوب؟ يبدو عليك إجهاد السفر

أجبتها ممتنا لسؤالها: مضى كل شيء على ما يرام باستثناء مخاطر الطريق، قليل من الراحة بعد حمام منعش فأصبح إنسانا جديدا.. مع الأمل في عشاء شهى.

. نسيت أن أخبرك بوجود مطعم قريب من هنا يقدم الوجبات الحلال على الطريقة الإسلامية، لو شئت أدلك عليه.

قلت متحمسا: شوقا أن تقبلي دعوتي على العشاء هناك، أنا لا أفهم اللغة على أي حال وأحتاج لمن يرشدني.

بدا عليها التردد للحظة ثم حزمت أمرها قائلة: موافقة، ولكن لنجعل الموعد غدا لئلا يتسنى لي استئذان أمي، كما أنني اليوم مشغولة في عملي حتى العاشرة مساء.

فى مساء اليوم التالى اصطحبتنى "زوم" إلى المطعم المقترح، ويقع فى أحد الشوارع الهادئة بالقرب من "بترو هاوس" مع اقترابنا منه لاحظت لافتة كبيرة معلقة على مدخله مكتوبا عليها باللغة العربية "حلال".

استقبلنا المضيف مرحبا ودعانا للجلوس إلى إحدى الموائد الخالية. جلسنا فى صمت ورحت أتأمل المكان الذى تشيع فيه البساطة، لم يكن مزدحما بالرواد، ولم يكن ممتلئا بالزخارف والنقوش، لكن عدة إشارات تدلت من الحوائط احتوت بعض الآيات القصار من القرآن الكريم.. سألت المضيف حين عاد إلينا بقوائم الطعام وتطوعت "زوم" بالترجمة

. هل لصاحب المطعم أصول عربية إسلامية؟

أجابني: إنه أندونيسي يعيش فى فيتنام منذ زمن بعيد، هذا المطعم هو مصدر رزقه وأسرتة التى تقوم بالطهي، وأنا أعمل لديه كما ترى.

سألت "زوم" وقد غادر المضيف بعد اختيارنا لطعامنا.

. هل يوجد كثير من تلك المطاعم فى فيتنام؟

ضحكت وأجابت: يمكنني أن أجيب عن "فونج تاو" فقط، فيها هذا المطعم فقط وهو غير مشهور ولا يتردد عليه الكثيرون، لعلك لاحظت أننا نستهلك كثيرا من لحم الخنزير المحرم لديكم والذى لا يقدمه هذا المطعم فى قوائمه كما ترى. المسلمون قلة نادرة فى بلادنا.

دفعتنى صراحتها لسؤالها: ماذا تعرفين عن الإسلام غير تحريم لحم الخنزير؟ ما هو انطباع الفيتناميين عن تلك الديانة؟

أجابتنى وقد بدا عليها الجد: كما تعلم فيتنام بلد شيوعي، لا يمثل الدين لأهله الاهتمام الأول فى الحياة، البحث عن لقمة العيش هو شغلنا الشاغل، لكن معظم الفيتناميين يتبعون تعاليم بوذا التى تختلط أحيانا

بالمسيحية، نحن نذهب للمعابد الدينية في المناسبات الخاصة كالزواج والوفاة ولا يشغلنا الأمر أكثر من ذلك.

- على الرغم من تغفل الإسلام في عدة دول أسيوية تحيط بكم لم يتحقق له انتشار بينكم.

- نحن لا نعرف عن الإسلام إلا ما يصلنا من خلال وسائل الإعلام وهو غير مشجع خاصة في هذه الأيام، كما أن الدول التي تدين بالإسلام من حولنا تهتم بمخاطبة مواطنيهم، ولا تنتظر من الفرد العادي منا البحث والدراسة فضلاً عن الاهتمام بالموضوع من أساسه.

أعجبني حضور منطقتها فقطت: لكنك على سبيل المثال تحسنين الفهم والاحظك بين الوقت والآخر منكبة على كتاب، لابد أن مثلك كثيرون ممن تهمهم الحقيقة.

- إنني أكرس وقتي لدراسة اللغة الإنجليزية لأجد عملاً أفضل من هذا، وقد ألتحق بالجامعة، لا أفكر في مسألة الدين وأظن بلادنا أحوج إلى العمل أكثر من حاجتها إلى التطلع للغيب، ألا تشاهد مظاهر الفقر من حولنا؟ قد تجد خمسة أفراد يعملون في وظيفة لا تتطلب غير فرد واحد حتى تتاح لكل منهم لقمة عيش.. بماذا تفيدنا الصلاة، هل تظن أن هناك دين يكفل للإنسان رغد العيش؟

- الدين يحفظ كيان المجتمع وينظم العلاقات بين أفرادها على أسس أخلاقية، للإنسان حاجات أخرى غير حاجاته المادية.

- في هذا تتساوى الأديان بنظري، لن تجد ديناً يشجع على القتل أو يحل السرقة، أو يحث أبناءه على العداوة والخصام، ما يتبقى من دين بعد ذلك وظيفة الفلاسفة.

- لاحظت أن الناس هنا خاصة الشباب لم يتأثروا بنمط الحياة في الغرب، كما أن هناك رقابة على البرامج الترفيهية والأفلام التي تبث خلال الأقمار الصناعية.

- هذا صحيح في الوقت الحاضر على الأقل، لا زلنا نتمسك بتقاليدنا ونهتم بالعلاقات الأسرية، ولا يسمح للفتاة بالابتعاد عن أهلها إلا بعد الزواج، أو إذا اضطرتها ظروف العمل للعيش في مدينة أخرى.

- كيف يتم زواج الفتاة هنا؟ يتقدم الشاب لخطبة فتاة من أهلها بعد فترة تعارف بينهما ثم يتم الزواج في المعبد حيث يقام حفل عقد القران وهو يوم هام جدا في حياة كل فتاة، لا أظن ذلك يختلف في بلادكم..

هذه عادات إنسانية قديمة لا تختلف في فحواها من مكان لمكان.

كان الطعام الذي طلبناه قد أحضر إلى المائدة وبدأنا نأكل من خلال الحديث دون أن يبدو على الفتاة أي ملل.. أظننى كنت محظوظا في التعرف على فتاة بهذا الذكاء مع معرفتها الجيدة باللغة الإنجليزية وثقتها الواضحة في ذاتها مع البساطة والذوق. انشغلت لحظات بأفكاري حتى بادرتني بالسؤال قائلة: - في المرة السابقة مكثت في فييتام ثلاثة أسابيع وهذه المرة تعدى وجودك الشهر، سافرت إلى "ناشانج" وذهبت إلى أماكن بعيدة في البحر حيث قابلت أناسا عديدين، ما هو انطباعك عن فييتام خاصة وأنت كثير الترحال بين قارات العالم؟

ابتسمت مشفقا من أسئالها وقلت متحريا الصدق الذي تحتره هي في حديثها معي: الطبيعة رائعة، الخضرة والجبال والأنهار والساحل الممتد آلاف الكيلو مترات الناس سعداء بحياتهم مهما كانت بسيطة، يتسمون بالود والبشاشة حتى مع الغرباء، تجربتي في العمل هنا تؤكد بطء الإدارة وتغلغل البيروقراطية في الأداء وهو أمر متوقع في الاقتصاد المركزي الموجه، لازلنا نقاومه في بلادنا ونقاومه.. لا تنسى أن اللغة تشكل عائقا في الاقتراب من الواقع كما يدركه الناس، لكنني كنت محظوظا في مقابلة البعض القليل ممن يتحدثون الإنجليزية مثلك.

كانت تنصت باهتمام بالرغم من انشغالها بالطعام.. أضفت بعد فترة صمت: لكن ما يدهشني حقا أنتى لم ألحظ أية إشارة لحربكم ضد

الأمريكان أثناء أحاديثي المتعددة، بالرغم من شهرتكم الواسعة في العالم لهذا السبب خاصة في منطقتنا.

قالت: نحن ننظر إلى المستقبل بجد فحاضرنا لا يمهلنا النظر للماضي، الفندق الذي أعمل به يملكه فيتنامي مهاجر في أمريكا.. للمال سطوة هائلة في عالم اليوم. لو كنت أملك ما يكفيني لتفرغت لدراستي في الجامعة.

سألته مبتسما: ماذا يحدث لو تقدم شاب فيتنامي مرموق للزواج بك؟ - هذا أمر متروك للقدر، لكن الزواج لا يعوق المرأة عن تحقيق ما تطمح له.. الزواج في حد ذاته ليس مطمحا، على الأقل عندي.

- ألاحظ أن المرأة تعمل هنا مثل الرجل وتحظى بالاحترام الواجب في دائرة عملها سواء في شركة كبرى كالتى نتعاون معها حاليا أو في المحلات الصغيرة المنتشرة أينما ذهبت، هذه علامة صحية ليقظة المجتمع، لا معنى لتعطيل نصف المجتمع بهدف التنمية العددية.. لولا عمل المرأة في الغرب المتقدم ما قفزوا تلك القفزات التى تثير إعجابنا وأحيانا غيرتنا.

- كيف الحال في بلدك؟ نحن نسير في نفس الاتجاه، ربما بضغط الحاجة أكثر منه بقوة الفكر والاقتناع، لهذا تحدث بعض الانتكاسات، لكن الأصوات التى تتادى بأن عمل المرأة في بيتها وحسب تزداد خفوتا.

سكتت قليلا قبل أن تسألني: هل يؤثر الإسلام على نظرة الرجل للمرأة في هذا الشأن؟ بمعنى هل يساوى بينهما اجتماعيا؟

- الإسلام وضع قواعد العدل والمساواة بين البشر مع تقدير الاختلاف، لكن عدالة القانون لا تضمن تطبيقه، هنا تتصارع العقول الجامدة مع مقتضيات التطوير وهو ما يستهلك جانبا من طاقة المجتمع. لا نعانى من ذلك الصراع في بلدنا، ولا يجب أن يكون للدين هذا الأثر الفادح في حياة الناس.. في هذا تمنحنا الشيوعية السلام الاجتماعي. - ألا تعتقدين أن الشيوعية قد انتهى أمرها؟

- في رأيي الأفكار لا تموت وإنما تبحث عن رداء آخر ترتديه.
قلت مغيرا مجرى الحديث: على ذكر الأردنية أنا معجب برداء المرأة
هنا، أقصد الرداء الفيتامي، وهو يميزها تميزا رائعا أفضل من الرداء
الغربي الشائع.

- لهذا فضلت أن أرتديه الليلة، وهو أجمل لو صنع من الحرير
الطبيعي لكنه يكون حينئذ مكلفا.

لم نعد لجد المناقشة السابقة حتى انتهينا من الطعام ونبهتني لضرورة
عودتها إلى المنزل قبل العاشرة كما وعدت أمها، ودعتها حتى امتطت
ظهر دراجتها وقررت أن أهيئ بعض الوقت سيرا في الشوارع المحيطة
مستدعيا هدوء النفس.

في أثناء اقترابي من الفندق استوقفتني ثلاث فتيات كن يركبن
دراجاتهم، اقتربت مني إحداهن وسألتنني بابتسامة مصطنعة
- ألا ترغب في قضاء وقت ممتع معنا؟

أجبتها محاولا الإسراع في خطوتي للابتعاد بها عن مكان دراجتها
بما يدفعها لاختصار حديثها: أشكرك، أنا في طريقي إلى الفندق للنوم.
- لكن الوقت لازال مبكرا ونحن نبتغي الصعبة، لن نكلفك
الكثير.

- أرغب في النوم مبكرا، لدى عمل في الصباح الباكر.

- أرجوك أن تقبل دعوتي.

- أرجوك أن تقبلي اعتذاري.

تأكدت من عزوفي التام عن صحبتها فيئست وعادت أدراجها، ما أن
مضت عدة دقائق حتى استوقفتني رجل ذو هيئة سريية وسألني

- عندي فتيات صغيرات، ألا ترغب في قضاء وقت ممتع؟

- قضيت وقتا ممتعا بالفعل وأرغب في النوم.. الفندق على بعد
خطوات.

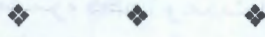
- أعمارهن لا تزيد عن الخامسة عشر، لن يكلفك الأمر أكثر من
مائة دولارا.

- لست مستعدا لذلك.

- إذن نجعلها خمسين.

- أنت لا تفهم ما أقصده!

نظرت على جانبي الطريق اطمئن أنى لست وحدي، الفندق على مرمى البصر، أسرعت الخطى مؤكدا له أن يذهب إلى حال سبيله
ألح على السؤال، ترى ماذا وراء ذلك، أهى الحاجة إلى المال أم الافتقار للأخلاق؟ الاقتصاد أم الدين؟ تذكرت كلمة "زوم" منذ قليل عن سطوة المال وعدم الحاجة لدين يعرقل خطو التقدم واستتجت أنه ليس من صالح البشرية أن يسن سننها نزعات أفرادها، فلا غنى عن الإيمان بالله.



فى نهاية البرنامج التدريبي دعاني "كوا" المهندس الكهربى الذى التقيته على الحفار "تام داو" إلى الغداء فى منزله "فونج تاو" أسعدتنى تلك الدعوة لأنها تدل على القبول الإنسانى لوجودي بينهم. قدمنى لزوجته وابنيه واستمتعنا مع بعض الزملاء الآخرين بغداء فيتنامي خلا من لحم الخنزير، حدثهم عن الحياة فى مصر وعن أسفاري العديدة وانطباعاتي عن بلدهم، لم تكن لغة التخاطب بيننا سلسلة بسبب اللكنة القوية فى نطق الإنجليزية عند من يتحدثون بها، لكن جوا من المودة والصفاء ساد بيننا وكان ختاماً مرضياً لمهمتي فى فيتنام.

تواترت تلك الذكريات فى مخيلتى يوم الرحيل وسيارة الأجرة تبتعد بى عن "فونج تاو" فى اتجاه سايجون التى وصلتها عند الظهيرة فى ذروة الزحام.

أبطأت السيارة سرعتها لتتفادى الاصطدام بالموتوسيكلات المحيطة بها من كل جانب وأيضاً لتتاح لى لحظة نادرة لأنظر من النافذة وأشهد مبنى الجمعية الإسلامية عن يميني فى قلب هذه المدينة الهائلة. خفق قلبي للكلمات العربية والمعنى الذى تنقله، كأنها تقول - بالرغم من ندرة المسلمين فى هذا البلد - أن الإسلام غير مجهول فيها بأى حال.



الجمعية الإسلامية، وتقع في أحد الشوارع الرئيسية في سايجون (هوشي منه)



أحد المعابد الدينية في مدينة فونج تاو



فندق بترول هاوس فى مدينة فونج تاو



إحدى حفلات الزواج.. عادة إنسانية قديمة

أحد أرجل الحفار كولونج،
وقد برزت فوق الماء..
توازي عمارة من عشرين طابقاً



على متن الحفار "تام داو" في بحر الصين الجنوبي، يقف عن يميني مهندس الكهرباء "كوا"



زملاء العمل
من شرق آسيا



فيتنام.. زملاء العمل

الفصل الثالث

جمهورية إيران الإسلامية

كنت قد عدت لتوى من المكسيك حين سُئلت عن إمكانية سفرى إلى إيران لمهمة تستغرق أسبوعين. أعرف أن علاقتنا الدبلوماسية مع إيران مقطوعة منذ عهد الرئيس السادات وأن السفر إليها تحيطه إجراءات أمنية لا أدرى عنها شيئاً، لهذا كانت إجابتي الانتظار حتى أستقصى الأمر .

لاشك أن تصورى زيارة هذا البلد المسلم الكبير أثار في نفسى مشاعر الترقب والاهتمام فرحت أستقصى الأمر. لم يكن هنالك ثمة اعتراض من أية جهة ووجدنا سفارة إحدى الدول المسلمة ترعى مصالح إيران القنصلية وتتولى إصدار تأشيرات الدخول فبدأت اتخاذ الإجراءات المطلوبة وحصلت على التأشيرة في وقت قصير نسبياً مما مكّنني من الالتزام بالموعد المحدد للسفر في شهر فبراير عام ٢٠٠٠ .

لم يكن ثمة طيران مباشر من القاهرة إلى طهران فاضطرت للتوقف في دبي ساعات الليل حين أقلتني طائرة أخرى في الصباح الباكر نحو طهران التي بلغتها في حوالى الساعة صباحاً.

كانت الأخيلة تراودني فيما سأعرض له من أسئلة من ضباط الجوازات وتفتيش للحقائب من مسئولى الجمارك فيما هو منتظر من بلد يحكمه نظام يتشكك في كل وافد غريب خاصة من دولة لا تربطها بإيران صلات دبلوماسية رسمية أو تبادل تجارى محسوس، لكن أدهشني أن مروري بالجوازات كان سلساً، فقط سئلت إن كانت زيارتي لحضور المؤتمر الطبي المنعقد في طهران هذا الأسبوع فأجبت بالنفي وأوضحت أنها زيارة عمل قصيرة. حين استفسر موظف الجمارك

إن كنت أحمل شيئاً يستدعى التحقق تقبل إجابتي بالنفي دون أن يطلب فتح الحقائق للتأكد من إجابتي.

لاحظت أثناء خروجي لصالة الوصول حيث ينتظر المستقبلون صورة ضخمة للإمام الخميني مرفوعة على أحد الجدران. كانت الصالة شبه خالية مثل المطار ورحت أتفحص الوجوه القليلة عسى أن أميز أحدها أو يميزني، لقد وعدني فينكا زميلي الألماني الذي سبقني إلى طهران أن ينتظرني.. ما هي سوى دقائق قليلة حتى وجدته يقرب مني ويصحبته رجل آخر قدمه لي قائلاً: - هذا "على انتصار" زميلنا في مكتب طهران الذي سيصحبنا ويشارك معنا في إنجاز عملنا.

امتدت يدي لمصافحة على الذي علت وجهه ابتسامة ترحيب وتهنئة بسلامة الوصول. قال وهو يصحبنا بسيارته الصغيرة مبتعدين عن مطار طهران

. سوف نصحبك لمكان إقامتك لتستريح قليلاً ثم أحضر إليك بعد الظهر لأقلق لمنزلي حيث نتناول الغداء مع أسرتي

نظرت إلى فينكا الذي قال موضحاً: لدى خطط مسبقة مع زميلنا "فيرنر" الذي أقيم في شقته.. لكنني سأنتقل للإقامة معك بدءاً من الغد فهذا أيسر لمتابعة العمل.

مضت السيارة في شوارع تشبه شوارع القاهرة في الستينات من القرن العشرين، تجوبها سيارات معظمها متهالك وقديم والفوضى في المرور لا تختلف عن القاهرة في الأيام الحاضرة. لفت نظري عدد النساء اللاتي يتحركن في نشاط منهن من يقدن سياراتهن مثل الرجال. بالرغم من الحجاب الملازم لزي أية امرأة بدا الكشف عن الشعر في مقدمة الرأس أمراً مقبولاً، عرفت بعد ذلك أنهن لا يلتزمين بارتداء الحجاب داخل بيوتهن في حالة وجود ضيف غريب كما هو مفترض، لكن ارتداء الحجاب ملزم بحكم القانون إذا خرجت المرأة إلى الشارع. كانت لفظة كريمة من

"على" أن يدعوني إلى منزله في يوم وصولي ويقدمني لأسرته ويحتفى بي هذا الاحتفاء دون أن يكون هناك سابق معرفة شخصية اللهم إلا بعض الرسائل من خلال البريد الإلكتروني وحديث تليفوني قصير يتعلق بالعمل.

كان يقطن في شقة واسعة ذات تأثيث جيد عرفت أنها في منزل تمتلكه العائلة.

تناولنا طعام العشاء حول المائدة جلس على زوجته وزوج أختها الكبرى وهو أستاذ في الجامعة، وابنة أختها وهي فتاة تقترب من العشرين.

كانوا يتحدثون الإنجليزية لدرجة مرضية إلى جانب الألمانية التي كان يعرفها أستاذ الجامعة لقضائه جانباً من حياته العلمية في ألمانيا. بعد ذلك جلسنا نتبادل الحديث، يجذبني إليه شوقي لمعرفة ما يدور في أذهانهم من أفكار وخواطر حول بلادهم خاصة والعالم من حولهم بشكل عام، ويجذبهم إليه أنني قادم من مصر.. بلد يشعرون نحوه بعاطفة خاصة، قلت على ذكرهم تلك العاطفة

. لا يمكن أن نفعل صلة المصاهرة بين شعبي مصر وإيران متمثلة في ملك مصر وشاه إيران في الماضي القريب.

قال على مداعباً: ربما تكرر ذلك في المستقبل إذا رضى ابنك بزواجه من ابنتي.

كانت ابنته تبلغ من العمر ستة أشهر وهي كل ما أنجب، أجبته: يسعدني ذلك لا شك لكنه لن يكون زواجا ملكيا، فقد ذهب الملك ومن بعده الشاه بلا رجعة.

قالت زوجة على وهي تصحب ابنة أختها: سنترككم تخططون للمستقبل لنعد لكم بعض الحلوى والشاي.

قال زوج أخته متابعا الحديث: لاشك أن عصر الشاه كان مأساويا وما حدث لا يأسف عليه محايد.

قلت معلقا: للاستبداد نهاية مهما طال عهده، لكن الاستبداد قد يتمثل في فكرة كما يتمثل في فرد، المهم ألا تستبدل الشعوب صورة منه بصورة أخرى لا تقل عن سابقتها قسوة وبشاعة، هل تتذكر أيام حكم الشاه يا علي؟

أجابني: نعم، بالرغم من أنني كنت وقتها فتى صغيرا في المدرسة الابتدائية. لن أنسى يوما خرجنا فيه من المدرسة بتعليمات من ديوان الشاه لكل المدارس للتجمع في مطار طهران لاستقباله عائدا من إحدى رحلاته، اصطفت الجموع محتشدة في انتظار وصوله وحين لمحته همست في أذن زميلي هذا هو الشاه قد ظهر. لم أكمل عبارتي حتى شعرت بصفعة قوية على وجهي لا أدري من أين أتت ثم صوت يصرخ في ينهرني قائلا "إياك أبدا أن تقول الشاه وإنما قل الشاهنشاه" صدقني كانت اللطمة الوحيدة التي أذكرها في حياتي. أعتقد أن تلك أبشع صور الطغيان والظلم.

سألته مستوضحا ومندهشا: وما الخطأ في قولك الشاه؟

أجاب زوج أخته مفسرا: الشاه تعنى الملك والشاهنشاه تعنى ملك الملوك وقد كان لقبه الرسمي، لكن انظر كيف كان السافاك البوليس السرى في عهده - يغرس البذر والقهر في النفوس من أجل إحكام السيطرة المطلقة له على حياة شعبه.

قلت مسترسلا: الغريب أن يتباكى البعض على الحرية الفردية في عصره مستدلين على ذلك بمقارنة أحوال المرأة بين الأمس في عهده واليوم في عهد الثورة الإسلامية.

قال علي: هذه المقارنة لا تتعدى المظهر، أعني تقنين الحجاب وبعض المظاهر الأخرى، ما عدا ذلك المرأة تعمل كيف شاءت، تمتلك وتقود

سيارتها إذا سمحت ظروفها المادية، بعكس ما هو مسموح به في بلدان أخرى، حتى الحجاب تلتزم به الكثيرات فقط بسبب القانون، لهذا تجدهن يرتدين ما شئن خلف الجدران.

قلت: هم يقصدون مكانة المرأة بصفة عامة.

قال زوج أخته: لم تهتز مكانة المرأة في المجتمع الإيراني بسبب الثورة، ولا يزال لها في الأسرة قول مسموع.

قال علي: لقد عدت من أمريكا بعد أن مكثت بها عشرة سنوات بسبب دعوة أمي لي بالعودة للزواج والاستقرار في الوطن.. لم أكن متحمسا جدا في هذا الوقت لوجود خطط أخرى، لكنها لم تمهلي وقتا للمراجعة وحددت موعدا للقران.

ابتسمت لمباغتته وقلت مداعبا: لكن النتيجة رائعة.. أنظر إلى وجه "سبا" تسطع لك الحياة.

. نعم صدقت، لو خيرت بين ابنتي وكنوز العالم ما ترددت لحظة في اختياري.

قالت زوجته وهي مقبلة نحوهم تحمل أطباق الحلوى وقد وصل سمعها صوت زوجها: هو يهيم بها هياما غير معقول يشعرني بالغيرة قلت: فليبارك الله لكما فيها.



بدأنا مهمتنا في اليوم التالي وكانت باختصار تقويم الأداء البيئي لإحدى المنشآت الصناعية بالقرب من طهران وذلك طبقا لمتطلبات منظومة الأيزو العالمية. استأجرنا سيارة لتقلنا إلى موقع العمل، اخترقت شوارع طهران المزدحمة المكدسة بصعوبة بدت عادية لسائق السيارة المتحمس راودني شعور بالقلق أن نتأخر عن الموعد المحدد لمقابلة مديري الشركة، لكن الطريق أصبح أكثر انسيابا بمجرد خروجنا من فوضى

العاصمة. فجأة بدأ تزعجني رعونة السائق الذى كنت أجلس لجواره. ليس من عادتي تنبيه السائق لتوخى الحذر حيث من المفترض أن سلامته الشخصية تهمه قبل أي راكب معه، لكنني لم أحتمل نزقه المتزايد في قيادة السيارة على الطريق السريع فاضطرت لتبنيه بأن حرصنا على الوصول سالمين أهم من وصولنا في الموعد ولو اضطررنا لاستبدال السائق وسيارته مهما كلفنا من وقت. استجاب وتحول من سرعته الجنونية إلى بطء مقبول في مثل تلك الظروف. بعد قليل دار حديث قصير بينه وبين على باللغة الفارسية.. أفادني على بمضمونه.. قال مبتسما : سألني إلى أي بلد تنتمي وأي دين تعتق ولما عرف أنك مصري مسلم تعجب من خوفك من القدر.. قال أن المسلم يسلم نفسه لما قدره الله، ويستعين على ذلك بالدعاء.

تفكرت قليلا ثم سألت: بم أجبت؟ قال على ضاحكا
- قلت له أن الخوف جزء من قدرنا. ابتسمت للمغزى الذى يقصده
وقلت

- في مصر يقولون الحذر لا يمنع من قدر.

قال فينكا زميلنا الألماني وكان يتابع حديثا باهتمام: في ألمانيا نعتقد أن لكل شئ سببا، أحيانا يكون غير معروف لنا، لكن مع تقدم العلم ينكشف ويصبح معروفا، فالقدر في تصورنا هو جهل الأسباب.

- قلت معقبا: الجهل حتما يؤدي إلى الخوف، يؤكد هذا قراءة ما قبل التاريخ حين كان الإنسان الأول يواجه مصيره دون معرفة تذكر فتحصن ضد خوفه بالأساطير والسحر

قال على: لكن الإيمان بوجود الله يرتبط بغيب لا نعرفه ولن نعرفه.

قال فينكا: هذه مسألة شخصية لا ترتبط بالمصير الذى تحدده إرادة الحياة. نحن نؤمن بالعلم ونترك الدين لمن شاء أن يعتقد فيه، لكن هذا لا يعنى بالضرورة الكفر بوجود خالق للكون.

قال على: هذا هو الفرق بين نظرة الغرب للدين ونظرة الشرق له.

قلت: أو هو بالأحرى الفرق بين موقف الشرق من العلم وموقف الغرب منه.. الإنسان في الشرق يجنى ثمار العلم من مخترعات تسهل له العيش دون أن يتخذ منها جالا للحياة، في الغرب منطق العلم يحكم حياة الفرد، الغريب في نظري أننى لا أرى الدين معوقا لاتخاذ منطق العلم حاكما للحياة بقدر ما يضيفي من معرفة، بل هو يحث على ذلك إذا نظرنا لتعاليم الإسلام.

قال فينكا: إذن فالعلة في الفرد وليس فيما يعتق.

قلت: لاشك أن حرية الفكر هى مفتاح اللفر

كانت السيارة قد اقتربت من بوابة المصنع فانتبهنا من حديثا وبدأت خواطرنا تتحول إلى ما نحن مقبلون عليه من عمل.



استقبلنا مدير الشركة وفريق العمل المكلف بصحبتنا بترحاب وصافحناهم كما يقضى العرف، قام كل عضو من الفريقين بتقديم نفسه، كان بين أعضاء الفريق المصاحب لنا سيدة مسئولة عن أحد النشاطات في المصنع، بدأنا في شرح خطة العمل خلال فترة زيارتنا للمصنع والإدارات المختلفة واتفقنا على تقديم التقييم المبدئى للإدارة العليا في الشركة قبل أن نغادر. بعد أن فسر لنا مدير الشركة الخواص الفنية للعمليات الإنتاجية الجارية في خطوط إنتاجه والمشاكل البيئية التى تنبثق عنها وكيفية الحد من تأثيراتها الضارة، تتحى بى جانبا وقال:.. نعلم أنك مصري مسلم، مرحبا بك في بلادنا .

قلت : يسعدني أن ألقى هذا الترحيب من أخوة لنا في إيران.

استأنف: لهذا نحن ننتظر منك أن تساندنا خلال تقويمكم للأداء البيئي لمصانعنا ، لأننا بحاجة ماسة لشهادتكم أمام الجهات الرسمية ، لن ننسى لك ذلك وأنت تطير عائدًا من أرجائنا مع دعائنا لك بالسلامة.

قلت محاولاً تفسير طريقة عملنا: نحن نقوم بهذا العمل كفريق وبشكل مستقل لضمان مصداقية حكمنا ، وأنت تعلم مسبقاً أن المصنع لا يتفق تماماً وقوانين البيئة في بلادكم ، والجهات الحكومية المسؤولة تعلم ذلك أيضاً فكيف يمكننا تجاهله؟

قال مصراً: إذا حصلنا على شهادتكم كانت حجتنا أمام الجهات المسؤولة ، كما أننا سوف نصصح المخالفات الموجودة.

قلت في وضوح قاطع: التقويم يرتبط بما هو واقع وليس بما هو مخطط ، لذا دعنا ننتظر حتى تنهى عملنا وتصبح الصورة واضحة ثم نتفق على ما يجب فعله.

استاء على من هذا الحديث الجانبي مع مدير الشركة حين قصصته عليه في نهاية لقائنا ووصف الرجل بسوء التصرف ، ولم يعلق فينكا.

قلت لعلى في طريق عودتنا: هناك أمر آخر لفت انتباهي حين التقينا بإدارة الشركة.. تذكر أننا قمنا بمصافحتهم في بداية الاجتماع كما يقضي العرف واللياقة ، لاحظت أن السيدة الوحيدة الموجودة بينهم ترددت قليلاً قبل أن تمد يدها للمصافحة وكأنها تحزم أمرها.

ملاحظتك في محلها ، لأنه يوجد قانون في إيران يمنع المصافحة بين الرجل والمرأة ، يمكنها أن تفقد وظيفتها لهذا السبب ، لكن لأنكم زوار عابرون ولا يفترض اطلاعكم على هذا القانون يمكن تجاوز مخالفته..

ثم أضاف بعد لحظات: هو مثل قانون الحجاب يراقبه المرء حين يراقبه الآخرون، أما وراء الجدران فلا سلطان على أحد غير ضميره وما يسوقه إليه هواه.

اعتذر علىّ عن عدم مصاحبتنا في مساء ذلك اليوم وودعنا على وعد اللقاء في الصباح لاستكمال العمل.



في المساء عرض علينا "فرنر" - زميلنا في طهران - أن نذهب معه لزيارة صديق ألماني يعيش في طهران منذ عشرين سنة حيث يعمل ممثلاً تجارياً لأحد الشركات الألمانية فوافقنا، قال له "فينكا" في الطريق إلى منزل صديقه :- لم يمض عليك عام في هذا البلد لكنك ألفت الحياة فيه.

أجابته: المخطط أن أمضى هنا خمسة أعوام على الأقل، لذا بدأت أتعلم الفارسية على يد معلم خاص وأحاول توسيع دائرة أصدقائي ومعارفي، الحياة هنا ليست قاسية بالشكل الذي يتصوره من هم خارج إيران خاصة في أوروبا. عليك فقط أن تتبّه لما هو محظور وأن تهتم بشئونك، لكن البلد آمن تماماً.. هناك بيروقراطية بالتأكيد لكن بدون فساد، والنظام يؤدي وظيفته.

كان صديق "فرنر" ويدعى "هانس" يعيش وحده في بيت مستقل بدون زوجة أو أولاد، يقترب عمره من الستين عاماً تبدو في وجهه تجارب العمر سألني بعد أن تعارفنا: ماذا يمكنني أن أقدم لك من مشروب؟

ابتسم "فينكا" وأسرع بالإجابة قائلاً: لا أظننا نملك خياراً في إيران سوى المشروبات الخفيفة.

ابتسم "هانس" ابتسامة الواثق وقال: دعني أصحبك إلى القبولتري كل أنواع الخمور التي ترد على خيالك، كل شيء متوفر هنا إذا عرفت

الطريق للحصول عليه ودفعت ثمنه.. لا تعجب، تلك هي الحال في كل بلاد العالم وإيران ليست استثناء.. فقط تتنوع الطرق وتتفاوت الأثمان.

من تحصيل الحاصل الإشارة إلى قوانين منع تداول الخمر وشربها في إيران، لكن متى كان القانون مانعا مطلقا إذا اصطدم برغبة البشر أو غوايتهم؟

لاحظ هانس دهشتي فأضاف

- المخدرات أيضا متداولة والدعارة كما يحدث في كل بلدان العالم - وقد زرت عددا غير قليل منهم، زرت أيضا مصر ومكثت بها بعض الوقت.

قلت: فيما يتعلق بالسلوك البشري وممارسة الحياة ستجد الكثير من التشابه والتوافق، فنحن جميعا آدميين، كما أن اعترافنا بوجود الرذيلة أو تجاهلها لن ينفي وجودها.

استرسل قائلا: لهذا كان موقفنا في الغرب أن ندع الفرد يقرر ما هو صالح لنفسه دون فرض أو وصاية من قانون، بينما في البلاد الأخرى يفرضون على الناس سلوكهم في مشربهم وملبسهم، ويظل الناس يفعلون ما يشاءون في خفاء وهو ما أسميه النفاق الاجتماعي، أنا لا أدعي أننا في الغرب أفضل أخلاقيا ولكننا أصدق مع أنفسنا، على فكرة أعجبتني الحياة في مصر لأنها منحت الناس تلك الحرية في سلوكهم دون فرض لقانون. لتراقب الله في عملك وحياتك كيف شئت فهو أهم. وأخطر من أن يمنع عليك الحاكم نوعا من طعام وشراب أو أن يفرض عليك شكلا في الملبس.

قلت: هذا صحيح، لكن لا تنس أن الثورة في إيران تزعمها رجال الدين وأقاموا الحكم فيها مؤسسا على ما فهموه من قواعد وأصوله، ولم يكن من المنطقي أن ينتظر العالم من الثورة الإسلامية في إيران أن تتبنى حكما علمانيا كحكم الشاه كأن شيئا لم يكن.

أضاف "فرنر" معلقا

لابد أن تختلط السياسة بالدين في لحظة ما .. هذا ما يحدث في تلك المنطقة من العالم.

قلت: إيران تسعى لتكون نموذجا يحتذى في المنطقة ولن تفعل ذلك إذا تشابهت مع النظم التي تجاورها، لهذا استوجب المنطق أن يكون لها نموذجا متطرفا في البداية، فالتقت السياسة بالدين

تساءل فينكا: لكن يبقى السؤال الأهم، هل حياة الفرد الإيراني الآن أيسر وآمن، وهل هو بمستقبله أكثر ثقة وطمأنينة أم أن الخوف من الحرس الثوري استبدل خوفه من السافاك؟

قال "فرنر": تأتي لتعلمني الفارسية في منزلي فتاة إيرانية تقوم بتدريسها لعدد من الأجانب الراغبين في تعلمها.. تأتي محجبة كما يلزمها القانون، لكنها تنزع حجابها وتبدو بملابسها الأوروبية الشكل بمجرد أن تدخل المنزل ثم تعود إلى حجابها وردائها الضافي حين تنتهي من الدرس في طريقها إلى الشارع، هذا السلوك الازدواجي في حياة الفرد يصعب على الفهم ولا أستطيع شخصيا أن أحياء، ومع ذلك فأنا معجب بجرأة المرأة الإيرانية التي مارست حريتها الشخصية في تلك المساحة الضيقة التي سمحت بها الدساتير في بلدها ولم تياس أو تغلق على نفسها، بل واستمتعت بالحياة كلما أمكنها ذلك.

قلت: كانت المرأة دائما أكثر قدرة من الرجل على التأقلم وأسرع في التجاوب مع المتغيرات، ربما لأن تحفز الرجل للمقاومة يفقده بعض المرونة، وغروره في مواجهة الواقع يستنفد جهده، بينما المرأة - لخبرتها بسنن التغيير في جسدها - تملك بحكم الطبيعة ما يعينها لمحاولة الممكن وقبول التغيير ولو ظاهرا.

نظر إلى هانس مليا ثم قال: يدهشني أن أسمع من رجل شرقي مسلم رأيا ينتصر فيه للمرأة ويعلو ببعض خصالها فوق الرجل. لم يكن أبدا

للمجتمع الشرقي رأى مماثل فيها مهما كان تقدمه بالقياس للغرب حتى في مصر.

أكد "فرنر" نفس الفهم قائلا: كان للمرأة في الشرق دائما مكانة مختلفة في مجتمعاتها مقارنة بمكانتها في المجتمع الغربي، وهذا موضع خلاف دائم بين الشرق والغرب.. أقصد بذلك الغرب الحديث الذي تساوت في مجتمعه المرأة بالرجل تماما بنص الدساتير والأعراف السائدة وهو ما لم يتحقق في الشرق حتى الآن.

قلت متسائلا: ماذا تقصد بالشرق؟ أهو الدول العربية المسلمة؟ أيشمل الشرق دولا مثل الهند وباكستان، أم يمتد فيشمل طرف قارة آسيا بدوله المتعددة الأجناس والديانات، هل الغرب يعنى فقط الجزء الغربي من أوروبا والولايات المتحدة وكندا أم الغرب الجغرافى بكل ما يشمله من دول أوروبا والأمريكتين؟ كيف تصف دولا مثل روسيا وألبانيا وأرمينيا وأستراليا؟

بعد فترة صمت قال هانس وقد أدرك المغزى من سؤالي: من الأصديق أن نقول "الحضارة" الغربية المعاصرة أينما وقعت الدول التى تعتتق مبادئها شرقا أم غربا، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى نقول الثقافة العربية الإسلامية أينما تمثلت، وبين أسس تلك الحضارة وأصول هذه الثقافة نعقد المقارنة.

أردفت بقولى: وأهم أسس تلك الحضارة "العلمانية" أي فصل الدين عن الدولة، وأقوى أصول الثقافة العربية المسلمة كما وصفت، هو الإسلام الذى لا يفصل بين الدين والدولة.

قال فينكا مذكرا وكان يتابع الحديث بشغف: كنا نتحدث عن أحوال المرأة فتحولنا إلى صراع المبادئ والأصول

قلت: لا يمكنك فهم مسائل كثيرة ومنها مكانة المرأة في مجتمعاتنا بدون إدراك أن الإسلام في الثقافة العربية هو الأصل الباقي الذى لا

يمكن زحزحته من وعى الناس الاجتماعي والأخلاقي مهما كانت شدة المحاولة.. أنتم في الغرب تظنون أن هذا سبب التخلف في الشرق وأنه لا سبيل إلى ركب الحضارة الحديثة دون سلوك سبيل العلمانية لأنها التجربة التي حققتم بها تقدمكم ورخاءكم وهذا غير صحيح من وجهة نظري.

قال هانس: لقد ذاقت أوروبا من الطغيان والظلم بسبب سيطرة الكنيسة ما أعطى شعوبها قناعة لا تهتز بضرورة فصل الدين عن الدولة إن كان للحياة أن تستقيم وترتقى.. هذا للعلم - لا يعنى الكفر بوجود الخالق أو ازدياد عبادته لمن شاء، لكن لا مكان له في تنظيم حياتنا الدنيا كما نريد وبما يكفل للجميع حقوقا متساوية أمام القانون.

قلت: لا أحد ينكر ما حققه الغرب من تقدم ورخاء ولا شك أن حياة الفرد فيه أكثر حرية واستقلالا كما أنه أوفر علما وإنتاجا، لكن هذا في أساسه نتاج العمل الجاد والجرأة في اقتحام المجهول وتلك حالة ترتبط بتحرر الإرادة البشرية من العسف والقيود التي تحد انطلاقها.. إذا كان الدين يغفل تلك الإرادة فعلى المجتمع الذي يعتقه أن يتحرر منه وهو ما فعله الغرب أو بالأحرى تحرر من سيطرة رجاله. لكن الدين يمكنه أن يكون أداة لتحرير الإرادة أو أن يكون قيда لها حسبما يتناوله معتقوه.

قال "فرنر": تريد أن تقول أن العلة في المسلمين وليس في الإسلام؟

أجيبته: إذا أردت أن تكون منصفًا فرق بين الإسلام كدين وهؤلاء الذين ينتسبون بأفعالهم إليه وهو منها براء، ولعل التاريخ يؤكد ذلك إذا نظرت إلى فجر الإسلام حين ارتبط الفهم الصحيح لمبادئه بأفعال من انتسب إليه واعتق شريعته.



سألني على في الصباح كيف قضينا المساء فأجيبته: كانت المرأة محور المناقشة.

قال مبتسما: وهل يخلو حديث الرجال من ذكرها خاصة إذا كانت غائبة؟

لاحظت أن السيارة التي تقلنا تأخذ اتجاهًا مختلفًا عن اتجاه الأمس فأردت التأكد من صحة ملاحظتي.. أجابني "على" حين سألته: لقد طلبت من السائق أن يتفادى الطرق التي تؤدي إلى الجامعة لأن الطلبة أعلنوا عن مظاهرة ينظمونها هذا الصباح. تفاديت أن أسأله عن السبب لتجنب الخوض في حديث سياسة مع وجود سائق غريب في السيارة لكنه تطوع بتفسير ذلك قائلا: - الطلبة يتظاهرون ضد من يسمون بالنواب الإصلاحيين في البرلمان الذين يعتبرونهم أعداء للثورة، هم لا يريدون أن يتفوه إيراني بشيء يخالف به ما يعلنه آيات الله سواء كان صحفيا أو نائبا.

ثم توجه إلينا بالسؤال قائلا: هل ستنهي زيارتنا لتلك الشركة اليوم أم الغد؟

أجابه "فينكا": طبقا لخطة العمل لا يزال هناك ما ننجزه في الغد بجانب برنامج عمل طويل هذا النهار.

استمر على يستفسر: لكن نتائج التقويم لا تبدو في صالح الشركة حتى الآن؟

أجبت: هناك جوانب إيجابية لا شك، لكننا لا نستطيع التقويم النهائي إلا بعد زيارة مواقع العمل كلها.

كانت صور ضخمة للإمام الخميني والإمام على خامنئي مقرر الثورة الإيرانية بعد وفاة الخميني وأعلى سلطنة دينية ودنيوية في البلاد، تنتشر على جوانب الطرق حتى ابتعدنا إلى ضواحي طهران ثم خارجها في الطريق إلى المصنع.

تساءل على بعد فترة صمت: طلب منى أحد مديري الشركة أن
أستفسر منكما إن كان من اللائق تقديم بعض الهدايا الرمزية لكما
في اللقاء الختامي.

نظرت إلى "فينكا" وتطوعت بالإجابة قائلاً: في العادة لا نرفض
الهدايا البسيطة التي تمثل ما تنتجه الشركة مما لا يتعدى قيمته عشرين
دولارا حتى لا نسبب حرجا لهم، لكن الهدايا الأغلى في الثمن نعتذر عن
عدم قبولها.

قال على: نعم هذا مهم، لأن رفض قبول الهدية يعتبر امتهاناً
لمقدمها.. وسوف أخبرهم بهذا الشرط.

شعرت ببعض القلق فاضطررت أن أضيف

.. لكن لا بد أن يكون واضحاً أن هذا لا علاقة له بنتائج التقييم.

أكد على ما قصدته قائلاً: لا تقلق فهم يعرفون ذلك خاصة بعد
حديثك مع مدير الشركة بالأمس.. لقد زال من تصورهم أدنى شك في
نزاهة تقديركم.



لم يحضر مدير الشركة اللقاء الختامي في اليوم الأخير وإنما ترك
نائبه يتلقى النتائج المتوقعة. ساد جو من التفاهم وشعور بالتقدير من كلا
الجانبين لانتهاؤ مهمتنا وقبولهم لنتائجها، سألني أحد المديرين

.. هل ستعود مباشرة إلى مصر أم لديك عمل آخر في إيران؟

أجبت: من المخطط أن نتوجه إلى مدينة شيراز لزيارة إحدى
الشركات هناك وربما نذهب إلى "بندر عباس" أيضاً، لكن هذا كله
لن يتأكد قبل بداية الأسبوع القادم.

استمر يقول مستأنساً بالحديث: إذن لديك فرصة لمشاهدة الجليد
فوق مرتفعات طهران غدا الجمعة، كثير من الناس يتوافدون إلى تلك

المناطق لاقتراح بعض اللهو في عطلة الأسبوع وهي إحدى المسرات البديئة المتاحة لنا في طهران، غير ذلك نمكث في بيوتنا أو نزور أهلينا وأصدقاءنا.. لكن عليك أن ترتدي حذاء ملائما للسير فوق الجليد.

قال على وهو يصحبنا نحو تلك المرتفعات: تلاحظون أن طهران ذاتها ليس بها جليد بالرغم من برودتها، لكننا حين نصل إلى المرتفعات سنجد الجليد قد غطاها، هناك ما يقرب من ستة درجات مئوية فرق بين المستويين بسبب الارتفاع، الوصول لهذا الارتفاع ليس شاقا خاصة بسيارتي المتواضعة.

حين وصلنا لاحظنا مدينة طهران من ارتفاع ألفى متر وقد غطتها غلالة من الدخان الأسود يشهد على تلوث الهواء الذي تعانیه وخطر بيالي الأداء البيئي لمدينة كاملة.

أشار على إلى بقايا نظام تليفريك في الطريق وقال: كانت العربية المعلقة تنقل المشاهدين بين قمتي مرتفعين فيستمعون بمشاهدة الجليد وهم معلقون في الهواء كأنهم يسبحون فيه.. الأجهزة معطلة وغير آمنة التشغيل منذ عصر الشاه.

كان كثير من الإيرانيين منتشرين في أنحاء المكان يسيرون على أقدامهم مع أطفالهم يتزهون أو يجلسون على المقاهي المتناثرة يحتسون المشروبات الساخنة، لقد ملأني ذلك بشعور الحياة الدافق في الإنسان أينما كان.

السير فوق الجليد تجربة مثيرة ومخيفة خاصة حين ترتدي حذاء عاديا لا يصلح لتلك المهمة، وأنى لي أن أترقب السير فوق الجليد في طهران، لكن الحركة الدائمة والسير المتواصل أكسبنا خبرة ومهارة حفظتنا من الانزلاق، والملابس الثقيلة التي ارتديناها قامت بحماية أجسادنا من البرودة الشديدة، أيضا ما يشعه الزحام في النفس من حرارة المشاركة والإحساس أننا جميعا ننتمي إلى أصل واحد مهما تنوعت أشكالنا

وألواننا أو تباينت لغاتنا وعقائدنا، كان على يسير إلى جوارى ومن خلفنا
سار "فرنر" و"فينكا" لضيق ممرات السير.. قال وقد لاحظ انشغالي:
تبدو صامتا منذ فترة، ترى ماذا يشغلك هذه اللحظة؟

ابتسمت لفراسته وقلت: خطر بيالي كم تقرب الطبيعة بيننا وتزيل
ما نصطنعه من فوارق، تقلنا نفس الأرض وتدفعنا نفس الشمس وتظلنا
نفس السماء وهى روابط تحثنا على التقارب والتفاهم وتدلنا على وحدة
المصير.

قال على: هذا صحيح إذا شعر الإنسان بالاكتماء، الحاجة تجبر
المرء على التحول عن الطبيعة كما وصفتها ليستجيب مرغما لضرورات
البقاء.

قلت: الشعور بالحياة لا يستوجب كثيرا من الجهد، الإنسان هو
الذى يعقد ضروراته على بساطتها، انظر إلى الطفل كيف يلهو ويستمتع
بوجوده مهما أحاطه من ظروف، حتى في أحلك اللحظات وأكثر
الأماكن بؤسا تجده يسترق أوقات لهو بتلقائية مدهشة ويكتشف ما
يسليه بإبداع غريب.

قال: أظنك مندهش لرؤية هذا العدد الكبير من الإيرانيين منتشرين
فوق جليد طهران بصحبة أطفالهم يلعبون ويلهون معبرين عن حبهم للحياة
والاستمتاع بترفها؟ صدقني الصورة التى تروج عن إيران في إعلام الغرب
غير صحيحة، نحن مثل كل شعوب الأرض نحزن ونفرح، نجد ونلهو،
نمارس حياتنا وأن اختلفوا معنا كيف نفعل ذلك. هم يظنون أن الإسلام
يحرم المرح ويحجر على اللهو ويدفع بالمسلم للعبوس في وجه الحياة.

سألته: من هو رمز الثورة الإيرانية يا على وملهمها الأول؟

أجابني بلا تردد: الإمام الخميني.

قلت: شاهدت صورته الضخمة تستقبلك في مطار طهران وتصافحك
أينما ذهبت.. الوجه جامد رصين غابت الابتسامة عن صفحته، تلك هى

الصورة التى تعلق فى ذهنك، وجه لا يلين ولا يستلطف ناظره وهى صورة انتشرت فى العالم عن الثورة الإيرانية.. لا تسامح أو مهادنة. هذا لا يقلل من بطولة الرجل أو ينتقص من جسارة ثورته.. إذا فهمت ما أعنيه.

أضفت بعد لحظات صمت: أنت عشت فى أمريكا فترة طويلة ويمكنك فهم نظرتهم للحياة وأسلوبهم فى العيش، السؤال الذى يطرح نفسه بمنطقهم هو كيف يمكن للإسلام أن يشرع للحياة فى القرن الواحد والعشرين والذين يعتقدونه يحيون فى غياهب الماضى وقد اعتقل تفكيرهم أنماط من الحياة تجاوزها الزمن؟

قال على: لكنك تعرف أن ذلك غير صحيح وأن الإسلام هو دين الإنسانية أبد الدهر، هذا بالرغم مما يعتري المسلمون اليوم من تخلف وضعف.

قلت: هذا ما يعرفه ويعتقده المسلم حقاً، لكن غير المسلم لا يفهم كيف نفرق بين ما نعتقد وما نفعله فى الواقع وهو محق فى ذلك، لا يمكننا أن نتجاهل وجهه نظر الآخرين نحونا لأن ذلك ببساطة لن يغير واقعنا الملتبس حتى على أنفسنا.

كان فينكا وفرنر قد لحقا بنا واقترح فينكا أن نتوقف لاحتساء بعض المشروبات الساخنة فى مقهى قريب فوافقنا على الفور.

دفع المودة ينسينا برودة الجو ولا يسعنا وسط هذا المحيط اللاهى إلا أن نلهم وننسى للحظات جدد الحياة الجاثم فوق الصدور أياما وسنوات متوالية.

كان أكثر ما يفرح القلب شقاوة الأطفال وعبتهم وهم يقذفون بعضهم بكرات الثلج فى تلقائية وسذاجة تستمرئها القلوب قبل العيون.

عاد بنا على إلى المدينة وقد ولت الظهيرة ناصحا إيانا ببعض الراحة قبل مقابلة السيد "غولام" المدير الإقليمى لشركتنا الذى دعانا لطعام العشاء فى أحد فنادق طهران الكبيرة اسمه "عمر خيام" وكان من قبل

أحد سلسلة شيراتون الشهيرة لكن الثورة الإيرانية بحكم عدائها لكل ما هو أمريكي بدلت اسمه بعد أن فسخت عقد إدارته مع شركة شيراتون كما فعلت مع كل ما هو على شاكلته. كنت أجلس إلى جوار علي وهو يقود سيارته.. قال لي هامسا قبل أن تغادر السيارة: أريد أن أسألك معروفا.

قلت: بالتأكيد يا علي لو في استطاعتي.

قال: لعلك لاحظت جدي ومثابرتي في أداء عملي..

سكت منتظرا تعليقي على قوله فبادرت قائلا:.. أنت خير عون لنا في أداء مهمتنا دون شك كما أنك تؤدي عملك بتفان ملحوظ.

أضاف مترددا: هل يمكنك إبلاغ السيد "غولام" بذلك أثناء العشاء بشكل عفوي غير متعمد، سوف يسهم ذلك في تقديره لي ماديا ومعنويا؟

قلت له: بالطبع يمكنني تدبر ذلك إن كان يحقق لك فائدة كما أنه لا يخالف ما رأيناه منك.

قال مفسرا: رؤساء العمل هنا يستمعون لحكم إنسان غريب مثلك ويثقون به أكثر مما قد يأتيهم عن طريق وسطائهم، لأنهم يعتبرونك حينئذ غير ذي مصلحة ولن تحقق برايك نفعا شخصيا.

طمأنته مؤكدا

.. سوف أفعل ما تريد.

أضاف وكأنه غير متأكد لتصديقي لما يقول:.. هم أيضا لن ينصتوا لمثل زميلنا فينكا لأنه غير مسلم، أما أنت فلكونك كذلك يمثل لديهم فارقا، أعذرني لما أقول، لكنه الواقع.

الحق أنني دهشت من هذا الطلب الذي يخالف منطق الأشياء، كيف يصدق رئيس العمل تقويما من شخص لم يمض غير أسبوع بينهم

ويهمل مراقبته لمرء وسية في كل يوم؟ أما الربط بين الدين وتلك المسألة فكان أكثر غرابة، وتذكرت حديث المدير الآخر لى في بداية زيارتنا أنه ينتظر منى المساندة وأن أقف لجانبهم لكوني مسلما بغض النظر عن الموضوعية ونزاهة الحكم.



فى المساء تقابلنا على مائدة العشاء مع " غولام " وزوجته، تبدو عليهما ملامح الثراء، الملابس أنيقة متناسقة، ربطة العنق حريرية والمعطف من الفراء، مع العلم أن ربطة العنق غير مسموح بها في دواوين الدولة لاعتبارها من علامات الهيمنة الغربية على مظاهر الرجال! لكن غولام رجل أعمال ناجح كثير الأسفار إلى أوروبا وتبدو زوجته ممن لا يعترضون العرف العام لكنهم يتجنبونه قدر المستطاع، كانت تضع الإيشارب فوق رأسها يكاد يغطى شعرها، لكنها كانت تتحدث الإنجليزية في سلاسة.

فوجئت بوجود فرقة موسيقية تعزف ألحانا محلية. بعد قليل برز أحد المغنيين الرجال للترفيه عن الحاضرين ببعض الأغاني الفارسية. لم تكن الموسيقى غربية على أذنى وبدأت ألف رناتها. لاحظ غولام اهتمامي بآلة عزف كنت أظنها القانون، لكنه صحح ظني بشرح طويل عن أهل تلك الآلة واختلافها عن القانون كما نعرفه في مصر.

قلت: لابد أنك زرت مصر لتعرف مدى عشقنا لآلة القانون؟

قالت زوجته: زرنا مصر مرة واحدة منذ ما يقرب من عشرين عاما، لكنني لا أنسى الأيام الجميلة التى قضيتها في القاهرة وأتمنى أن أراها من جديد، لابد أنها تغيرت كما تغير كل شئ من حولنا؟

قلت: أصبحت أكثر ازدحاما، لكن سحرها لا يزال أسرا يفتن من يتذوقه، أما التغيير فهو سنة الحياة الغالبة، بالمناسبة هل مسموح للنساء بالفناء في إيران اليوم؟

رد "غولام" على سؤالي قائلاً: تعلم أنهم ينظرون إلى صوت النساء كعمرة يجب سترها فكيف يسمحون لها بكشفها.. غناء النساء غير مسموح به كما هي ترجمتهم لتعاليم الإسلام.

قلت معلقاً محاولاً التخفيف من مرارة الإجابة: لازالت السهرة ممتعة بهذا العزف وكذا الغناء، كما أن الطعام لذيذ وشيق، لا تختلف نكهته كثيراً عن طعامنا في مصر.. أشكركم مجدداً على دعوتكم الكريمة.

قال غولام: هذا من دواعي سرورنا، أيضاً عرفانا بالمجهود الذي بذلتموه هذا الأسبوع، فهو أقل ما يمكن عمله للتعبير عن تقديرنا.

قلت مشيراً إلى نتيجة المراجعة: هذا يدهشني بعض الشيء فعادة تبتهج الشركة بحصولها على الشهادة، وبالرغم أن هذا لم يقدر هذه المرة للأسباب التي نعرفها إلا أن أنهم قدموا لنا الهدايا وأحاطونا بكرم أخلاقهم.

قال غولام: هم يدركون مدى الجهد الذي بذل للوصول إلى تقدير سليم ونزيه على الرغم من محاولة مديرهم التأثير عليكم إلا أنكم كنتم موضوعيين، بل وقدمتم لهم المساعدة كلما أمكنكم ذلك ولا يصع المرء النزيه إلا أن يشكركم على مصداقيتكم في أداء العمل الذي كلفتم به.

قال فينكا: هذا يعني أن تلك النتيجة لن تؤثر سلباً على نمو نشاطنا في إيران؟

قال غولام: على العكس، سوف يذاع في محيط العملاء أن من شاء أن يحصل على تقويم موضوعي أن يلجأ لشركتنا، كما أنه أكد للسلطات المختصة مصداقية الشهادة التي نصدرها، وتأكد أنهم كانوا يراقبون.

شعرنا بالارتياح لحسن الفهم لدورنا وتقدير صعوبته، وأضفت: علينا أن نشهد نحن أيضا بالدور الذى شارك به على لنجاح مهمتنا، سواء بالإعداد الجيد لها أو بدور المترجم الأمين حين الحاجة.

ابتسم غولام كأنه أدرك مغزى عبارتي وقال: على من أعمدة شركتنا في طهران ونعول على جهده في تنمية نشاطها.

لمعت في عيني على ابتسامة رضى، ثم تشعب الحديث إلى مناحي شتى حتى اقترب الليل من الانتصاف حين ودعنا غولام وزوجته وشعور المودة يغلف نفوسنا حين امتدت الأيدي بالمصافحة لا تفرق بين إيراني وألماني ومصري.



قضينا اليوم التالي في مكتبنا بطهران حيث علمنا بتأجيل مهمتنا في شیراز لطلب العميل مزيدا من الوقت للاستعداد، يبدو أنهم علموا بأننا نأخذ الأمر بالجد المطلوب فآثروا التأجيل. لهذا قررنا التعجيل بعودتنا حيث لا جدوى من المكوث في إيران لمجرد الانتظار.

كانت بادرة طيبة من "فينكا" أن اقترح دعوة على وزوجته وسكرتيرة مكتبنا إلى العشاء بمناسبة انتهاء مهمتنا في طهران، ووقع اختيارهم على مطعم ياباني تناولنا فيه وجبة من قائمة المطبخ الياباني الشهير.

قبل سفرنا أصر على أن يصحبني إلى أحد محلات بيع الحلوى الإيرانية ذائعة الصيت ليشتري لى هدية أحملها إلى أسرتي في مصر، لكنه لم يجد الصنف الذى أراد شراءه ونصح به البائع بالذهاب إلى محل آخر لا يبعد كثيرا حيث كنا.. تطوع أحد الواقفين أن يدلنا عليه وكان شابا مهذبا أصر أن يصحبنا بسيارته.. سألتني وكنت جالسا إلى جواره: إلى أي البلاد تسمي؟

أجبت: أنا مصري.

ابتسم وقال: أنا من المعجبين بالغناء خاصة المطربين الشبان.

أخذتني الدهشة من تلك المصادفة، أن أقابل شابا إيرانيا دون سابق موعد أو معرفة لأكتشف في لحظات اهتمامه بالاستماع لمغن مصري لا يعرف لغته بل ويتذكر إحدى أغنياته، وظللت أتأمل تلك المصادفة وما تدل عليه.. أن تواصل الشعوب لا تعترضه لغة أو جنس أو دين، ومهما استدعت السياسة الخلاف بين الدول سيظل دافع الإنسان الأساسي حب الحياة والتوجه لما يعبر عنه هذا الحب مستخفا بكل الحواجز، وسواء كان السبب لعدم وجود علاقات دبلوماسية بين مصر وإيران تسمية أحد شوارع طهران باسم قاتل السادات أو كان السبب غير ذلك فإن جسور المودة بين الناس هنا وهناك لا تقطعها قرارات الساسة.



مع الأصدقاء في المطعم الياباني



فوق تلّال طهران



الجليد يحيط بنا في مشاهد خلابة



الزحام والمرح لا يؤثر في دفئة الجليد



ایران.. بین ثلوج طهران



ایران.. علی حافة طهران

جمهورية تركيا الحديثة

هبطت الطائرة في مطار "أسطانبول" بعد رحلة من القاهرة استغرقت حوالي ساعتين لكنني كنت مفعما بالشوق لرؤية تلك المدينة الفريدة من أرض الأناضول فبدأ لي زمن الطيران لا ينتهى فالشوق يحفز النفس ويضعف مقدرتها على الصبر والتريث معا.

بدأ المطار صغيرا بالنسبة لسمعة المدينة الطاغية وحجم السياحة المتدفق إليها خاصة من دول أوروبا، لكن الزحام لم يكن شديدا بالرغم من وصولي في منتصف النهار فخرجت بحقيبتي الصغيرة في دقائق قليلة. لم يكن من السهل للعين أن تخطئ صورة كبيرة للزعيم الشهير ومؤسس تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك.

خارج المطار وجدت "لطفى" في انتظاري بعلامه التركية المميزة اللون الأبيض المشرب بسمرة خفيفة مع الشارب الكثيف. كنت أعرفه منذ التقينا في ألمانيا من نحو خمس سنوات حين جمعت بيننا فصول الدراسة أثناء تدريبنا في المركز الرئيسي للشركة بمدينة هامبورج حيث قربت بيننا الجيرة في السكنى بمنزل واحد وكوننا المسلمين الوحيدين في المجموعة حين صادفنا شهر رمضان في جو قارس البرودة. احتضنني محييا في حرارة ثم اصطاحني لسيارته قائلا:.. سنتوجه إلى الفندق الذي ستقيم فيه ثم أتركك هناك لتأخذ قسطا من الراحة بعدها ألتقيك في المساء مع زميلنا مراد الذي سيلازمك في مهمتك للترجمة والتدريب.. السيد رفعت مدير المكتب سوف يقابلك بعد أن يعود من رحلة عمل في أزمير تستغرق يومين.

أجبتة قائلا: هو لطف منك أن تنتظرني في المطار وتصحبني إلى الفندق، كم يسعدني أن أراك مجددا في وطنك.

الفندق يقع في الجزء الآسيوي من مدينة اسطنبول لهذا سنعتبر فوق مضيق البوسفور الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة كما تعلم.

هل ستحملنا عبارة إلى الجانب الآخر؟

سنعتبر فوق جسر معلق يسمح للسفن بالعبور أسفله.. في الواقع يوجد جسران أحدهما أنشئ في العشرينيات من القرن العشرين والآخر شيد حديثا لاستيعاب حركة السيارات المتزايدة بين آسيا وأوروبا من خلال تركيا.

كانت الشوارع نظيفة والمرور منظما ورونق المدينة لا يخفى على العين، كان مشهد عبورنا فوق الجسر المشيد فوق مضيق البوسفور أخذا لارتفاعه الشاهق عن مستوى البحر، فيما تبدو السفن العابرة أسفله بعيدة المنال، تصورت كيف أن هذا المضيق الضيق هو كل ما تملكه روسيا منفذا للبحر المتوسط من خلال بحر مرمرة الذي يضيق مرة أخرى عند الدردنيل ليصب في مياه المتوسط الدافئة. انشغل ذهني فيما تؤثر به الجغرافيا في صنع مصائر الأمم وتحديد هويتها السياسية. كأنما كان "لطفی" يقرأ أفكاري إذ قال: لأهمية هذا المضيق لروسيا كان لابد من توقيع اتفاقيات تؤمن لسفنها المرور من خلاله كذا المضيق الآخر وإلا اختنقت تجارتها.

قلت معقبا: الأفضل لمثل تلك الاتفاقيات أن ترتب بالتفاهم السلمي على أن تملأ بالقوة

قال لطفی: كان لموقع تركيا الجغرافي دائما أثره في مسار التاريخ القديم والحديث، لم تكن صدفة أن تصبح تركيا أقرب الدول المسلمة إلى أوروبا في القرن العشرين، ليس جغرافيا فحسب ولكن سياسيا وثقافيا أيضا.

قلت ملاحظا: بالرغم من أن الجزء الأوربي في تركيا لا تتعدى مساحتها ثلاثة في المائة من مساحتها كلها.

أكد وجهة نظره قائلاً: تأثير هذا القليل أعظم مما يمكن تصوره،
لو كان العكس هو الواقع ما لاحظته أحد.

- تعنى لو أن هذه النسبة تقع في آسيا ما حرصت تركيا على
اعتبارها دولة آسيوية.. عندك حق فأية فائدة سوف تجنيها حينئذ من هذا
الحرص؟

قال لطفي بعد فترة انشغال بالطريق: كدنا نصل إلى الفندق.. هو
قريب من الساحل كما سوف ترى.

تركني بعد أن اطمأن أن الأمور تمضي كما خطط لها وهو يؤكد
على موعد المساء.

لم أكن أشعر بالتعب فالطائرة لم تستغرق في طيرانها وقتاً طويلاً
وكان النهار رائعا، كما كنت مشوقا كالعادة لاستكشاف ما
حولي، ألقيت بحقيبتي في الحجرة بمجرد وصولي واتخذت طريقى خارج
الفندق مستشقا عبير النهار. لم يكن الجو حاراً مما حفزني للسير في
الشوارع المحيطة بموقع الفندق ومشاهدة حركة الناس في غدوهم
ورواحهم.

كان المارة يتحركون في نشاط واضح، يعبرون الطريق بانتظام من
أماكن محددة بعلامات واضحة طبقاً لإشارات المرور، لم ألحظ فيهم
متسكماً أو متثاقلاً في مشيته، معظمهم من الشباب، النساء يرتدين
أزياء تعكس آخر المودات في أوروبا التي كانت حينئذ الجوب القصير.
أكشاك بيع الصحف والمجلات منتشرة وزاخرة بكثير من المطبوعات
بلغات مختلفة منها العربية والإنجليزية والألمانية والتركية بالطبع والتي
تكتب بالحروف اللاتينية منذ فرضها مصطفى كمال أتاتورك بديلاً
عن الأبجدية العربية.

قادتني قدماي بحس دفين نحو شاطئ البحر الذي يأسرني بجماله
وغموضه أينما كنت وأينما كان، وجدت المسافة التي تفصل بينه وبين

أقرب صفوف المنازل إليه تتعدى المائة مترا مما يعطى المتأمل مجالا واسعا لاستيعاب البحر باتساعه وانفراده دون أن تحجب رؤيته هياكل خرسانية أو حديدية من صنع البشر اللهم بعض السفن العابرة التى تأتلف مع محيط الصورة.



فى المساء حضر " لطفى " لاصطحابى للعشاء فى أحد مجلات الشواء على غرار ما هو معتاد فى مصر إلا أن المكان كان هائل الاتساع ومزدهم عن آخره ربما احتوى بين أرجائه ثلاثمائة مائدة، كان أيضا شديد الصخب.

وجدنا زميلنا الآخر "مراد" فى انتظارنا والذى نشأ الود معه منذ الهولة الأولى، لسيماه السمحة وصوته الهادئ.. نحيل الجسد جم الأدب حين يتحدث وحين ينصت لمحدثه، حين دارت عيناى فى الموائد المتراسة لم أغفل عن انتشار المشروبات الكحولية فوقها وتعاطى الشاربين لها دون حرج يذكر.

قلت معلقا: من يشهد تلك المائدة الزاخرة لا يصدق أن معدل التضخم فى الاقتصاد التركى يزيد عن الثلاثمائة فى المائة.

قال مراد وقد أدرك مغزى ما ألمح إليه: تركيا دولة علمانية النظام منفتحة على العالم خاصة أوروبا، كون الدولة مدينة لا يعنى أنها فقيرة بمفهوم الاقتصاد الحديث.

قلت متسائلا: هل يعنى ذلك أنه لا يوجد فقراء؟

قال لطفى: الفقراء فى كل مكان، هذه مشكلة أبدية. الاقتصاد الحر لا يمنحهم مكانا آمنا فى مجتمعهم، لكن الاقتصاد الموجه من قبل الدولة يجعل من الجميع فقراء.

قلت: لهذا كانت لمبادئ الإسلام في توزيع الثروة وفرض حقوق للضعفاء دور هام في نشأة السلام الاجتماعي، هذا إذا طبقت بالطبع.

قال مراد بحنكة: هنا تعترضك السياسة، في تركيا ليس للإسلام دور يلعبه في الحكم وإن كان أغلب الشعب يعتقد الإسلام. هكذا سارت تركيا خلف زعيمها مصطفى كمال أتاتورك ولا أظنها تتراجع.

سألته: بهذه المناسبة هل تراجع الإسلام أيضا في نفوس الناس أم لا يزال له أثر في حياتهم الخاصة؟

أجابني وأطباق المشويات تصطف على مائدتنا: جيل الآباء والأجداد لا يزال متمسكا بتعاليمه وفروضة لكن جيل الأبناء يقتفي أثر الغرب بالرغم من استمرار وجود مدارس إسلامية تحرص على غرس تلك التعاليم في عقول الناشئة، لكنها لا تلقى تشجيع الساسة إلا إذا كان من وراء ذلك مكسبا سياسيا محسوبا بالطبع.

. أتذكر أني قرأت مؤخرا خبرا في الصحف يفيد أن جانبا من تلك المدارس قد أغلق بأمر الحكومة التركية مما أثار مشاعر الاستياء لدى العامة.

قال مراد: في الحقيقة هذا خلط واضح بين السياسة والدين سببه القائمون على تلك المدارس، طبقا لقانون إنشائها لا يجوز لتلك المدارس أن تخوض في السياسة وهو ما اقترفته بتأثير من بعض الأحزاب مما دفع الحكومة للتدخل لفرض القانون، كان الهدف إحراج الحزب الحاكم فتم غلقها بأوامره.. لكنني لا أظن ذلك الفلق سيدوم

. هذا يعني أنه بالرغم من كل شئ لا يزال للدين دور يلعبه في حياة الأتراك سواء بصدق رجال الدين أو ادعاء بعض الساسة

قال لطفي: الحياة السياسية في تركيا معقدة، لهذا تجد اهتمام الشباب منصب على عملهم فهو مستقبلهم. أظن الاقتصاد هو العنصر الفاعل في مستقبل الدول في جميع الأحوال، لقد مضت العصور التي

كانت العقائد فيها هي القوة الفاعلة. الهدف القومي لتركيا الآن هو الانضمام للإتحاد الأوروبي، سوف ندفع في سبيل ذلك الكثير ونحن على استعداد لبذل الكثير من التضحيات لتحقيق هذا الهدف وهو ما بدأ بالفعل، فقد ألقى حكم الإعدام بناء على توصية الاتحاد الأوروبي ومشكلتي الأكراد وقبرص ستجدان طريقا للحل في الوقت المناسب.

قلت وطعم المشويات اللذيذة ينساب في أفواهنا: سوف يحدث ذلك حين تتحقق منه فائدة لأوروبا أو يجنون من ورائه مالا يمكنهم جنيه عن طريق سواء.

قال مراد: لا تتس الدور الأمريكي في هذه المعادلة.. الغرب يرغب في إظهار تركيا كنموذج يحتذى للدول الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط، ونظن نحن الأتراك أننا مؤهلين لذلك.

قلت في صراحة ربما كانت في غير محلها: في الحقيقة يا أخ مراد النموذج التركي - بالرغم من استحسان الغرب له ظاهريا - غير واضح أو غير براق بالشكل الذي يجذب الشعوب المجاورة للاحتذاء به، ربما لأن الأتراك أنفسهم غير مطمئنين له تماما.. هم يدفعون ثمنا لشيء غير متأكدين من الحصول عليه، كما أن هناك نمودجا آخر في العالم الإسلامي لا شك في نجاحه وهو نموذج ماليزيا.. هنالك أيضا لا يلعب الدين دورا سياسيا بشكل مباشر لكنه أيضا لم يهمل من حياة الناس.

قال لطفي محذرا: نحن نتجرف بالحديث نحو السياسة وهي منزلق خطر في هذا الجزء من عالمنا، دعونا نتحدث عما ينتظرنا من عمل في الغد.



في الصباح اصطحبني مراد إلى شركة تركية تمتلك وتدير عدة سفن ناقلات وقود تعمل بين تركيا ورومانيا وبلغاريا مستخدمة البحر الأسود لنشاطها البحري. قمت بمراجعة وتقويم نظم السلامة بها طبقا

للقواعد الدولية. كان مراد يقوم بالترجمة حين الحاجة إليها و يتابع أيضا ما يدور بفرض التدريب ونقل الخبرة. كان أمينا ودمث الخلق بشكل مميز.

عند الظهر كان موعدي مع مالك ومدير الشركة حيث استعرض أمامي دوره في إدارة منظومة السلامة بشركته. مكتبه أنيق بما يدل على ذوق راق تصدرته صورة كبيرة للزعيم مصطفى كمال أتاتورك وبعض الحلبي الأصلية من عصر الدولة العثمانية كما أشار باعتزاز. في وقت الراحة دعاني مع الآخرين لغداء خفيف في مطعم مجاور لشركته حيث خرجنا من جو العمل إلى الحديث في أمور الحياة المعتادة.

سألني مبتسما: كيف الحال في مصر؟

أجبت: الحياة في مصر مثيرة كما كانت دائما سيد سليمان.

قال محددا دائرة اهتمامه: قصدت الناحية الاقتصادية

- الإحساس العام يثير الشعور بالتفاوت إذا تركنا لغة الأرقام جانبا، الحياة تمضى بالرغم من المعاناة.. نفس الشعور الذي ينتابني حين أسير في شوارع اسطنبول، بالرغم من نسبة التضخم الهائلة المعلن عنها هنا.

قال مراد وكان يجلس إلى جوارى: الاقتصاد هو المحرك الرئيسي لحياة الشعوب والقوة الدافعة لتقدمه مهما تغيرت السياسات وتلونت.

قال سليمان: هذا صحيح في الدول المتقدمة، لكن الدول المكافحة لا زالت تواجهها تحديات سياسية واجتماعية وأيضا عقائدية، تركيا تخطت هذه المرحلة بريادة مصطفى كمال أتاتورك وإن كان لا يزال أمامها ما تتجزه لتصبح في عداد الدول المتقدمة ولا أقصد هنا الاقتصاد فقط.

لاحظت ثقب ملاحظته وأعجبت بها فسمحت لنفسى بقدر أكبر من الصراحة قائلا: الرواد العظماء من أمثال أتاتورك يعبرون بشعوبهم جسور

التاريخ بشجاعتهم ونفاذ بصيرتهم لكنهم في الغالب لا ينظرون في التفاصيل، يتركون تداعيات التغيير الجسيم للأجيال التي تليهم.

قال سليمان بعد لحظات صمت ربما أراد أن يتأكد من مغزى عبارتي: خاصة هؤلاء الذين ينتظرون من شعوبهم أكثر مما يمكنهم فهمه أو يطبقون احتماله.

قلت: أرجو أن تعذرني للاسترسال في هذا النقاش، إنني أتصور الشعوب هي مجموع ما توارثوه من معارف وثقافات على مدى فترة بقائهم في موقع ما، تغيير الاتجاه ممكن وأحيانا ضروري دون الاعتراض على الهوية، في ظني أن تلك هي المعضلة التي واجهت زعيما مثل أتاتورك، ربما كانت المشكلة في نقص الفلاسفة في هذه المنطقة من العالم.

قال أحد الجالسين: لأننا لسنا بحاجة إلى الفلاسفة.. الإسلام أغنانا عنها.

قلت بعد هنيهة: كمسلمين نعم، لكننا نواجه أفكار الآخرين، إذن لأبد للفكر من تأدية دوره، الاعتقاد لا يحل محل الفكر. لو نظرنا إلى أوروبا - وهي الأقرب إلينا - لوجدنا لمفكرها وفلاسفتها دور الريادة حين خرجت من العصور الوسطى وقد فصلت الدين عن الدولة، لا يزال الفكر هو محرك الجهد الإنساني في الغرب إلى يومنا هذا سواء اتفقنا مع نمط من أنماطه أو اختلفنا.

قال سليمان وكان مصغيا باهتمام: هذا يبيننا الجهد الإنساني في العالم الإسلامي يحركه الاعتقاد في الأساس.

قلت مسترسلا في إيضاح مقصدي: تحققت بالإسلام في المائة عام الأولى من تاريخه انتصارات وفتوحات لازال المؤرخون عاجزين عن تحليل أسبابها وفهم تسارعها، حينئذ كانت المواجهة بين أناس آمنوا إيماننا مطلقا بواجبهم في تغيير العالم على أساس من رسالة السماء لا يعترضهم شك في اليقين بها، وأناس آخرين ضعفت معتقداتهم وهانت لأنهم خلطوا

بينها وبين أهوائهم. اليوم لا يفهم المسلمون كيف يؤدون دورهم كما أداء الأوائل ويظنون أنهم لو استخدموا نفس أساليب الحياة التي مضى عليها أربعة عشر قرناً يمكنهم أن يحققوا نفس النتائج. العالم تغير تماماً، أوروبا وأمريكا اليوم ليستا دولتا الفرس والرومان بالأمس، لا يمكن ترتيب الأفعال قبل ترتيب الأفكار.

قال سليمان: أظننى أفهم ما تعنيه، الجدل الدائر الآن حول ارتداء نائبة في البرلمان التركي للحجاب أمر غريب في نظري. لماذا الإصرار على ملاحقة المرأة في ردائها ولا يتابع المهتمون بنفس القدر إن كانت قد أدت الصلاة أو صامت رمضان، أيهما أحق بالمراقبة والنقد؟

قال مراد مندهشاً: هل تعنى أن ننشئ شرطة تتحقق من أداء الناس لفروض دينهم؟

استطرد سليمان: هذا بالضبط ما قصدته. نحن نسعى عن قصد أو بجهل لطمس قيمة الضمير، لا يمكن أن تتطلق قوى الإبداع في إنسان مكبل بالتهديد والمراقبة، حينئذ نحن نعاذى أنفسنا.. في السعودية يغلق البعض محل العمل وقت الصلاة لأن القانون يوجب ذلك بينما هو جالس في داخله منتظراً مرور الوقت حتى لا يطاله عقاب.

قلت محاولاً استدراك النقاش لنهاية يسهل الاتفاق عليها: خلاصة القول أن الطبيعة البشرية غالبية في جميع الأحوال، لا يمكن خداعها مهما تراءت لنا جدوى المحاولة.

قال مراد منبهاً: على ذكر ترتيب الأفعال علينا أن نعود لاستكمال العمل وإلا ضاق بنا الوقت، هذا حديث لا ينتهي أينما ابتدأ.



فى أثناء عودتى للفندق تراءت فى مخيلتى الصورة الشخصية الضخمة لمصطفى كمال أتاتورك التى تتدلى من خلف مكتب مدير الشركة ثم لا تنفك تصافحك صور أخرى لهذا الزعيم فى شتى الميادين. لقد حاول هذا الرجل من خلال سلسلة من الإصلاحات المحسوبة فى عشرينيا وثلاثينيا القرن العشرين أن يبتعد بشعبه بعيدا عن ماضيه العثمانى المسلم، كانت مبادئه الستة أو أسهمه الستة الشعبية والجمهورية والوطنية والعلمانية والحكومة والإصلاح مع رفض فكرة إمبراطورية متعددة الأجناس، مستهدفا شعبا متجانسا رافضا لوجود الأرمن واليونان ومن ثم خلع السلطان وأسس نظاما جمهوريا يحاكى الغرب فى سلطاته السياسية، حرم الخلافة مصدرا للسلطة الدينية وأنهى التعليم التقليدي القائم على أسس دينية وأسس بدلا منه نظاما تعليميا علمانيا، ألغى المحاكم الشرعية التى تحكم بالقوانين الإسلامية وأحل محلها نظاما قضائيا على أساس القانون المدني السويسري، استبدل بالتقويم التقليدي التقويم الميلادي الجريجورى، باختصار أنهى الإسلام كدين للدولة، حتى الطربوش ألغاه لأنه كان رمزا للعقيدة المتوارثة، بل عزل لغة القرآن وهى العربية عن اللغة التركية التى كانت تستخدم أبجديتها واستبدل بها الحروف اللاتينية؛ مما عزل الأجيال الحديثة عن كم هائل من الأدب التركي المكتوب بالحروف العربية، ثم تبعت ذلك إصلاحاته للاقتصاد التركي؛ لتماثل آلياته اقتصاد الغرب. بعد مضى تلك العقود من الزمن يبرز سؤال للم تأمل، هل استطاع أتاتورك فعلا أن يسلخ تركيا عن جلدها المسلم؟ ما تؤكده السنين أنه لم يفعل، فلا تزال الجذوة مشتعلة ولا زالت بقايا الماضي راسخة فى ضمير الأمة. هذا ولم تقبل أوروبا الدولة التركية الحديثة كإحدى دولها فضلا عن قبولها عضوا فى الاتحاد الأوروبي ولا أظنها ستفعل يوما ما.



فى المساء اصطحبني لطفي إلى منزله لتناول طعام العشاء مع أسرته المكونة من زوجته وطفله الصغير الذى ألححت فى شراء بعض الحلوى له فى طريقنا. الأطفال دائما يتطلعون لشيء ما مع أي زائر لبيتهم والحلوى أو الألعاب طريق مضمون لكسب ودهم.

قابلتنا زوجته بترحاب مألوف، كانت والدتها تزورهم فقدمتني إليها ثم أتى الطفل الصغير مهرولا يستكشف من هو القادم الجديد.

قالت زوجته وهى تنظر إلى والدتها بامتنان : أمى تعتنى بابتنا فترة غيابي فى العمل، ما أجمل أن تكون الأم قريبة من ابنتها أظننى محظوظة بها. أنا أيضا ابنتها الوحيدة.

قالت الأم فى تواضع طبيعى: هو أيضا حفيدي الوحيد وهو سبب البهجة فى حياتنا.

سألتنى زوجته : هل تعمل زوجتك أيضا؟

أجبتها: نعم عدا فترة رعاية الأطفال حينئذ تحصل على إجازة غير مدفوعة الأجر. لدينا ثلاثة أطفال، لزوجتي ولى أخوة عديدين، لذا يصعب انتظار العون من أمها أو أمى.. هما أحوج لعوننا فى تلك الحال.

قال لطفي: أظن معدل ازدياد السكان فى مصر أعلى من مثيله فى تركيا.

قلت مؤكدا: هذا صحيح وإن كان يتجه للانخفاض حاليا خاصة فى المدن وبين الأسر المتعلمة.. هذا من ضمن التحديات الحاضرة لمعظم الدول النامية.

تساءل لطفي: تقصد زيادة السكان أم توظيف جهدهم؟

كان قد تقدمني إلى حجرة الجلوس حيث جلسنا ننتظر الانتهاء من إعداد المائدة التى انشغلت بها سيدة البيت، أجبته قائلًا: لا شك أن التفوق يغلب العدد، فى عصرنا الحاضر العلم هو رائد التقدم، غلبة

أمريكا تكمن خاصة في العقول وجراحة البحث قبل أن تبرز في المال والقوة العسكرية. زيادة عدد السكان لا تطلب في حد ذاتها وإنما يقصد بها إضافة من يمكنه أن يحيا في العالم الذي أتى إليه.. المسألة ليست عويصة فكريا على الأقل.

صمت قليلا كأنما ينتظر منى الاستمرار في إيضاح مقصدي، فأضفت: خلال ربع قرن تحديدا من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٩٠ زاد تعداد العالم من البشر من ٣,٣ بليون إلى ٥,٣ بليون أي بليونين بمعدل زيادة سنوية ١,٨٥ ٪ في المجتمعات المسلمة كان معدل الزيادة في معظم الحالات أعلى من ٢ ٪، غالبا ما زاد عن ٢,٥ ٪، وفي بعض الأمثلة زاد عن ٣ ٪، المغرب مثلا زاد تعداده في تلك الفترة بمعدل ٢,٦٥ ٪، الجزائر ٣ ٪. مصر ٢,٣ ٪ من ٢٩,٤ مليون ثم ارتفع إلى ٥٢,٤ مليون مع بداية القرن العشرين ليتخطى حاجز السبعين مليوناً. يلح سؤال على العقل، لماذا يتناسب التقدم العلمي والاقتصادي عكسيا مع نسبة زيادة عدد السكان في بلد ما، ولماذا تحظى البلاد المسلمة بأعلى معدلات زيادة وهي في مؤخرة ركب الحضارة الحديثة؟

قال لطفي: للتخلف أسباب عدة.. الآن الصين تتقدم بسرعة مذهلة لتكون إحدى القوى العظمى بالرغم من وجود خمس سكان العالم على أرضها والهند تتبعها.

استطردت قائلاً: وكلاهما دولة غير مسلمة.

قال لطفي مؤكداً المفارقة: بالرغم أن الإسلام يحث على العمل ويعده من أسس حياة المسلم ويرفع من شأن عمل الجماعة المكون لنسيج الأمة.

قلت: إذا لم يتطور الفكر ليوائم مقتضيات العصر فقد الأساس لتنظيم الجهد.. أعتقد أن هذا لب الموضوع، فقدان المنطق في عالم يقوده العلم لا يفضى لغير التخلف.

على مائدة العشاء شاركتنا الزوجة الحوار متسائلة: إلى أي مدى تحررت المرأة في مصر؟

أجبتها: المرأة تتحرر بقدر ما يسمح مجتمعا وهي قاعدة تنطبق على كافة المجتمعات غربية كانت أو شرقية. لعلى أضيف أن حرية المرأة وحرية الرجل كل لا يتجزأ، هي في الحقيقة حرية الإنسان بمعناها الشامل. الرجل المتسلط في مجتمع ما هو في الحقيقة مسلوب الحرية بقدر سلبه لحرية الآخرين. إذا شئت إجابة بسيطة فالمرأة في مصر لها ما للرجل من حقوق سياسية وتعليمية وفرصة عمل إلى آخره، لكن ممارستها لتلك الحرية يخضع للعرف السائد وهو أحيانا أقوى من القانون. أظن في تركيا الأمر لا يختلف.

قالت: المجتمع التركي لم يعترض على تولى سيدة رئاسة الوزراء وهو منصب تنفيذي رفيع يمثل تركيا أمام العالم أجمع.. هل تظن ذلك ممكنا في مصر حيث الجدل لا يزال دائرا حول أهلية توليها منصب القاضي.

قلت: لاشك أن الرجال يسيطرون على المؤسسات السياسية في معظم البلاد بما يصعب على المرأة أن تظهر كفاءتها لبعض المناصب مثل الرجل، لكن هذا قابل للتطوير خاصة إذا برز من بين النساء من لا يمكن الجدل في كفاءتها حينئذ تنهوى المحاذير.. حدث ذلك في إندونيسيا وهي أكبر بلد مسلم في تعداد السكان حين تولت رئاسة الدولة امرأة وبطريقة ديموقراطية صحيحة.

أضفت بعد لحظات صمت وقد شعرت بعدم اقتناعها

. أعلم ما يمثلته مصطفى كمال أتاتورك من مكانة سامقة في نفوس الأتراك حتى أن هناك قانونا يجرم نقده ويعاقب بالسجن من يتحدث عنه بطريقة غير لائقة.

قال لطفي مؤكدا: هذا صحيح وهو مما تعترض عليه دول الاتحاد الأوروبي، فهو يتنافى من وجهة نظرهم مع حرية التعبير للفرد التي يقدسونها في دساتيرهم، لكننا نعتبر أتاتورك من رموزنا الوطنية الغير قابلة للنقد.

قلت موضحا: السبب في إشارتي لذلك هو نقاشنا حول حرية المرأة ومساواتها بالرجل. أدهشني التعتيم الذي فرضه الأتراك حول زوجة أتاتورك السابقة السيدة لطيفة أوساكي بعد طلاقها منه عام ١٩٢٥ مع تحميلها مسئولية فشل زواجها الذي لم يدم سوى عامين. قرأت مقالا في إحدى المجلات الغربية عن هذا الموضوع. كان السؤال المطروح لماذا لم يسمح الأتراك لأنفسهم أن يستمعوا لوجهة نظرها واكتفوا باتهامها بالقبح وفقدان الإرادة والرغبة في مشاركة الحياة مع زوجها البطل؟

قالت الأم ولم تكن قد شاركتنا النقاش حتى تلك اللحظة: يا بني الرجل هو الرجل منذ خلقه الله وحتى يوم القيامة، لا يمكنه الحياة بدون المرأة لكنه لا يطيقها إلى جواره، فما بالك لو سبقته في مكانتها.

قالت الزوجة ضاحكة: يا أمي الزمن يتغير، إذا كانت تركيا تسعى جادة لتصبح عضوا في الاتحاد الأوروبي فلا بد أن تعيد النظر في بعض ثوابتها.

قالت الأم بتلقائية صادقة: أخشى أن ذلك يعنى التنازل عن بعض مقومات شخصيتنا أو قوميتنا وهو مالا أقبله شخصيا حتى ولو كان ثمننا لتلك العضوية.

قال لطفي: لا يمكن الاندماج في كيان دون التضحية ببعض السمات الفردية. إذا كنا نسعى كي نصبح أوروبيين فعلينا أن نتجاوز ما يفرقنا عنهم... هي ضريبة باهظة لكن تفاديا غير ممكن.

اعترضت الأم قائلة: ونفقد حيناً لأبطالنا وتقديرنا لمقدساتنا.

رد لطفي: ليس بالضرورة، لكن علينا أن ننظر إليهم كبشر.

قلت: هذا يذكرني بكتاب شهير لتوماس كارلايل أحد الكتاب الإنجليز المشهورين اسمه "البطولة وعبادة الأبطال"، فيه يصور البطل كنوع منفرد من البشر يسوغ له مجتمعه ما يفعله لأنه يتميز عن الجميع بخصال فريدة يشق بها طريق المستقبل للارتقاء بمجتمعه سواء في السياسة أو العلوم أو الفنون. مع عبادة الأبطال يتفاضى الناس عن أخطائهم ليصبحوا مثلاً علياً للكمال تستدعى القداسة والتمجيد. كانت تلك نظرة كارلايل ورؤياه في القرن التاسع عشر، في القرن الواحد والعشرين لا يبدو لتلك النظرة كثير من المؤيدين خاصة في الغرب، وعلى من يتقدم لناديتهم أن ينظر نظرتهم.

قالت الأم وقد فهمت ما أرمى إليه: - يا بنى هذا لن يحدث لتركيا التى أعرفها، تركيا بلد مسلم وستظل كذلك، أوروبا لن تقبلها كدولة لهذا السبب بالإضافة إلى الماضي القريب.

قالت الزوجة: تخطت أوروبا كثيراً من خلافاتها وطوت صفحات الماضي، لا أرى حاجزاً بين الإسلام والديمقراطية والحرية كما يفهمها الغرب. الإسلام أيضاً يحرم تقديس الأشخاص مهما بلغوا من عظمة ومجد حتى الرسول محمد وصفه القرآن بأنه بشر يوحى إليه.

قال لطفي مؤكداً كلام زوجته من واقع ما يدور: سمحت السلطات التركية مؤخراً لصحفية تدعى "أبيك كاليبزالار" بنشر قصة حياة زوجة أتاتورك السيدة لطيفة أوزاكى حيث استقت معلوماتها من أصدقاء العائلة، رسمت لها صورة تختلف عن الصورة القبيحة المعلنة عنها من قبل.

كانت ابنة تاجر ثرى من إزمير درست القانون في أوروبا ولعبت دورا في تشكيل رؤية أتاتورك لتركيا الحديثة وهو غير ما رسخ في عقول الأتراك عنها. دافعت بقوة في سبيل مساواة المرأة بالرجل وإصدار القوانين اللازمة لحماية تلك المساواة في تركيا قبل أن يحدث ذلك في بلاد مثل فرنسا وسويسرا. كان أتاتورك فخورا بها طبقا لتلك الرواية حتى أنه اصطحبها في رحلاته داخل بلاد الأناضول وقد نزعَت عنها الحجاب كمثال للمرأة في تركيا الحديثة.

تساءلت بدافع الفضول: إذا كانت تلك القصة الحقيقية فلماذا إذن التعتيم عليها ولماذا أصدرت المحكمة أمرا بمنع نشر خطاباتها ومذكراتها وأن تحفظ في مؤسسة التاريخ التركي بأنقرة حتى عام ٢٠٠٥ كما قرأت في تلك المقالة؟

قال لطفي: في الحقيقة أسرتها أيضا رفضت السماح بنشر تلك المذكرات كي تحمى صورة الزعيم أتاتورك وتحفظ صورته في ذاكرة الأتراك.

أضافت الأم بابتسامة ذات مغزى: كان معروفا عن أتاتورك ميله للشرب مع أصدقائه المقربين، وكان لذلك أثره في حدوث الانفصال، كما أن الظهور المفاجئ لفكرية عشيقة أتاتورك السابقة أضاف المزيد من أسباب الشقاق.

قلت متحفزا: أميل لنظرة كارلايل نحو الأبطال، هذه الصفات قد تشوب حياتهم الخاصة ولا يجب أن تحد من إعجابنا بهم وبأعمالهم العظيمة في حياة أوطانهم.. هذا يؤكد أنهم في النهاية بشر.

أضافت الأم الحصيفة: نعم وأن الرجل سيظل حتى النهاية وفيها لطبيعته، في اعتقادي أن أتاتورك لم يكن قادرا على قبول المساواة مع زوجته التي حاول أن يستشهد بها على عصرية فكره فوقع أسيرا بين فكره المتحرر وطبيعته كرجل.

قالت الزوجة: هل هذا يعنى أن تلك المساواة مجرد زعم وأنها ضد طبيعة الأشياء؟

أجابتها الأم: الإنسان يحاول دائما أن يهذب من طبيعته، هو يفضل فقط حين يظن بنفسه المقدرة أن يغيرها، سيظل للرجل طبيعته وللمرأة طبيعتها كما خلقهما الله، المهم ألا يظلم أحدهما الآخر.

قلت مؤكدا: هنا يلتقى الإسلام بدوره السماوي مع ما تسنه الشرائع الوضعية إذا استلهمت مبادئ العدالة والحرية، حينئذ يقبل المسلمون على القرن الواحد والعشرين غير غريباء عن قيمه ومفاهيمه، هنالك تحفظ الشعوب تفردا وذاتيتها وتظل عضوا في المجتمع الدولي.

أضاف لطفي: إذن فطموح تركيا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي ليس سرا.

كنا قد انتهينا من تناول الطعام وانتقلنا إلى حجرة الاستقبال نحتسى الشاي وتبادل الأفكار نهضت الأم تلقى نظرة على حفيدها الذى استسلم للنعاس منذ فترة ثم استأذنت للانصراف رغم إلحاح ابنتها بالمبيت معهم. هنالك تقدم لطفي باقتراحه أن يصحبها لمنزلها لكنها شكرته قائلة: أعرف أنك ستصحب ضيفنا المصرى لجولة في اسطنبول.. أتمنى لكم ليلة سعيدة.

مكثت الزوجة بجوار طفلها بالبيت ومضيت مع لطفي في جولته الليلية بعد أن شكرت لسيدة البيت كرم ضيافتها.



انطلق لطفي بسيارته في ليل اسطنبول وأنا جالس إلى جواره يغمرني شعور بالأخوة والدفع بالرغم من برودة الجو الذي لم تتعد درجة حرارته الثلاثة فوق الصفر.

في مدينة اسطنبول تشعر بخطاك في ثيايا التاريخ، تنظر في طرقات طافت بها أجيال من البشر لأكثر من ألف عام. بيزنطة كان اسمها الأقدم، حين اختيرت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام ٣٩٥، ثم تغير اسمها بعد خمسة وستين عاما ليصبح القسطنطينية نسبة لمؤسسها الإمبراطور قسطنطين الذي تورخ به الإمبراطورية البيزنطية وهو الاسم الذي يطلقه المؤرخون على الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي عاشت لمدة تزيد عن الألف عام تحديدا حتى عام ١٤٥٣ حين غزاها العثمانيون بقيادة الملك محمد الثاني الملقب بمحمد الفاتح. حينئذ تغير اسمها من القسطنطينية إلى اسطنبول.

كان التغير الأعظم والأهم بتحول الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية هو التحول إلى العقيدة المسيحية على يد قسطنطين، ثم نشب الصراع بين المسلمين والمسيحيين في العصور الوسطى والذي تخللته الحملات الصليبية ثم انتهى بسقوط القسطنطينية في يد المسلمين بقيادة محمد الفاتح كما ذكر.

قال لطفي كأنه كان يقرأ في وجهي استرجاع التاريخ: أهم منطقة تاريخية في اسطنبول هي منطقة أوغسطين التي تقترب منها الآن، يؤسفني أننا مضطرون لتلك الزيارة ليلاً نظرا لضيق الوقت لكن على الأقل يمكنك التواجد في المكان والتشبع بخواطره.

أوقف لطفي السيارة بعد قليل ودعاني للنزول للسير على الأقدام حول المكان والاقتراب من مكوناته السابحة في خليط من ظلمة الليل وضوء القمر. قال موضحا وهو يشير بأصبعه إلى مسجد رائع البناء: هذا متحف

"آيه صوفيا" وهو أروع وأهم بناء في تركيا كلها، يعتبره البعض من عجائب الدنيا.

كان المشهد في الليل أخذاً وساحراً يستجمع في لحظة واحدة تاريخاً حافلاً يمتد قرونًا بعد قرون. كيف يمكن للوعي البشري أن يستوعب كل هذا الزمن بصراعاته وحروبه، بحضاراته وتقدمه، بموجات البشر التي تتابعت على هذا المكان بمختلف عقائدهم وثقافتهم، ثم لا يزال قائماً يشهد على عظمة الإنسان وعبقريته التي تغلبت على نزعاته وشروره وتخطت خلافاته حول العقيدة والدين والوطن.. أم أن هذا مجرد حلم؟

قلت وقد تذكرت وصف لطفي لهذا البناء: - سمعتك تصفه كمتحف، هو يبدو لي مسجداً ضخماً البناء.. أذكر أنه كان كنيسة من قبل؟

أجابني ونظره مثبت هائم في المكان: بدأ البناء في آيه صوفيا في عصر الدولة البيزنطية عام ٥٣٢ على أنقاض بناء قديم واكتمل بعد خمس سنوات كنيسة للعبادة عام ٥٣٧، قطره يزيد عن الثلاثين متراً وارتفاعه يتخطى الخمسين متراً وقد تعرض لزلزال عام ٥٥٧ ثم أعيد بناؤه، كان مزيجاً من العمارة الرومانية الفخمة والبناء التقليدي البيزنطي للكنائس. ظل يستعمل كنيسة للعبادة حتى سقطت الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣، ثم تحول إلى مسجد بعد غزو العثمانيين للمدينة وإدخال التعديلات اللازمة على عمارته الخارجية ليبدو مسجداً، ظل كذلك لمدة خمسة قرون، وتحديدًا في عام ١٩٢٥ أصدر أتاتورك قراراً بجعله متحفاً قومياً لتركيا وظل كذلك حتى تلك اللحظة.

- لكنه ظل محتفظاً باسمه أو على الأقل معروفاً في كتب التاريخ بهذا الاسم سواء كان كنيسة أو مسجداً أو متحفاً في آخر المطاف.

- نعم، آيه صوفيا اسم جميل وهو يعنى الحكمة المقدسة أحد الأسماء التي أطلقها المتدينون في القرن الرابع الميلادي على السيد المسيح.

قلت كأنني أخطب نفسي: بناء تتبادل فيه عبادة الله أكبر ديانتين سماويتين على وجه الأرض كل تلك القرون؛ لابد أن يمثل قيمة فريدة ورمزا هاما للبشرية جمعاء.

قال لطفي منبها يا صديقي، هذا التبادل حدث بالغزو والحروب ولم يحدث بالرضا والتآلف، حزن المسيحيون حزنا شديدا والبعض لا يزال - لفقدان "آيه صوفيا". أظن قرار أتاتورك جعله متحفا كان قرارا حكيما. لا تنس أنها كانت أكبر وأضخم كنيسة في العالم المسيحي أجمع لمدة ألف عام.

توجهنا إلى مكان لا يبعد كثيرا من حيث توقفنا نتأمل مشهد "آيه صوفيا" وأشار لطفي إلى مشهد آخر خلاص لا يقل روعة وجمالا، مسجد برزت من محيطه ست مآذن واعتلت سقفه القباب من مختلف الأحجام في نسق هندسي بديع. قال رفيقي موضحا

- هذا ما يطلق عليه المسجد الأزرق، سوف يدهشك ندرة الزرقة في محيطه الخارجي ليسمى تلك التسمية، وإنما الزرقة تنتشر في زخارفه الداخلية، للأسف الوقت متأخر لمشاهدتها، هذا المسجد بناه السلطان أحمد في القرن السابع عشر ولا يزال يفص بالمصلين حتى يومنا هذا.

- مشاهدة كل تلك المساجد في أرجاء المدينة وسماع صوت المؤذن ينادي على الصلاة في ميقاتها يمحو أي شك يراود الزائر في أن الإسلام يحيا في أعماق الشخصية التركية مهما أثير حول علمانية الدولة والتحول نحو الغرب.

سكت لطفي لحظات وكنا نتجه نحو سيارته نحتمي من برودة الليل.. ثم قال: أدخلت تركيا النظام العلماني في دستورها عام ١٩٣٧ ولا زالت الدولة المسلمة الوحيدة حتى هذا اليوم التي أقرت ذلك في دستورها من بين ستة وأربعين دولة إسلامية، أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي. تركيا أيضا كانت الزعيم الأوحد للعالم الإسلامي من القرن السادس

عشر حتى الربع الثاني من القرن العشرين. كان الأتراك المحاربين المدافعين عن الإسلام دون غيرهم من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر. التحول الذي أبدعه أتاتورك بتأسيس جمهورية تركيا الحديثة لم يكن عبثاً أو وليد اللحظة وإنما كان تحولاً عبقرياً في لحظة نادرة من حياة الشعب التركي.

قلت مذكراً بنظرية كارلايل: يأتي البطل في لحظة قدرية من تاريخ أمته يعرف ما تمليه ويقدر عليه، لهذا لا تقارن قيمته التاريخية بقيمة سواء ويعتلى منزلة تكاد تكون مقدسة.

استمر لطفي يقول: هل تظن أن أتاتورك كان قادراً على إحداث هذا التحول لولا أن ضمير الأتراك يسمح به؟ لو أن هذا التحول ضد ماضي تركيا المسلم العريق ما أمكن حدوثه، هذا ما أردت قوله، إنما كان سبيلنا الوحيد للعبور إلى الحاضر والاستعداد للمستقبل بما هو ضروري من معطيات، ربما أصبحنا نموذجاً يحتذى لغيرنا من الشعوب المسلمة.

- لكن المرء لا يمكنه أن يقاوم تساؤلاً ملحاً، لماذا لم تقتد بهذا النموذج دولة مسلمة أخرى على الرغم من مضي ما يزيد عن ستين عاماً على تطبيقه في تركيا.

أجاب لطفي وكأنه كان يترقب سؤالي: في الحقيقة هم يفعلون دون أن يصرحوا أو يصارحوا بذلك، ولكن بدرجات متفاوتة.

- هل تعنى أن دولاً مثل إيران والسعودية والسودان تطبق العلمانية بالرغم من صراحة دساتيرهم في تأصيل الشريعة الإسلامية.

- أظن أنه لا أحد يختلف على أن الاقتصاد هو القوة المحركة للسياسة والاجتماع في هذا العصر الذي نعيشه، وفي عالم تنصدره الأيديولوجية الرأسمالية تسيطر على حاضرة وتخطط لمستقبله، يقوم الاقتصاد على منطق الأسواق المفتوحة والعرض والطلب.

سكت لحظات ربما يمهلني وقتا لاستيعاب منطقه، أضاف من ثم
موضحا فكرته

- في السعودية وإيران أكبر الاحتياطات البترولية المؤكدة، البترول
في كلتا الدولتين هو عصب الاقتصاد، بالرغم من ذلك لا تملك أيا منهما
أن تفرض عملتها أساسا لتسعييره أو التعامل الدولى بها، لا أحدثك عن أن
كل صناعة هذا الخام بدءا من استكشاف حقوله واستخراجه حتى
تتميته ومعالجته ونقله واستخلاص منتجاته.. كلها تتم بتقنية غربية
محضة، وحتى العائد منه يتم التعامل به من خلال المنظومة المالية
العالمية.. ألا يرى أي ناقد في ذلك صورة علمانية؟ أين وجه الإسلام
وشريعته في هذا النمط من المعاملات؟
- هذه وجهة نظر جديرة بالمناقشة.

- مبادئ الشريعة الإسلامية من جهة أخرى تقوم على الحق والعدل
والمساواة، هل كفلت نظم الحكم في الدول الإسلامية تطبيق تلك
المبادئ فانعدم الظلم والقهر والفقر؟ هل نظم التقاضي فيها تضمن
وصول الحق لصاحبه بالسرعة المقبولة؟ هل يتساوى الجميع أمام القانون
فعلا؟ هل ترى أن توزيع الثروات يتم بروح الإسلام؟ فقط قارن بين إجابتك
على تلك الأسئلة بإجابتك عليها وأنت تنظر إلى أوروبا الغربية، لماذا تجد
مسلمين بلا إسلام هناك - كما أذكر قول الإمام الفاضل محمد عبده -
وإسلاما بلا مسلمين هنا؟

قلت محاولا التعبير عما فهمته من حديثه: في رأيك أن هناك أزمة
فكر في العالم الإسلامي وإلا ما اصطدم المسلمون بمتغيرات العصر
المتلاحقة.. هذا طبيعي، فالفكر لا يزدهر في أجواء التزمّت والجمود،
كما أن السياسة لا يمكنها أن تقوم بدور الفكر مهما نشطت.

استأنف لطفني حديثه قائلا: يا صديقي هل اختزل الإسلام هذا
الدين العظيم إلى حجاب المرأة وقطع يد السارق وجلد الزانى؟ لماذا يفزع

المسلمون من حمل دينهم عبر العصور ودعمه بالفكر الحر طالما أن مبادئه السامية قائمة؟ من المفارقة أن هذا هو الطريق الوحيد لضخ دماء جديدة في شرايينه لضمان صحته. لقد قفز أتاتورك نحو تلك اللحظة الثمينة من قدر أمته كما تقول ما تطلب شجاعة فائقة بينما شعوب من حولنا تقتصر لمن يمتلك البصيرة ما يصحح به الأبصار لترى ما حولها من واقع.. يا أخى لقد قال الرسول الكريم محمد أنتم أدرى بشئون دنياكم، كما أنه لا يوجد في الإسلام كهنوت أو صكوك إلهية تعطى إنسانا كائناً من كان حق إذعان الآخرين إليه، ألم يؤكد القرآن أنه لا إكراه في الدين لم إذن نكره بعضنا بعضاً ونحاول إكراه الآخرين؟

قلت متعاطفاً مع حماسه: إذا كنا نكره أنفسنا على قبول ما هو غير منطقي خوفاً وفزعاً من التغيير فماذا نتظر؟

كنا قد وصلنا أمام الفندق الذى أقيم فيه وقد اقترب الليل من منتصفه، صافحته شاكراً كرم ضيافته وحصافة حديثه ولوحت له وهو يغيب بسيارته في جوف الليل ومنعطفات الطريق.

لم أشعر بالرغبة الشديدة في النوم وشاطئ البحر يتراءى لى على مدى البصر فحملتني قدماي دون تفكير نحوه راغباً في التريض إلى جواره وقد اكتظ عقلي بحوارات اليوم.

كان لابد أن أبحث عن سكينة للنفس إلى جوار المؤلف وليس أقرب إلى ألفة النفس من جوار البحر.



مضى اليوم التالى بشكل روتيني، علمت من مراد أن رحلتنا المخططة إلى إزمير قد تأجلت إلى وقت لاحق فترتب على هذا التأجيل اختصار زمن تواجدي في تركيا وتقديم موعد عودتي إلى مصر إلى مساء يوم الغد.



فى الغد ذهبت إلى مكتبنا فى اسطانبول حيث قابلت مديره السيد رفعت الذى أصر على دعوتى للغداء قبل أن يقلنى إلى المطار. كانت المرة الأولى التى أقابله لكن دماثة خلقه ودفء مشاعره لم تختلف عن زميلينا الآخرين، بالرغم من نحولة الجسد وقصر القامة إلا أن الروح التى وهب تشع فىمن حوله الطمأنينة وتخطب فى عالمه جانب الخير والسلام، كان فى بداية الخمسينات من عمره.. بدأ حديثه باعتذار لا موجب له قائلا: كان من واجبى استقبالك فى المطار لكننى اضطررت للسفر إلى إزمير فى رحلة عمل طارئة، عدت مساء أمس فقط.

أجبتة: لم يكن هذا ضروريا فقد قام لطفي ومراد بواجب الضيافة كأروع ما يكون، يسعدني أنى تمكنت من مقابلتك اليوم.

- كان ترتيبنا أن تسافر إلى إزمير اليوم لتغطية الأعمال المطلوبة هناك ثم العودة إلى اسطانبول، لكن عميلنا فى إزمير طلب تأجيل البرنامج، لهذا سنراك مجددا فى تركيا.

- فى عملنا يحدث هذا التغير السريع فى خطط العمل وقد ألفت ذلك على كل حال.

- إذن دعني أصحبك فى جولة سريعة بين شوارع اسطانبول التجارية كي تكون بعض الانطباع عن الأتراك فى العصر الحاضر بعد أن تولى لطفي جانب الماضي ليلة أمس.. بعد ذلك نذهب للغداء.

- فى الحقيقة تاريخ أناضوليا حافل ومجيد ويدعو للفخر، هو بصفة خاصة مثير للخيال والتأمل معا. أما حاضرها فهو أفضل وأكثر وعدا من كثير من الدول حولها.

قال رفعت بتواضع: يا صديقي لا شئ يحقق للإنسان تقدما حقيقيا فى حياته سوى العمل الجاد الدؤوب، وكذلك الأمم إذا اعتقد أهلها فى عمل الفريق الواحد.. هذا ما يجب أن نسعى إليه بإصرار فى تركيا أو غيرها من الشعوب.

كانت شوارع اسطانبول مزدحمة بالسيارات والمارة شأن المدن الكبيرة خاصة حين اخترقنا التجمعات التجارية في مركزها بما فيها من محلات الشراء الضخمة على النمط الأوروبي. لم يكن هنالك وقت للاختلاط بالناس فاكثفت باستيعاب البصر.. كم تمنيت لو مضيت سائرا أتصفح الوجوه وأقرأ فيها حركة الحياة.

تخير رفعت مطعمها للأسماك يطل على مضيق البوسفور بعد أن تأكد من قبولي للأسماك غذاء. جلسنا إلى جوار النافذة نشهد قوافل السفن الآتية من البحر الأسود عابرة المضيق إلى بحر مرمرية ثم بحر ايجه إلى البحر المتوسط، بدون هذا المضيق يختق متنفس الدولة الروسية إلى البحر المتوسط حين أبدت تلك الملاحظة لمضيقي ابتسم وقال: - لهذا كانت المعاهدات الدولية التي تضمن عبور سفنهم للمضيق فلا شئ يقفز إلى الخطر أسرع من اليأس.

كان المشهد معبرا وإحدى ناقلات البترول تنهادر مقتربة حيث أمكنني التقاط صورة لها.. قلت: لو يعلم الإنسان كم يمكنه أن يجنى من السلم والتعاون مع الآخرين ما اتخذ من العدوان والتنازع ثم الحرب وسيلة إشباع لغرائزه الدنيا.

تساءل في تواضع: ويصبح العالم مثاليا جاليا من الشرور؟ هذا أكبر من حلم.

قلت ملازحا: نعم كمهندسين لا نمارس براعتنا إلا في أرض الواقع.
- لطالما شكل هذا المضيق أهمية استراتيجية قصوى للدولة الروسية، مثل فريد لتأثير الجغرافيا في السياسة.

- في مصر ننظر لبلدنا كأنها مركز العالم حيث جعلها وضعها الجغرافي في قلب الشرق الأوسط ومع شق قناة السويس زادت أهميتها الجغرافية لتجارة العالم واتصالاته البحرية فأضافت سببا آخر لأطماع الدول والإمبراطوريات للاستيلاء عليها أو على الأقل التحكم فيها.. هنا

أيضا تشعر بخطورة الوضع الجغرافى وثقله فى حسابات السياسة، لكن هل سيستمر ذلك مع التقدم التقنى الهائل فى وسائل النقل والاتصال؟

قال رفعت: لكل موقع جغرافى أهمية ما على مر التاريخ وإن كنت أظن أن التكنولوجيا الحديثة تؤثر فى ذلك وسوف يزداد هذا الأثر مع التقدم السريع كما قلت.

- نعم الأهمية فى عصرنا أصبحت لا تؤسس على القيم سواء أخلاقيا أو جغرافيا.. الأهمية المطلقة ارتبطت بالقوة المطلقة عسكرية كانت أو اقتصادية دون النظر إلى كيفية الحصول عليها أو غاية استخدامها، المهم كيف تتميها ثم تطلقها تتسلط وتسيطر دون وازع من أخلاق أو رادع من دين

- لا يجب أن نياس فالصراع لا يزال دائرا بين الخير والشر إلى يوم الدين.

تناولنا غداً ثم اصطحبني رفعت إلى المطار وقد اقترب موعد سفري إلى القاهرة. أمام بوابة المغادرة صافحني بحرارة واحتضنني بأخوة مودعا

- الوقت كان قصيرا لكننا عوضناه بصدق الحديث.. ننتظرك قريبا لننجز ما بقى من عمل فى إزمير.

قلت له: أرجو أن أراك فى مصر فى القريب كي أرد قليلا من كرم ضيافتكم.

نظرت من نافذة الطائرة وهى تحلق فى أجواء اسطانبول، كلما ارتفعت الطائرة تلاشت ملامح البشر فى أوصاف المكان، ولكن بدون المكان لا يمكن تمييز الإنسان!



خلال جلسات المناقشة



مع مالك ومدير الشركة التركي



مع الأصدقاء



على مضيف البوسفور

الولايات المتحدة المكسيكية

لم يخطر ببالي مطلقا أن أقفز هذه القفزة الهائلة نحو الغرب عابرا المحيط الأطلنطي إلى قارة أمريكا الشمالية بسبب العمل، من ناحية كانت الأعمال التي انشغلت بها مركزة في محيط الشرق ومن ناحية أخرى كنت في هذا الوقت أشرف على مشروع هام لاستخراج الغاز الطبيعي من أعماق البحر المتوسط في مصر. فجأة وصلتني رسالة عاجلة من مكتبنا الرئيسى بألمانيا يطلبون منى الاستعداد للسفر إلى المكسيك في غضون أسبوع للمشاركة في أعمال تقويم الأداء البيئى لمصانع الغاز هناك طبقا لمنظومة الأيزو العالمية. كان المبرر لاختياري لتلك المهمة معرفتى السابقة بمشاريع إنتاج الغاز والمؤهلات الخاصة التى حصلت عليها مؤخرا في تقويم نظم إدارة البيئة. في الحقيقة كان الأمر مثيرا من كافة جوانبه، من ناحية أشعرنى الاختيار لهذه المهمة بالفخر ومن ناحية أخرى الشوق لرؤية ما يدور في هذا الجانب البعيد من دنيانا والنظر في عيون أهله.

في هذا الوقت لم تكن أحداث الحادى عشر من سبتمبر الشهيرة قد وقعت فكان العالم مختلفا على الأقل حين ينظر إلى القادمين من منطقتنا، فحصلت على تأشيرة دخول المكسيك في نفس اليوم الذى تقدمت بطلبها وسعدت يومها بمقابلة القنصل المكسيكى في مكتبه بالمعادي في القاهرة حيث استضافتني وانشغل بالحديث معى فترة ليست بالقصيرة، لم يكن لديه الكثير من الزائرين فى هذا اليوم على كل حال.

اختلفت الأمور بعد ذلك لأن أمريكا فرضت على الدول المجاورة لها وهى كندا والمكسيك أن تطبق إجراءات أكثر صرامة ودقة لمن يريد دخول أراضيها خشية أن يتسلل إلى الولايات المتحدة برا من لا ترغب في

تواجههم على أرضها ، ومن المعروف سهولة عبور المكسيك نحو الأراضي الأمريكية فيما قبل الحدث الجلل.

تم ترتيب رحلة الذهاب من القاهرة إلى مكسيكو سيتي عاصمة المكسيك مع توقف قصير في باريس حيث ألتقى مع زميلي "فينكل" القادم من هامبورج في ألمانيا ، والذي سيقود فريق العمل. كان اتفاقنا أن نستقل نفس الطائرة التى تقلع من مطار شارل ديغول حوالى التاسعة مساء متجهة مباشرة إلى مكسيكو سيتي لتصلها بعد حوالى إحدى عشرة ساعة.

وصلت مبكرا عن فينكل حوالى ساعة قضيتها في التجوال بين المحلات داخل الدائرة الجمركية حتى لمحت معرضا شاسعا لبيع الكتب فتوجهت نحوه ، هنالك يمكن للوقت أن يمضى دون أن تشعر به.

وصلت الطائرة المقلّة لفينكل من هامبورج ، قابلته في المكان المتفق عليه ثم توجهنا إلى استراحة رجال الأعمال لقضاء الوقت المتبقى حتى النداء على رحلتنا إلى المكسيك.

لم تكن المرة الأولى التى أقابل فيها فينكل لأنه أتى إلى مصر مرتين من قبل حيث شاركنى بعض الأعمال. شاب في بداية الثلاثينيات من عمره طويل القامة حسن المظهر يتميز بتفانيه في العمل مع مزاج سلس يسهل الاندماج معه لتكوين فريق نشط وقوى ، كما أنه يلعب الشطرنج ، لعبتى المفضلة.

لا شك أن تواجدا معا لأداء تلك المهمة الشائكة كان قرارا صائبا من الإدارة يهيئ لنجاحنا ويمنحنا متعة في تحقيقها. أخبرنى فينكل أن بقية أعضاء الفريق سيلحقون بنا في مكسيكو سيتي ، منهم من سيأتى من البرازيل ومن بيرو وبعضهم من المكسيك ، سوف نناقش برنامج العمل هناك بعد الاطلاع على آخر التفاصيل.

وصلنا النداء على طائرتنا خلال مكبرات الصوت ولوحة البيان فتوجهنا إلى بوابة السفر المحددة. هنالك استوقفنا الموظف المسئول بعد أن دقق في بطاقة الصعود وطلب منا الانتظار بالرغم أنه سمح للذين اصطفوا من خلفنا بركوب الطائرة.. نظرت إلى فينكل متسائلا فأجابتنى عيناه بعدم العلم بسبب هذا التصرف الغريب، انتظر كلانا على مضض والحيرة تلاحقنا. بعد أن تأكد الموظف من دخول آخر راكب إلى الطائرة رأيناه يمزق بطاقتي الركوب الخاصتين بنا ويقدم لكل منا بطاقة جديدة وهو يقول مبتسما

- أرجو أن تقبلا الركوب في الدرجة الأولى بدلا من درجة رجال الأعمال كتحية من شركتنا لكما.

شكرناه ونحن نتنفس الصعداء وأسرعنا بالركوب غير مصدقين لأن الفرق في السعر بين الدرجتين هائل وهو ينعكس بالطبع على مستوى الراحة والخدمة خلال ما يزيد عن إحدى عشرة ساعة من الطيران المتواصل، وكان حقا كذلك، المقعد كبير ومريح يحتل مساحة ملحوظة يتحول إلى سرير للنوم حين الحاجة لذلك. يوجد في الجزء الخاص بالدرجة الأولى - في مقدم الطائرة - اثنا عشر كرسيًا فقط لم يكن مشغولا منهم في رحلتنا سوى النصف، تقوم على الخدمة طوال الرحلة لشاغلي هذه الدرجة مضيفتان استقبلتا إحداهما بترحاب يسبقه ذكر الاسم ثم اصطحاب إلى المقعد المخصص وسؤال عما تفضله من مرطبات قبل إقلاع الطائرة.. جلسنا متجاورين وإحساس بالغبطة يغمرنا. أسلمت نفسي لما يأتي به الغيب دون مقاومة. كنت قد اشتريت كتيبا عن المكسيك من محل الكتب في المطار أخذت أتصفحه على مهل والطائرة تأخذ أهبتها للإقلاع.

مساحة المكسيك ضعف مساحة مصر تقريبا. أي حوالي ٢ مليون كيلو متر مربع، عدد سكانها يبلغ مائة وسبعين مليون نسمة (حسب إحصاء عام ٢٠٠٥) عاصمتها مكسيكو سيتي، ليس لها لغة رسمية على

المستوى الفيدرالى لكن الإسبانية هى اللغة الشائعة فى واقع الحال. استقلت المكسيك عن أسبانيا عام ١٨١٠ بعد ثلاثة قرون من رزوحها تحت الحكم الأسبانى، لكن الاعتراف بهذا الاستقلال لم يتم حتى عام ١٨٢١. يجب الإشارة إلى أن المكسيك فى الحقيقة هى إحدى الولايات المتحدة المكسيكية لكن العالم درج على إطلاق اسم المكسيك على هذه الدولة بأكملها. يدين ٨٩٪ من المكسيكيين بالديانة المسيحية، النحلة الكاثوليكية وتعتبر أكبر دولة كاثوليكية من حيث عدد السكان بعد البرازيل، إذا أضفنا ٦٪ من تعداد السكان يدينون بالمسيحية نحلة البروتستانت لأصبح ٩٥٪ من المكسيكيين يتخذون من المسيحية ديانة لهم، الخمسة فى المائة الباقية يدينون بديانات مختلفة أو ليس لهم دين. اليهود على سبيل المثال موجودون منذ عدة قرون ولكن عددهم لا يزيد عن ستين ألفا بينما الإسلام ينحصر كديانة فى العرب والأتراك وقليل جدا من السكان الأصليين. هنا قفز سؤال إلى رأسى لماذا لم ينتشر الإسلام فى هذا المكان من العالم كما انتشر فى ربوع آسيا وأفريقيا وجزء لا يستهان به من أوروبا؟ كان الجواب جليا فى ذهنى.. أن المسلمين لم تتوفر لهم وسائل الانتقال إلى هذا الجزء من العالم كما توفرت للأجزاء الأخرى. حين اكتشفت الأمريكتان لم يكن لدى المسلمين سفنا تنقلهم عبر المحيط الأطلنطى إلى قارتى أمريكا. والأهم من ذلك لم يكن لديهم الاستعداد للاستكشاف والمغامرة مثل الأوائل الذين اعتبروا من واجبهم نشر دين الله فى كل بقاع الأرض وتوفرت لهم الوسائل خاصة فى البر.

إذن فالوسيلة هامة وضرورية وهو ما يعنى أهمية التكنولوجيا وارتباطها بنقل الأفكار والفلسفات والمعتقدات والأديان. من ثم تتأكد أهمية العلم والبحث فيما يضيف لرصيد الإنسان من الاكتشافات ويفتح له آفاقا جديدة من التطور.

لماذا شكل الكاثوليك ٨٩٪ من السكان في المكسيك؟ لأن الذين نزحوا لهذا الجزء من العالم كانوا من الأسبان الذين يدينون بهذه النحلة من المسيحية.

هذا يشير أيضا إلى حقيقة هامة وهي أن الوسائل جزء من الغايات لا يمكن الفصل بينهما لأن الواقع لا يتحقق بدونهما معا.

أعادنى إلى واقعى بدء تقديم الطعام بطقوسه الممتدة على مدار ساعتين حتى انتصف الليل بتوقيت مصر.. حينئذ لم يكن بد من الاستسلام للنوم.

بعد ما يقرب من إثنا عشرة ساعة من بدء الإقلاع حطت الطائرة في مطار "مكسيكو سيتي" على بعد اثنا عشر ألف كيلو مترا من مصر، التوقيت المحلى في المكسيك يشير إلى الحادية عشرة مساء، بدأت أشعر باضطراب الساعة البيولوجية.. الآن اعتدت أن أستيقظ من نومى في مصر.. هنا يقترب الليل من المنتصف.

بعد وصولنا إلى الفندق الرائع "ميليا" في عاصمة المكسيك جلست على السرير في غرفتى والحيرة تحيط بوعى هل أنهض لبدء عمل اليوم أم أنام؟ تذكرت أن اليوم هو السبت بداية عطلة الأسبوع حيث تعطل الشركات والمصالح في المكسيك.. إذن فسيان نمت أو استيقظت.. حتى يدرك الجسد الفرق بينهما بعد حين.

فى ظهيرة اليوم وصل "فابيو" العضو الثالث في الفريق - من البرازيل مصطحبا زوجته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه ثم تعود "لساوباولو" مع بداية الأسبوع.

فى لحظات قليلة اختفت أية حواجز شخصية بيننا وذهبنا جميعا لنزهة في أحد القوارب الصغيرة عابرين ما لا يحصى من الجداول والأنهار التى تتخلل الأدغال حول المدينة. كانت القوارب منتشرة على صفحة الماء تلاحق بعضها بعضا رائحة غادية، جو المرح والمتعة يسود المكان،

الحرارة في العشرينات، الشمس تقبل على المغيب، كأن الطبيعة تشهدنا ما يمكنها أن تقدمه من جمال وروعة إذا صفت نفوسنا للإحساس بها، الرغبة في المرح تشكل جزءا هاما من إمكان الحصول عليه. كان فاييو يحيط كتنفى زوجته بذراعها في مودة مبتسما للعابرين من جوارنا محاولين استباق قاربنا نحو المقدمة.

قلت معبرا عن انفعالي بالطبيعة الخلابة مع قليل من المزاح: مع هذا الجمال الفاتن من حولنا أي تقويم بيئي مطلوب؟

أجاب فاييو بقليل من الجد: هذه لحظات الطبيعة الراضية، منذ أيام قليلة أبدت بعض لحظاتها الغاضبة، واجهت بعض مدن المكسيك خاصة على ساحل خليج المكسيك فيضانا هائلا وأمطارا غزيرة هدمت الطرق وأغرقت كثيرا من المباني.

قال فينكل: كنا نخشى أن يتسبب ذلك في تأجيل برنامجنا، لكن مكتبنا في مكسيكو سيتي أكد إمكانية التنفيذ ربما مع بعض المتاعب في الانتقال من مكان لآخر بسبب انهيار الطرق.

تساءلت في فضول: أليس العمل مركزا في العاصمة؟

أجاب فينكل: هناك ستة أماكن موزعة في مدن مختلفة ليس من بينها العاصمة، اضطررنا للحضور إلى مكسيكو سيتي لأنها مركز الانتقال لأي مكان آخر في المكسيك عن طريق مطارها.. كل الرحلات الداخلية تبدأ منه وتصب فيه.

سألت "ريتا" زوجة "فاييو": هل هي زيارتك الأولى للمكسيك؟

أجابتي: نعم، قررت أن أصحب فاييو هذه المرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بها، كنت أرجو أن أزور كل الأماكن التي ستذهبون إليها لكن لدى عمل في "ساوبالو". لست كثيرة الأسفار مثله وإن كنت أود أن أزور لبنان موطن عائلتي.

سألتها مفاجئاً: أنت إذن من أصل عربي؟

أجابتني: نعم، والدي هاجر من لبنان إلى البرازيل منذ عدة عقود حيث استقر وأسس أسرته، لكنني لا أعرف من العربية الكثير، هناك بالمناسبة عدد ملحوظ من اللبنانيين يقطنون في المدن الكبيرة مثل "ساو باولو"... هل زرت البرازيل من قبل؟

قلت: لم يحدث وإن كنت أتمنى ذلك، لكنني زرت لبنان مرة قبل أن تشتعل الفتنة الطائفية فيه.

قال فاييو: دمرت الحرب الأهلية هذا البلد الجميل.. لكن أهله سوف يعيدون بناءه.

قال فينكل: كم يكون الإنسان أحمق حين يقتل جاره أو يدمر بيته لأنه يخالفه العقيدة، الدين الذي يدفع معتقه للقتل والتخريب لا يستحق أن يتبع.

قلت: لا يوجد دين يحث أتباعه على القتل والتخريب، يحثهم على ذلك الجهل أو الجشع أو الغرور، لا يختلف ذلك إن حدث في أيرلندا أو الهند أو الشرق الأوسط.

قال فينكل: لا أدري لم اخترع الإنسان الأديان، لا أظنه في حاجة إليها، في ألمانيا لا نعبأ كثيراً بما يعتقد الآخرونعتبره شأنا خاصا، بهذا الشكل تجنبنا كثيراً من النزاع الذي لا يعنى شيئاً، أظن الحال كذلك في معظم دول أوروبا الغربية، لهذا تتطور حياتنا وتتقدم نحو الأفضل ونتمتع بالرفاهية.

قال "فاييو: أظن أساس الحضارة الغربية الحديثة أعمق من أن يكون مجرد تجاهل الأديان والعقائد، وإن كان ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى له علاقة وثيقة بالصراعات الدينية، مما أوقع الأوروبيين بضرورة فصل الدين عن الدولة ومن ثم كف يد الكنيسة عن التدخل المباشر في حياة الناس.. علينا أن نلاحظ ما أشار إليه صديقنا

المصرى أن السبب في الحقيقة يرجع إلى استغلال النفوذ وحب السيطرة والجهل بالأشياء. لا يجب أن ننسى أيضا أن التقدم العلمى ساعد على هدم المعتقدات الدينية في تلك الآونة حين أثبت كروية الأرض ودورانها حول الشمس وأنها لا تمثل مركز الكون بل مجرد كوكب صغير يسبح في الفضاء بين مئات الآلاف من الكواكب والنجوم، الإنسان في الواقع ليس مركز الكون.

قال فينكل متشبثا بفكرته: الدين هو نتاج الضعف والجهل البشريين، كلما سيطر الإنسان على الطبيعة كلما قلت حاجته له، حتى الأخلاق يمكن سطرها في الدساتير والقوانين التي تنظم العلاقات والمعاملات بين الناس. هذا لا يعنى بالمناسبة عدم الإيمان بوجود الخالق فتلك مسألة أخرى تخضع لرؤية كل شخص حسبما تهديه ثقافته وقناعاته الذاتية.

كان واضحا تباين الآراء في تلك المسألة فآثرت العودة بالحديث إلى ما لا خلاف عليه مع وصول القارب إلى نهاية رحلته عائدا من حيث بدأنا، قلت متابعاً اقتراب الشمس نحو غروبها في جلال وروعة

— لن يلهينا الحديث عن النظر لتلك الصورة الرائعة والمهيبة في السماء، تتكرر كل يوم دون أن يمل الإنسان النظر إليها حتى تتواري مخلفة الظلمة، ثم ينتظرها ليتطلع إليها من جديد، لا يبلى حسنها الزمن مهما امتد ملايين السنين.

عدنا إلى الفندق وقد أجهدتنا الرحلة بعض الشيء، لكن المرح الذى عايشناه معا والسرور الذى تشاركنا فيه دون ترتيب مسبق أنسانا أي جهد.. بدأ الجسد يألف اختلاف الزمن وداعب النوم الجفون.



فى اليوم التالى تركنا فاييو وزوجته لاستكمال برنامجهما الخاص وتوجهت بصحبة فينكل إلى مركز العاصمة لمشاهدة بعض معالمها

الشهيرة، لا يزال أمامنا نصف النهار نقضيه في مكسيكيو سيتي قبل أن يكتمل الفريق ونسافر إلى محطتنا الأولى في مدينة " فيلا هرמוزا " حيث نبدأ العمل.

يشير أهل المكسيك إلى عاصمتهم بإسم بلدهم كما يصف الكثيرون من أهل مصر القاهرة بإسم مصر، هي أيضا - مكسيكيو سيتي - مثل القاهرة أكثر المدن ازدهاما بالسكان في المكسيك بل هي من أكثر المدن ازدهاما في العالم إذ يبلغ تعدادها ما يقرب من ثلاثة وعشرين مليوناً أي نحو خمس سكان المكسيك. ترتفع ما يزيد عن ألفي متر عن سطح البحر ويجاورها اثنان من البراكين العاتية. لماذا يتكالب الناس للعيش قريبا من الخطر أمر يستحق التأمل. هي أيضا واحدة من أقدم مدن العالم وفي الأصل مدينة عائمة تخرقها شبكة كبيرة من القنوات والجداول منذ كانت عاصمة أو محورا لإمبراطورية الأزتك. إنها ليست فقط العاصمة السياسية للبلاد بل أيضا مركز المال والأعمال والثقافة واللهو بلا منازع.. هي مدينة لا تعرف النوم، كم من خصال مشتركة مع مثيلتها القاهرة!

لم يكن الفندق الذي نقيم فيه بعيدا عن مركز العاصمة فقررنا السير على الأقدام نستطلع ما حولنا في فضول وتشوق للمعرفة، سيارات البيتلز الشهيرة حولها المكسيكيون إلى تاكسيات خضراء اللون تمرق من حولنا كأسراب الجراد.

ما أن غمرنا الجو المحيط بالنشاط والنشوة حتى وجدنا أنفسنا نقرب من الميدان الرئيسي في العاصمة والذي هالنا اتساعه ومساحته ونحن نستسلم لجوفه يبتلعنا وسط زحام من المارة والسائحين ومرور متشابك لا ندري كيف ينتظم ليمنع التكديس وانعدام الحركة. يطلق على هذا الميدان إسم "ميدان الدستور" أو ساحة الدستور وهو ثاني أكبر ميدان في العالم بعد الميدان الأحمر في موسكو، وهو قلب العاصمة ومركز الحكومة، ومراكز الأعمال والمال تحيط بجوانبه.

بعد أن تريضنا فى هذا الميدان ما يقرب من الساعتين قادتنا أقدامنا إلى "كاتدرائية المكسيك" وهى بناء مهول من أعمال الأسبان الإنشائية ذو واجهة متخمة بالأعمال الزخرفية، لا تبعث فى النفس الارتياح لكثرة تعقيداتها العمرانية.. ذكرتنى بكاتدرائية نوتردام فى باريس، الفن ينقل الإحساس بالجمال كلما كان بسيطاً ومتناسقاً منطقياً على أسرارهِ وليس بتكلفته ومباشرته وإلحاحه على الحواس، أو هكذا أراه.

قال فينكل ونظره مثبت على الواجهة الخارجية للكاتدرائية :- أنت تدافع عن الأديان دائماً، هل يمكنك أن تفسر لى ما الحاجة لكل تلك العمارة المعقدة إذا كانت رغبة الإنسان هى الخشوع لخالقه؟ هل تظن أن الله يأبه لتلك النقوش والزخارف التى أفنى فيها الإنسان وقتاً وجهداً ومالاً كان أحق به أن ينفقها فى علاج المرضى أو إطعام الجوعى أو تطوير وسائل العيش؟

لم أكن مبهوراً جداً بما أراه بل أصابنى ببعض القشعريرة، بالرغم من ذلك احتكمت لعقلى فى الإجابة على السؤال قائلاً: إذا كنت تقصد أن الإنسان أبدع تلك العمارة لإرضاء ربه فهو بالقطع قد ضل مقصده، لا أعرف ديناً يحتم على أهله أن يزخرفوا معابده كى تقبل منهم الصلوات، فلا اليهودية ولا المسيحية ولا الإسلامية اعتمد نموذجاً معمارياً لبيعة أو كنيسة أو مسجد، على أهله أن ينشئوه قبل أن تظلمهم رحمة الله، بل على العكس كثرة الزخارف فى المسجد تلهى عن الصلاة وتشتت ذهن الساعى للخشوع.. الأمر ينظر إليه بطريقة مختلفة.

نظر إلى معبرا عن استعدادهِ لسماع المزيد فاستأنفت: الدين والفن يرتبطان بالعاطفة ويعبران عنها على مدى التاريخ البشرى منذ عرف الإنسان وسائل التعبير، ما تراه الآن موضوعاً للفن كما عبر عن عاطفة من شيدهِ، فهو ليس بالضرورة وسيلة اتخذها الذين شيدوا الكاتدرائية للتقرب إلى الله. ربما أشاركك الشعور بالنفرة منه أو عدم الارتياح إليه لكنه مجرد تذوق لنتاج فنى قد يحرك الإحساس بالجمال أو يخمدهِ.

. ماذا يفسر إذن هذا الحشد الهائل من الزائرين؟
. للتاريخ سحره بما يحويه من غموض وأسرار، الفضول باعث المعرفة
كما يقولون.

سمعنا أصوات طبول وغناء بالقرب من الكاتدرائية فتوجهنا نحو
مصدر الصوت لنشاهد مجموعة من الراقصين يرتدون ملابس غريبة
تغطي رؤوسهم أغطية من الريش أكثر غرابة، يبدو أنهم يمثلون سكان
البلاد الأصليين وقد انطلقوا في رقصهم، الناس من حولهم ينظرون
بإعجاب ونشوة وكأنهم صفحة من التاريخ ابتعثت فيها الحياة. نظر إلى
فينكل مبتسما وقال: ألم تقل منذ لحظات أن للتاريخ سحره، هؤلاء هم
سحرته، هيا بنا نعود فقد اقترب موعد مغادرتنا الفندق إلى المطار.



حملتنا الطائرة بعد الظهر متجهين إلى مدينة "فيلا هرموزا" على
بعد حوالي ستمائة كيلو مترا إلى الجنوب الشرقي من العاصمة. كانت
ملامح الفيضان الذي اجتاح المدينة منذ شهر تبدو واضحة من الطائرة
خاصة وهى تهبط، كثير من الطرق منهارة، لازالت بعض المنازل
الصغيرة تغطيها المياه، كان مشهدا غربيا بالنسبة لى حيث أننا لا نشهد
مثله في مصر ولا نعرف للطبيعة مثل تلك الغضبات اللهم إلا زلزال عام
١٩٩٢ والذي يعتبر بالمقاييس العالمية متوسط الشدة.

قال فابيو وكان يجلس إلى الجانب الآخر من مقعدى ونحن نهم
بمغادرة الطائرة: لا أدري كيف ستحملنا السيارة إلى مكان العمل فوق
تلك الطرق المهدمة.

رد عليه فينكل: أكدت لنا الشركة المضيفة أن الحكومة
الفيدرالية تعمل على إصلاح الطرق الرئيسية لتيسير الانتقال بين المدن،
بعض الطرق سوف تصبح صالحة مع وصولنا وإن لم تكن بشكل آمن
تماما. عموما سوف نعرف المزيد من التفاصيل حين نلتقى "جيري" في

المساء فهو همزة الوصل بيننا وبينهم. جيراردو أو جيرى اختصارا يعمل ضمن الفريق لتنظيم الانتقال والإقامة وتيسير إجراءات الترحال، سيقوم أيضا بالترجمة من الإسبانية إلى الإنجليزية والعكس أثناء عملية المراجعة والنقاش مع المسؤولين. أيضا ستصل من ألمانيا لحضور جانب من المراجعات "سونيا" وهى محامية من "بيرو" على دراية بمتطلبات قوانين البيئة في المكسيك، يصحبنا بفرض التدريب واكتساب الخبرة زميل آخر ألماني نقل حديثا إلى المكسيك.

نظرت إليه غير مصدق.. قلت: وصل عددنا حتى الآن ستة وهو طاقم كبير.. كيف يمكننا أداء المهمة بهذا العدد الضخم؟

ابتسم وأجاب: سوف يزداد عددنا عضوا آخر بعد يومين بفرض التدريب وهو زميل مكسيكى آخر. لا تنس أننا بحاجة لمرجمين والخبير القانونى ضرورى على الأقل في البداية حتى نستوعب المتطلبات القانونية في هذا البلد كما تعلم.

السيارة تسرع بنا نحو فندق "كالبيدا" حيث نقيم في فيلا هرموزا " هذا الأسبوع، أصدقاء حديث فينكل تتردد في نفسى، هذه المهمة تحمل لى وللفريق تحديا كبيرا، الطاقم الكبير غير معتاد مع اختلاف اللغة والثقافات، سبعة أفراد من خمس دول مختلفة، ألمانيا والمكسيك والبرازيل وبيرو ومصر، لغة التخاطب مع الشركة هى الإسبانية التى لا يعرفها نصف الفريق. سألت نفسى ماذا يحمل لنا الغد؟ أتانى صوت فينكل كأنه قد لمح خواطرى

. سوف نتقابل في الساعة السادسة مساء اليوم في حجرة اجتماعات الفندق لمناقشة جدول الأعمال حيث يتعارف الفريق وتبادل المعلومات.



انتشرت بيننا الألفة دون تكلف وزالت الحواجز، بدا أن كلامنا يسمى نحو الآخر في مودة، اختصرت الإنسانية كل الفوارق الناشئة من

اختلاف الوطن واللغة، بدا الإنسان مقبلا على أخيه الإنسان داعيا في نفسه جانبها الطيب المسالم.

توجهنا إلى العشاء بعد اجتماع العمل في أحد المطاعم القريبة، حذرني فاييو من الاقتراب من الأكل المكسيكى الحار، حين خالفت نصحه وحاولت ذلك كادت النار تحرق فمى، لا أدري كيف أمكنهم تناوله دون أن تبدو عليهم أية بادرة مقاومة بل كان هناك تذوق واستطعام، سألتنى سونيا المحامية من بيرو وكانت تجلس إلى جوارى - هذه الأطعمة الحارة تنتشر في مصر كما هى متداولة في هذا المكان من العالم؟

أجبتها وفمى يبحث عن وسائل الإطفاء: ليس بهذه القدرة على الاشتعال، أنا شخصا لا أقترب من تلك الأطعمة ولا أشتيها، لكن الفضول دفعنى للمحاولة.

قال فاييو وكان يمضغ بعضا منها في تلهذ واضح: حذرتك من النار قبل أن تقع فيها.

قلت مازحا ولا أكاد أجد صوتى: أنت تعرف أن تلك أنجح وسيلة للإغراء، لكننى نلت جزائى على كل حال

قال جبرى وكان في مثل سن سونيا.. بداية الثلاثينات: هذه تحية المكسيك لضيوفها، لكن المطبخ المكسيكى يحتوى على أطعمة لذيذة ليست بهذه الدرجة من الحرارة.

قال فاييو بهدوئه الطبيعى: الأطعمة كالأفكار نقبل منها ما اعتدناه ونشأنا عليه، فإذا عرض علينا ما يخالف العادة والنشأة ثم قبلنا التحدى آلمنا ذلك..

قال فينكل: ربما كان الألم ثمنا للتجربة التى لا شك تزيدنا معرفة.

قالت سونيا مازحة: هذا حديث فلاسفة وليس حديث مهندسين
يجتمعون على مائدة العشاء.

قال فينكل وهو يشير إلى: لك أن تعرفى أنتى صاحبتك من باريس
حتى هنا ولم يتوقف بيننا هذا الحديث، لكننى اعتدت عليه منذ قابلته
في مصر، الآن أصبحنا ستة وليس مجرد اثنين.

قال فاييو: في الحقيقة كنت جادا في تلك المقارنة، شغلنى نقاشنا
بالأمس حول دور الأديان في حياة البشر ومدى إسهامها في تقدمهم، هل
لا يزال لها دور في حضارتنا المعاصرة؟ كان تشبيه الأفكار بالأطعمة
عفو الخاطر، الذي لا خلاف فيه أن المرء يعتاد ما يوضع في مأكله كما
يعتاد ما يفرغ في عقله، إعتاق دين ما يحدث أيضا بحكم النشأة سواء
كان المسيحية أو الإسلامية أو البوذية، نادرا ما يعتق إنسان دينه
بمحض إرادته الحرة.

قال فينكل: لكن يمكنه التخلي عن الاعتقاد في شئ بإرادته
الحرة، هذا يحدث فقط في الغرب حيث حرية الاعتقاد مكفولة للجميع
بنص الدساتير. في الدول المسلمة إذا ارتد أحد عن دينه معلنا ذلك أهدر
المجتمع دمه.

قالت سونيا: يتعرض لهذا الخطر أيضا مجرد التعبير عن أفكار
تخالف النمط الاجتماعي السائد ولا تعجب رجال الدين، قرأت مؤخرا
في إحدى المجلات الألمانية ما حدث في مصر، هروب رجل مثقف وزوجته
من مصر خوفا من اضطهاد المجتمع لهما لإصدار فتوى بتطليقهما لمجرد
نشره أفكارا تناقض بعض المسلمات السائدة.

قلت وقد بدأ فمى يستعيد قدرته على النطق: لا أحد يحق له أن
يسلب حرية آخر في الفكر والاعتقاد، والدين الإسلامي لا يهدر تلك
الحرية بأي حال، المشكلة تكمن في النمط الثقافي الذي يتشبث به
المجتمع ثم يغلفه بالشريعة ليُرهب من ينتقده أو يتمرد عليه، لهذا يجب أن
نفرق بين مبادئ الأديان ودعواتها، وأعراف المجتمعات وتقاليدها والتي

تصبح تلك الدعاوى بألوان قد تغير من حقيقتها. الفكر يواجه بالفكر وليس بالتهديد والقتل، على المفكرين أيضا أن يعطوا القدوة في الموضوعية ويزيدوا من هامش التسامح وقبول الرأي الآخر ولو على سبيل المعرفة والدراسة.

قالت سونيا: إذن فأنت ضد الفتوى الصادرة بقتل سلمان رشدي بالرغم من صدورها عن أحد الرموز الدينية في منطقتكم؟

قلت: الفتوى صدرت من إيران حيث يعيش أقل من ثمانين مليون مسلم بينما يدين بالإسلام ما يزيد عن الألف مليون، هذا يدل على سطوة بعض الأنماط الاجتماعية خاصة حين تمتشق رؤيتها الخاصة للنصوص الدينية، لماذا تأتي كل الأمثلة من منطقتنا كما أشرت؟ لماذا لا تبرز أمثلة مشابهة من دول مسلمة في شرق آسيا على سبيل المثال؟

قال فابيو: عموما فقد تراجع الإمام الخوميني عن فتواه قبل وفاته، أو هكذا سمعت.

قال فينكل: من أخطر الأزمنة في حياة أمة حين تجتمع سطوة السياسة مع النفوذ الديني، أن يكون الحاكم هو المرجع الديني فيصبح أعظم مكانة من ملك وتحيطه هالات التقديس، دمر هذا الازدواج أوروبا في العصور الوسطى مما يوجب على الأمم الأخرى أن تعي الدرس.

قال جيرى وبدا غير مهتم بهذا الحديث: علينا أن نأخذ قسطا من النوم ففدا يوم شاق يستوجب منا اليقظة التامة، حالة الطرق غير مطمئنة بسبب ما هدمته الفيضانات، ربما احتجنا لساعتين بالسيارة حتى نصل إلى محطة معالجة الغاز الأولى في برنامجنا.

قال فينكل: سوف نكون جاهزين في السابعة تماما.



لم يكن الوصول إلى موقع العمل سهلا، الطريق الرئيسي مزدحم بسبب بطء الحركة وتوخي الحذر، أجزاء منه منهارة وغائرة إلى عمق

يصل في بعضها إلى المتر، مستتقات المياه منتشرة حيثما انخفضت جوانب الطريق، آثار المياه واضحة على واجهات البيوت بقدر ما غمرتها، في معظمها تخطت الدور الأول، كان شيئاً مذهلاً ما فعلته المياه فيما صنعه البشر، هذا ما آلت إليه بعد شهر من انحسار الأمطار فكيف كان المشهد وقتئذ؟ كنا نتأمل ما نمر به في صمت وذهول. حطمت قوة المياه الخرسانة والأحجار، سخرت من صلادة الإسفلت، خلفت دماراً يتحدى إرادة الأحياء. في مكان آخر من الأرض يضرع الإنسان بالصلاة كي تسقط عليه السماء قطرات من الماء تأمن له حياة يوم. أليست هي نفس الأرض أليست هي نفس السماء؟ لكن الحياة لا تستسلم لشبح الطبيعة أو طغيانها وإلا ما نشأت وازدهرت وتكاثرت، ربما كان تحديها للفناء جوهر استمرارها.



مضى اليوم الأول في مراجعة المحطة الأولى لمعالجة الغاز "كاكتوس" على ما يرام بالرغم من حاجز المترجمين، عموماً تعتمد تلك المراجعات إلى حد كبير على قوة الملاحظة لما يدور من أعمال خاصة الفنية منها، لكن اليوم كما وعدنا جيري كان شاقاً وطويلاً انتهى بعودتنا إلى الفندق في العاشرة مساءً. على كل حال انتهت مراجعة هذا الموقع في اليوم التالي بنتيجة مرضية كانت سبباً في الشعور بالابتهاج لدى إدارة الشركة والعاملين فيها مما ساعد على تقوية التفاهم مع سهولة الاتصال بمرافقينا الذين انتقلوا معنا إلى المحطة التالية على رأسهم سيدة مكسيكية قوية الشكيمة اسمها "كريستا" كانت تتحدث الإنجليزية بشكل جيد بالرغم من حرصها على ألا تبدو ذلك علانية كأنه يشين الفرد المكسيكي أن يتحدث الإنجليزية في وطنه!

لم يستمر الحال كذلك مع انتهائنا من مراجعة المحطة الثانية بالقرب من "فيلا هرموزا" أيضاً. اكتشفنا بعض المخالفات البيئية الجسيمة التي تتحتم معالجتها قبل التوصية بإصدار الشهادة. كان

مقدرا للاجتماع الختامى نصف ساعة نعرض فيها على إدارة الشركة ما توصلنا إليه من نتائج والتي كانت سلبية بطبيعة الحال، لكن هذا الاجتماع امتد إلى أكثر من ثلاث ساعات في سابقة لم تتكرر من قبل.

حضر الاجتماع ما يزيد عن ثلاثين شخصا محاولين بشتى الطرق أن يغيروا من توصيتنا بإعطاء العهود بالإصلاح المطلوب. وصل ضغط النقاش إلى ذروته فمال فينكل على أذنى وكان يجلس إلى جوارى وسألنى: ما العمل الآن، هل أطلب منهم وقف النقاش وإتاحة الفرصة لنتحاور معا من جديد عسى أن نجد مخرجا لهم ولنا؟

أجيبته على الفور: لا أنصحك أن تفعل هذا. نحن بحثنا الأمر بدقة وتوصلنا إلى هذه النتيجة، لم أسمع جديدا يمكنه أن يغير من المعطيات والأسباب، لهذا أرى أن ننهى الاجتماع تاركين لهم حرية الاختيار بين قبول ما توصلنا إليه والعمل على تصحيح المخالفات أو الاعتراض الرسمى على التوصية.

الساعة تقترب من العاشرة مساء، مشقة اليوم الطويل بادية في الوجوه المتراسة داخل قاعة الاجتماعات الضخمة، دون اختلاف لصاحب الوجه من أين أتى وكيف أصبح، أية لغة يتحدث. مرة أخرى تبرز الإنسانية بوجه مألوف لا يستجيب للجغرافيا أو الثقافة مهما تباعدت أطرافها وينابيعها.

بمجرد أن أكد فينكل أن توصيتنا لن تتغير إلا بتحسن ملحوظ في الأداء البيئى للمعدات المخالفة أعلن مدير المحطة بعد نقاش قصير بالإسبانية مع مساعديه أنهم قد قبلوا النتائج جميعها وأنهم سيعدون خطة للتطوير تكفل تحقيقهم للمستوى المطلوب في وقت قريب. لم يخف تقديره لصمودنا أمام ضغط الحوار والمناقشة.. همس فينكل في أذنى قائلا:.. فعلنا الصواب بإصرارنا على موقفنا.. أشكرك لنصيحتك.

بعد الاجتماع صحبتنا السيدة "كريستا" إلى الخارج وقالت مداعبة

. لم نستطع التغلب عليكم.. الفريق متحد وقوى.

قلت : الفائز في النهاية هو أنتم.. شهادتنا قيمة بقدر ما هي صادقة.

قالت: أظن المواقع الأربعة الباقية سيعلمون بتلك النتيجة فوراً ويأخذوا أهبتهم. هل تلك طريقتكم المعتادة أم أن المكسيك حالة خاصة نظراً لما يشاع في العالم عن نسبة التلوث فيها؟

قال فينكل: طريقتنا لا تختلف ولا تتغير، إلا اجتماعنا الأخير فهو استثناء لا يتكرر، عدد الحاضرين الضخم وزمن الاجتماع الذي امتد إلى حد غير مسبوق مما أجهدنا وأظنه أجهدكم أيضاً.

قالت: لا بأس فغدا تبدأ عطلة نهاية الأسبوع يمكنكم الراحة كيف شئتم لحين ألقاكم بعد أسبوع حين تعودون مجدداً إلى " فيلا هرموزا "

قال فاييو: تصورت أنك ستحضرين المراجعة في "كواتسا كوالكس" الأسبوع القادم.

قالت وهي تودعنا على بوابة الشركة: عندي عمل هام أنجزه والفضل يعود إليكم.

أثناء عودتنا في السيارة قال فاييو الذي قام بمعظم الترجمة أثناء الاجتماع

. قمنا بعمل جيد هذه الليلة، مدير الشركة تحدث لأحد مساعديه على مسمع مني سائلاً إياه أن يأخذ كل توصياتنا مأخذ الجد واعترف له أن ما حدث في حضوره كان درساً في الالتزام والأمانة من قوم تبعد بلادهم عن المكسيك آلاف الأميال لكنهم لم يفرطوا في واجبهم.

قال فينكل: كنت على وشك التراجع من شدة الضغط والاجهاد لكن مساندة الفريق أنقذتني.

قال فاييو: أظنه كان درساً نافعا للجميع.

لذت بالصمت طوال طريق العودة إلى الفندق لا لسبب سوى الشعور
بالإجهاد والتطلع إلى الراحة والاسترخاء في الغد.



قبل ظهيرة اليوم التالى ذهبت مع فينكل وسونيا وجيراردو في نزهة
سيرا على الأقدام غير بعيد من الفندق حيث اكتشفنا حديقة عامة
ضخمة تسمى "لافتنا" تحتوى بجانب الخضرة الخلافة والأشجار الباسقة
متحفا صغيرا يضم بعض التماثيل المنقولة من شاطئ خليج المكسيك
حيث تركت حضارة الأولمك بعض آثارها منذ ثلاثة آلاف عام، اتباع
فينكل من محل التحف والهدايا المجاور للمتحف شيئا غريبا يسمى
"مقلد المطر" عبارة عن اسطوانة خشبية قطرها حوالى عشرة سنتيمترات
طولها حوالى ثمانين سنتيمترا محكمة الغلق لا نعرف ما بداخلها، لكن
حين تحركها رأسا على عقب تصدر صوتا كأن السماء تمطر بغزاره،
داعبته قائلا : تفتقد صوت الأمطار في هامبورج فأردت أن تفتله في فيلا
هرموزا.

أجابنى مازحا: كيف لمثلك أن يميز صوت المطر حيث الصحراء لا
تعرف غير السماء الجافة؟

قالت سونيا ونحن نتخذ مجلسا على حافة بحيرة صغيرة مجاورة حيث
تملأ النفس بالبهجة، مشاهد الطبيعة الفاتنة

- في الحقيقة يصعب على تصديق أنه قادم من الصحراء. نموذج
العربى المسلم التى تروج له الميديا العالمية؛ المعادى للحضارة الغربية في
فكرها وماديتها، المستفيد من تقدمها المستمتع برفاهيتها لا أجد له
أثرا.

قلت: مما يؤسف له أننا كأفراد لا نمهل أنفسنا وقتا كافيا للتحقق
مما نسمع أو نشاهد، مثلا ماذا أعرف عن "بيرو" حتى أصدر حكما
عاما على أهلها؟ من المؤكد . مثلا . أن تواجدنا في المكسيك لفترة

سوف يجعلنا نرى المكسيكى بشكل أصدق مما نقرؤه في الإنترنت أو تبثه وسائل الإعلام..

كنت شخصيا أحسب اللغة الإنجليزية متداولة في بلد يجاور الولايات المتحدة ففوجئت بندرة المتحدثين بها كأنها اتخذت اللغة الوطنية سياجا واقيا للوطن المكسيكى وشخصيته المتميزة وهى كذلك.

قال جيرى: لكننا نتحدث الإسبانية التى نتحدثها كل شعوب أمريكا اللاتينية عدا البرازيل.

قلت: هذا صحيح، هى جزء من تراث وكيان لتلك الدول و أيضا كبرياتها الذى لا تتنازل عنه للغة أخرى ولو كانت لغة الجار القوى.

قالت سونيا: يعنى كلامك أن على الإنسان أن يتحقق مما يشهد ويسمع بنفسه، هل لدينا الوقت والمال لنذهب إلى كل مكان من العالم يحدثنا عنه الساسة أو تستعرضه أماننا وسائل الإعلام؟

أجبتها: هذا ضرب من المستحيل، وسائل التحقق كثيرة أبسطها أن نستمع لكل الأطراف ونقارن وجهات النظر بفكر متحرر من التعصب والآراء المسبقة، لنستخلص بأنفسنا ما نطمئن لصدقه.

قال فينكل: عندك حق، معظمنا يستسهل فتح التلفزيون لمشاهدة القناة التى يفضلها والتى تختصر له أحداث الدنيا في دقائق، نحن نقبل على الآراء الجاهزة التى لا تكلف عقولنا الاجتهاد كما نقبل على الوجبات الجاهزة التى تقينا مشقة طهى الطعام الذى نختاره بأنفسنا.. لقد طفت ثورة المعلومات على حرية التفكير.

قال جيرى: من يسيطر على وسائل الإعلام يشكل أفكار الناس وآراءهم أو على الأقل يحجب عنهم الرأى الذى يخالف معتقداته.

قالت سونيا: هكذا في رأيك أصبح المسلم خاصة من دول الشرق الأوسط عنوانا على العنف، لأن الميديا في الغرب وجهت العقول وحولت

الأبصار نحو هذا النموذج الكريه وسلطت عليه كل الأضواء.. حسن، لكن أين ما يزيد عن ألف مليون مسلم ليعلنوا للعالم رأيا مختلفا، ويبرزوا للناس بنموذج يستدعى الاحترام والقبول؟ كيف يمكن لفرد مثلى أن يصل إلى وجهة النظر الأخرى ويستخلص ما يطمئن لصدقه كما تقول؟

كان السؤال صعبا ومباشرا لكننى لم أجفل عن قول الصدق أو على الأقل ما أظنه كذلك

. هناك مسئولية تقع على كاهل المسلمين بالطبع، وواجب عليهم أن ينجزوه في هذا الصدد، عليهم أن يفسروا للعالم ما غمض عليه من دينهم بلغة يفهمها، أن يقتفوا مبعث الشك في نظرات الآخرين إلى الإسلام ليحللوا أسبابها ويتداركوا الخطأ فيها بموضوعية لا تقهر حرية الفهم والإقناع. هناك فجوة واضحة تتسع بقصد أو بدون قصد بين المسلمين وجزء هام من العالم وهو الغرب المسيحي، وعلينا كمسلمين أن نؤدي دورنا في تضيق الفجوة ولا نكتفى بلوم الآخرين.

قالت سونيا: أحترم صراحتك، وأشير إلى أن هذا التواصل بين الجميع ضرورى وحتمى إذا كنا نرغب لهذا العالم أن يعيش في سلام، لكن ألا ترى أن اللغة العربية لا تصلح لهذا التواصل؟

كنت أعرف أنها تتحدث ثلاث لغات بطلاقة.. أجبتها:.. نعم، لابد أن تكون وسائل الاتصال مفهومة لمن نسى للتواصل معه، لا يجب أن ننتظر من الآخرين إتقان لغتنا كي يفهموا ما نقول، ربما كان هذا جزءا من المشكلة، أعنى عدم توفر وسائل الاتصال مع اختلاف الألسنة..

قال جبرى كعادته إذا ثقل عليه متابعة النقاش: أظن موعد الغداء قد حان كما أن لدينا تقريرا نعدده وترتيبات الترحال إلى "كواتساكوالكوس" في الغد..

قال فينكل وهو ينهض محركاً "مقلد صوت المطر" منصتاً للصوت الذى أحدثه: إذن ليس لدينا وقت في الغد لزيارة "بالينكا" ومشاهدة الأهرام؟

قال جيري: سنؤجل تلك الزيارة لحين عودتنا إلى "فيلا هرموزا" مرة أخرى فهذا سيوفر الوقت الكافي لزيارة المنطقة كلها بما فيها "أكوالازور" القريبة من بالينكا.



غادرنا "فيلا هرموزا" بعد ظهيرة اليوم التالي متجهين إلى مدينة كوا تساكوالكوس ١٨٠ كم شمالاً حيث سنمضى أسبوعاً في مراجعة موقعين آخرين من مواقع معالجة الفاز. كانت الطريق تتخلل الأدغال، الأشجار الرائعة الخضرة تصطف بكثافة على الجانبين، بينما الشمس تؤذن بالغروب أوقفنا السيارة وهبطنا نشاهد هذا المنظر الرائع الذي لا تمل النفس والعين من تكرار مشاهدته.

قلت متأثراً بهذا الصمت الذي غلف الوجود كأنه يعلن عن قداسة النظام الكوني البديع: يأسرنا جميعاً هذا الجمال الطبيعي المبدع الذي لا يفتأ يتكرر كل يوم في كل مكان من الأرض، لا يتنازع ملكيته أحد أو يدعيه حكراً عليه.. لماذا نبحت عما يفرقنا ونتنازع القليل؟

قالت سونيا: لأننا لسنا جميعاً فلاسفة ولا يأتي العقل في المرتبة الأولى لدى الجميع.

قال فابيو: أليست هي محنة الإنسان على مر التاريخ؟

وصلنا فندق "كريستال اكسبريس" حيث مستقرنا هذا الأسبوع، بدت المدينة كما أفاد "جيراردو" ذات وجهين، وجه احتفظ بقدمه في عمارته وطرقه والآخر أطل بحداثته معلناً وجه المستقبل. الفندق في الجانب العصري، جديد ذو حجرات واسعة مريحة مقارنة بفندق "كالبيدا" في فيلا هرموزا "

حين فتحت شرفة حجرتى وصلت أنفى رائحة الموج قبل أن يصل سمعى هديره، فعرفت أنى قريب من ساحل خليج المكسيك امتدادا للمحيط الأطلنطى. قادتى قدمى دون تفكير متجها إلى حيث النداء الخالد للمجهول حيثما كنت قريبا من البحر.

لا يمكن للمرء في تلك اللحظات أن يمنع خياله من السفر متخطيا الزمان متسائلا من أين أتت القدرة الفائقة وجموح المغامرة للإنسان كى يعبر هذا المحيط الهائل الاتساع ليكتشف هذا الجانب الغامض من عالمه ويطغى عليه بثقافته.. بدا للحظة أن العقل وحده لم يكن كافيا دون أن يجمع الخيال ويشد العناد لقهر الطبيعة بكل نزقها. في كتابه الرائع "كيف غيرت شجاعة رجل واحد مجرى التاريخ" يقص "جايلز ميلتون" صراع "كورت هوب" ومن سبقه للوصول إلى جزر الهند الشرقية عن طريق الغرب عابرين المحيط الأطلنطى بسفنهم الخشبية التى لا تقارن بالسفن الحديثة، تحفزهم روح المغامرة والجشع، تمتد رحلاتهم سنوات غير واثقين من عودتهم إلى وطنهم أحياء، وبالرغم من الأهوال التى كانت تواجههم والفظائع التى كانوا يرتكبونها لم يردعهم رادع عن تكرار المحاولة كلما أجبرتهم الطبيعة على الرضوخ لمنطقها والعودة خاسرين. لم يمض على ذلك التاريخ سوى ما يقرب من أربعة قرون.. فقط أربعمئة عام، ليصبح عبور هذا المحيط ممكنا في سويعات مزودا بكل وسائل الراحة والأمان، ليتواصل زمن الإنسان مع ما وهبته الطبيعة من مكان ويتراكم تاريخه وثقافته ويواجه تحديا من نوع جديد، كيف تتواصل أفكاره ومبادئه، بالصراع أم بالحوار؟

بعد ساعة عدت إلى الفندق منتعشا بأنفاس البحر، وبينما أقرب من المصعد للتوجه نحو غرفتى لمحت سونيا وفينكل جالسين في منطقة الاستقبال، لوحا إلى فتوجعت نحوهما، قال فينكل بعد أن جلست على مقعد مجاور.. وبعض الأوراق مفردة على المنضدة أمامهما

- ستعود سونيا إلى ألمانيا بعد يومين وعلى أن أسجل ملاحظاتها ونصائحها فيما يخص قانون البيئة في المكسيك كي نعتمد على أنفسنا بعد رحيلها ، هل استمتعت ببعض التجوال؟

أجبتة: فقط بضعة أمتار حتى الشاطئ لكننى جلست هناك حوالى الساعة.

قالت سونيا: أنت لا تتوقف عن التأمل والتفكير، أتمنى لو أقرأ شيئاً مما تكتبه.

قلت: ربما أصبحت العربية إحدى اللغات التى تتقنيها.. من يدري؟ أجابت: أو تترجم بعض أعمالك للإنجليزية، لا تنس ما قلته بالأمس عن أهمية وسائل الاتصال لخلق حوار مشترك.. اللغة أهمها.

قلت محاولاً تغيير الموضوع: لاحظت الفرق الواضح بين الجزء القديم في المدينة والجزء الحديث سواء في العمارة أو الطرق، لماذا احتفظت المدينة بماضيها وخلقت منه حواراً مع مستقبلها؟ لماذا لم يترك المستقبل يكتسح الماضى ويمحوه من واقعها؟ في أمريكا يأتى الجديد فيمحو ما سبقه ويصبح مادة للتندر، كم تبقى فيها من ماضى السكان الأوائل؟

قال فينكل معلقاً: هذا يختلف عن أوروبا حيث نحرص على الماضى ونعتز بأثاره، نصحح ما يتلف منها، نعلمه لأولادنا، التاريخ جزء من الشخصية الوطنية لا يصح بتره وإلا تشوهت صورتها.

قلت: فى مصر لا ينمحي الماضى أبداً ولو أردنا، مهما أوجد المستقبل لذاته موقع قدم، تظل الصور السابقة متراكمة، نظرة سريعة على أزياء الناس تشهد فيما كانوا يرتدونه منذ عشرات السنين جنباً إلى جنب مع أحدث صيحات الموضة، هذا في الشكل أما في المضمون فسلطان الماضى على السلوك والعادات لا تقوى على تغييره أقوى محاولات التحديث.

قالت سونيا: هل تظن أن للدين أثراً في هذا التشبث بالماضى في بلادكم؟

أجبتها: لا يتشبث الإنسان بماضيه بهذا الإصرار إلا إذا فقد رؤيته للمستقبل فيصبح الأمس هو اليقين الوحيد. ربما كان للدين دور حينئذ لأنه يمنح بارقة أمل غيبى في مستقبل غير منظور. لا شك أنك ستلهفين على غدك كلما زاد يقينك بهذا الغد لما يحمله من آمال محققة من السعادة والنجاح.

قال فينكل: ما فائدة الدين في حياة الإنسان إن لم يعينه على مستقبله المنظور ويحثه على تطويره من أجل سعادته؟

قلت: الأديان تفعل ذلك في الحقيقة إذا فهم من يعتنقها جوهرها ولم يشوه فهمه واقعها الذي يعيشه مهما كان هذا الواقع قاتماً. الدين لن يخلق في الإنسان الإرادة إنما يخلقها حب الحياة، لكن الدين يهدى تلك الإرادة لتحقيق الخير والدفاع عن الحق.. لكن هذا حديث يطول.

قالت سونيا: نعم ولدنا في الغد يوم عمل طويل.



في اليوم التالى زرنا الموقع الثالث لصناعة الغاز في المكسيك حيث شاهدنا تسهيلات الشحن الضخمة للغاز الطبيعى المسال والأمونيا وثانى أكسيد الكريون، السفن العملاقة ناقلات الغاز المسال مصطفة إلى الأرصفة المتعددة اتصلت بها خراطيم الشحن من محطات الضخ البرية كأنها ترضعها بلا توقف ليلاً أو نهاراً. لابد أن تلك الصناعة قد نشأت منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة حتى تصل إلى هذا الحجم الهائل. قابلنا مدير عام المرفأ شخصية رزينة توحى بالعمق والهدوء النفسى الذى تستشنه من خلال حديثه وآرائه في الأداء البيئى للمنشأة التى يديرها.

مضى يوم الزيارة دون مشكلات تذكر واختتمنا حوارنا مع إدارة هذا الموقع بنتائج مرضية.



فى مساء الثلاثاء أجمعنا فى مطعم برازىلى لتناول العشاء بناء على نصيحة من فابيو ، كان عشاء الوداع لسونيا التى ستترك الفريق مغادرة إلى ألمانيا فى الصباح ، لكننا سنغوض نقص المترجمين بانضمام أحد زملائنا المكسيكيين بدءا من الغد وهو يجيد الإنجليزية بالطبع.

لاحظنا شرود ذهن فينكل على غير عادته واستئذانه للحديث فى التليفون أكثر من مرة ، شعرت أن هنالك خطبا ما . لم يخف سبب انزعاجه عنا فقد بدأ يمزج الفريق إحساس عميق بأننا أسرة واحدة. قال وقد فرغنا من تناول الطعام

. حاولت أخت زوجتى الانتحار صباح اليوم ، كنت أتابع ما وصلت إليه حالتها.. تم إنقاذها حسب آخر مكالمة.

اقترح فابيو الانتقال إلى مقهى قريب لتناول القهوة والشاي واستكمال حديثنا ، بدا فينكل راغبا فى الصعبة والمشاركة خلال تلك اللحظات من أفكاره وخواطره. سرنا نحو المقهى المقترح وكان واقعا على شاطئ المحيط مباشرة مما أضفى على الجو مهابة وجلالا. قالت سونيا محاولة إخراج فينكل من صمته

. هل كانت تعاني من أية أزمة نفسية قبل إقدامها على هذه الخطوة؟

أجابها فينكل مترددا: فى الحقيقة كانت قد توجهت للكنيسة فجأة لتصبح راهبة حيث أمضت بعض الوقت ثم قررت فجأة أن تعود للحياة العادية مع أسرتها فى رومانيا لكنها كانت منطوية معظم الوقت.. حتى قررت إنهاء حياتها ، لا يعرف أهلها سببا واضحا لكل هذه التحولات الحادة فى كيانها.

قال فابيو: يبدو لى أنها تشعر بمعاناة شديدة فى مواجهة الحياة ، ظننت انغماسها فى الحياة الدينية سيمنحها الطمأنينة النفسية التى تشدها ولما

فشلت في الحصول عليها عادت إلى حياتها الأولى، لكنها لم تجد جديدا ينتظرها وحاصرها اليأس. هي فتاة مسكينة حقا.

قال فينكل متأثرا: هذا مثل آخر لقصور الدور الذي ينتظره الإنسان من الدين الذي يعتقه، لا بد أن شعورها باليأس كان مطبقا، هنالك يصيب الإنسان الجنون أو يقرر الانتحار.. لحظات لا يمكن وصف ألمها.

قلت: اللحظة التي يقرر فيها المرء نهو حياته مفعمة بالتعقيد، هي لفز يصعب حله لأنه ضد المنطق لمخالفته ناموس الحياة وغريزة البقاء التي جبلنا عليها. الدين من ثم ليس كلمة سحرية تنطق بها فتحل الألفاظ. الإسلام على سبيل المثال يحرم قتل الإنسان لنفسه لأنه يضعه وصيا عليها، وديعة لا يحق له التفريط فيها حتى يأذن بذلك ربه، لكن الإسلام يفتح أبواب الأمل للإنسان مهما أطبق عليه اليأس والإحباط، ومع ذلك يصاب بعض الناس بالمرض ويخجلون الإفصاح عنه لمن يمكنهم مساعدتهم، الانطوائية من أخطر ما يصيب النفس البشرية لأنها تفلق نوافذ المنطوى على نفسه فتتعدم فرص الاتصال به ومد إليه يد المساعدة وهي مأساة حقيقية..

ساد الصمت وقتا ليس بالقصير ربما شعورا بالرهبة من مواجهة مأساة كذلك، ثم تساءلت سونيا كأن شيئا يعتمل في عقلها

- إذا كان الإسلام يحرم قتل الإنسان لنفسه كما تقول فما تفسير تفجير الفتية المسلمين لأجسادهم بين تجمعات من البشر الأبرياء بما فيهم من نساء وأطفال فيقتل من يقتل ويجرح من يجرح بلا ذنب جناه؟ أعنى ما يحدث في إسرائيل بين الحين والحين، ويعطيهم المبرر للدفاع عن أنفسهم بأى شكل يروونه مناسباً؟

قال فاييو قبل أن أجيبها: هذا يحدث في أماكن أخرى من العالم، لكن معظمهم من المسلمين العرب كما أشرت وهذا يلفت الانتباه بكل تأكيد.

قلت: هذا نوع من سلب الإرادة في تقديري، هم يساقون إلى ذلك بقوة أكبر منهم سيطرت على عقولهم ووجهتهم إلى الموت، هنا اختلط اليأس بالوهم وهو ما يفسر صغر سنهم، الإنسان الناضج العقل لن يقبل أن تسلبه إرادته للحياة قوة مهما ارتدت من صور دينية أو عنصرية أو غيرها، لأن هذا مناف لمنطق الحياة فسوف ينتهى سريعا ويصبح عبرة للبشرية من عبر تاريخها المثير.

تساءلت سونيا بإصرار: هل يعنى هذا أن الإسلام لا يحث على هذا الفعل؟

أجبتها: من يقرأ تاريخ الإسلام لا يجد أي مثيل لذلك بالرغم من مواجهة المسلمين لأعداء أقوياء عبر تاريخهم، ما أسهل تضليل العقول الضعيفة أو النفوس اليائسة.

قالت سونيا وهى تنهض من مقعدها: سوف أفكر فيما سمعته منك وأتذكره جيدا، أمل أن تكون على حق فلا يطول زمن تلك الظاهرة.. الآن على أن أستريح قليلا فسوف أغادر المدينة في الصباح الباكر، أتمنى لكم التوفيق فيما تبقى من برنامج العمل.

ثم أضافت وهى تصافح فينكل: أتمنى لأخت زوجتك حياة أكثر إشراقا.



مضى اليومان التاليان في مراجعة الموقع الرابع ثم عدنا مباشرة إلى " فيلا هرموزا " حيث وصلنا في الساعة الثامنة والنصف مساء يقود السيارة التى ركبت فيها زميلنا المكسيكى الذى انضم إلينا هناك واسمه " كابيل "، كانت إقامتنا هذه المرة في فندق كنسالى أفضل قليلا من كالىندا. الفندق مزدحم بكثير من الشباب لوجود صالة رقص "ديسكو" بين أرجائه، لكننا كنا متعبين لممارسة أي نشاط إضافي

فتناولنا طعام العشاء وآوينا إلى حجراتنا مستسلمين للنوم متشوقين لعطلة نهاية الأسبوع.

استيقظت من النوم متأخرا على غير العادة، تناولت فطوري على مهل ثم انطلقت في جولة على الأقدام بمفردى مستكشفا مزيدا من الحياة في مدينة "فيلا هرموزا" قادتني قدماى إلى مركزا للتسوق حيث شاهدت أعدادا غفيرة من المكسيكيين تملأ المكان بالنشاط والحركة، أنه صباح السبت الجميع مشوق لبعض المرح وتناول المرطبات والقهوة في الهواء الطلق، محلات بيع الملابس غاصة بالمشتريين والمتفرجين والمقاهى المتأثرة ممتلئة بالأسر تتناول فطورا متأخرا أو غداء مبكرا لا يهم. نفس المشهد رأيته في أية مدينة كبيرة زرتها في العالم سواء شرقه أو غربه، تماثل السلوك البشرى يبعث على الدهشة خاصة حين تضللنا الفوارق وتباعد المسافات بيننا.

بعد ثلاث ساعات عدت إلى الفندق لإعداد التقرير المبدئى لما أنجزناه في اليومين الأخيرين، ثم التقيت ببقية الفريق في الثامنة مساء للترتيب لبرنامج الأحد الذى انتظرناه جميعا بفضول.. كانت غاييتنا "بالينكا" و "أكوا أزول".



في السادسة صباحا اقلتنا السيارة يقودها "فايو" حيث جلست إلى جواره، وفي المقعد الخلفى جلس فينكل وكابيل متجهين جنوبا في ولاية "شيباس" نحو أحد المناطق الأثرية الأكثر أهمية في حضارة المايا القديمة وهى "بالينكا". المسافة إليها من فيلا هرموزا تبلغ مائة وثمانين كيلو مترا جنوبا نقطعها في حوالى ثلاث ساعات، نظرا لصعوبة الطريق وضيقه بما فيه من تعاريج متتابعة ومنحنيات حادة صعودا وهبوطا بين الجبال والأحراش، لهذا كان ضروريا أن نبدأ رحلتنا مبكرين. يجب أن أعترف أننى استمتعت بهذا الطريق كأروع ما رأيته في حياتى من جمال

الطبيعة وعبقريتها فقد شق الطريق في الأدغال لتصبح الخضرة المتمثلة في النباتات والأشجار الكثيفة غذاء لا ينفد لأبصارنا يحيى نفوسنا بالاستبشار والأمل دون لحظة توقف أو انقطاع.

كان فابيو بارعا في قيادة السيارة بتلك السرعة في منحنيات تفاجئه يمينا ويسارا وأنا في دهشة كأننا في مضمار السباق. لم أشهد طريقا مثل ذلك إلا في سويسرا حين صعدت في الجبال.. أيضا يضارعه جمالا وبهاء.

في منتصف الطريق رغب فينكل أن يشهدنا براعته في القيادة على هذا الطريق الصعب فاستبدل مكانه مع فابيو وهما ينظران إلى بابتسامة ذات مغزى وقد لاحظا توترى للسرعة التي كان يقود بها فابيو دون أن يطرف له رمش. بعد قليل انطلقت السيارة بسرعة أكبر من ذي قبل كأنه اختبار لقوة الاحتمال. لكننا وصلنا سالمين على كل حال والساعة تقترب من التاسعة، كأن الشوق لرؤية المكان هو الذي حملنا إليه سريعا وليس مهارة السائقين.



سمعت عن أن نظريات بعض المؤرخين وباحثي الحضارات، توحى بانتقال الحضارة الفرعونية إلى المكسيك وبيرو؛ مدللين على ذلك باكتشاف أهرامات المايا التي زعموا أن المصريين القدماء نقلوا فكرتها معهم وهم يعبرون المحيط، حتى أن أحدهم وهو "ثور هايردال" حاول إثبات إمكانية ذلك برحلته الشهيرة مستخدما قاربا صنعه من ورق البردي ليشبه تصميمه القوارب التي استخدمها الفراعنة في رحلاتهم عبر نهر النيل. كانت الفكرة مثيرة للخيال، فأضفت على شوقي للمعرفة وبينى أهرامات المايا خطوات، بعدا غريبا من الرهبة وخشية التطاول على حقائق التاريخ.

الأمر بدا مختلفا منذ الوهلة الأولى لإدراك البصر لما حوله من مشاهد. كانت الأهرامات أمامنا عبارة عن مبنى مدرجة تعلوها عدة حجرات متلاصقة تبدو بيتا لشيخ قبيلة أو كاهن ديانة ذات مكانة خاصة، يتوسط المبنى سلم يمتد من مستوى الأرض حتى قمة المبنى يصل إلى ما يقرب من تسعين درجة من الواضح أنها تستخدم للصعود والهبوط. هي أبعد ما تكون عن أهرامات الجيزة الشهيرة ولا تشبه هرم سقارة المدرج سوى في التدرج الهرمي للمبنى بصفة عامة. الرهبة التي يشعر بها المرء واقفا بين أهرامات الجيزة مواجهها أبا الهول لا باعث لها أمام مباني المايا المدرجة، لكنه الفضول واحترام التاريخ البشري أينما دلت عليه آثاره خاصة إن دلت على عبقرية في البناء والعمارة.

قال كاييل ونحن نصعد إحدى تلك المدرجات وكان يعلوه برجاً من ثلاثة طوابق: من العجيب أنهم اكتشفوا تلك الأهرامات من الجو وكانت الأشجار الكثيفة تمنحها غطاء طبيعياً يصعب اختراقه، هكذا باتت في أحضان الأدغال ما يزيد عن ألف وخمسمائة عام ثم بدأت إزالة ذلك الغطاء وكشفها للأنظار. كان البحث عن بقايا حضارة المايا قد بدأ منذ القرن التاسع عشر..

قلت مقارنا بين الأبنية المختلفة من حولنا: إنها غير متشابهة تماماً في تصميماتها خاصة في القمة.. يتميز هذا المبنى الذي نصعده بذلك البرج الذي يبدو وكأنه كان يستخدم للمراقبة، وهو لا يوجد في غيره من المباني من حوله.

قال كاييل: هذا المبنى أهمها، ويطلق عليه "البلاسيو" أو القصر، هذا الذي يليه يسمى معبد الشمس والآخر اسمه معبد الصليب والآخر لها أسماؤها التي نسيته.

قال فينكل وكان يتابع حوارنا: الدين له سلطانه أيضاً في تلك الحضارة.

قال كابييل: أمر الملك "باكال" الحاكم القديم لباليينكا ببناء أحد المعابد كي يجعله مقبرة مقدسة له بعد موته.

قال فاييو: هذا ما أراده أيضا الفرعون القديم خوfo حين أمر ببناء هرمه الشهير في مصر.

قلت: لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الدين والموت في الحضارات القديمة.

قال فاييو: عموما لا شيء يريح الإنسان في سؤال الموت غير ما تقدمه الأديان من أمان الغيب.

قال فينكل: في الماضي احتاج الإنسان للأسطورة يقصها الكاهن ليطمئنه عل غده، لم يكن العلم قد اخترق طلاسـم الطبيعة بعد. الآن يوجد تفسير لأشياء كثيرة والبحث يكشف المزيد، بالتالي تقل الحاجة ويضعف الاعتماد على غير العقل، الموت مسلمة من مسلمات الطبيعة يخضع لها كل الأحياء، من نبات وحيوان وإنسان.

قلت: العلم لا يفسر حتمية الموت كما أن الدين لا يخاطب خوف الإنسان من المجهول فحسب وإنما يخاطبه أيضا في حياته الحاضرة، لا أظن حياتنا تستقيم وتستمر دون سند أخلاقي، والدين هو المحقق لهذا السند إلا إذا تصورنا حياة الحيوان خيارا مناسبا للإنسان. حينئذ لا نجد معنى لوجود الإنسان على الإطلاق.

قال فاييو: هذا الجدل سوف يستمر مادام وجود الإنسان. اندثرت حضارة المايا وغيرها وذهب الذين أسسوها تاركين تلك الآثار تثير من الأسئلة أكثر مما تعطي إجابات.

قال كابييل متحمسا: حضارة المايا لم تندثر، لا يزال هناك ستة ملايين من أبناء المايا يعيشون في المكسيك وجواتيمالا وبليز. ربما يمكن القول أن مدنها هجرت أو اندثرت في القرن العاشر لكن شعب المايا لم

يختلف من الوجود أكثر مما اختفى الإيطاليون حين انهارت الإمبراطورية الرومانية مثلاً.

ابتسم فابيو وقال: لا يمكننا أن نقول عن الحضارة الفرعونية أنها لا زالت قائمة لأن المصريين لا يزالون يعيشون ويسكنون مصر.

أصر كايل قائلاً: لا أقصد وجود نسلهم فقط وإنما أقصد طريقتهم في الحياة أي ثقافتهم أيضاً. بالرغم من المحاولات المستميتة المستمرة لمئات السنين لإفناء تلك الثقافة أو دمجها في الثقافة المعاصرة استمسك شعب المايا المعاصر بطريقته الفريدة في الحياة ومعتقداته المتوارثة، إنهم لا يزالون حتى اليوم يمارسون طقوسهم في الجبال والكهوف، يقدمون القرابين لألهتهم من الطيور والشموع والبخور، لا يزال تقويمهم السنوي يحسب ٢٦٠ يوماً، واستمر علاجهم لمرضاهم بطرد اللعنات وإرضاء الأسلاف الغاضبين.

كان صمتاً تعبيراً عن الدهشة وعدم التصديق فأضاف كايل مؤكداً: غير بعيد من هذا المكان توجد قرية يعيش فيها بضعة آلاف من شعب المايا كما كانوا منذ مئات السنين، حتى لغتهم القديمة لا يزالوا يتحدثونها وهي لغة غير مكتوبة، إلى متى سيصمدون أمام ضغوط التمدن والمعاصرة التي تتزايد لإفنائهم أو بالأحرى إفناء ثقافتهم، لا أحد يدري.

كل ما سمعناه كان مدهشاً، زاد دهشة، تما قوله: لا أظن أحداً منكم يذكر الحاصل على جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٩٢، اسمه "ريجو بوتا منشو توم" قال عن شعبه المايا: "نحن لسنا أسطورة من الماضي ولا بقايا تخلفت في الأحراش وحدائق الحيوان، نحن شعب حي يجب أن نحترم لا أن نصبح ضحايا العنصرية والاضطهاد".

لا شك أن نقاشنا خاصة ما قاله كايل هيا فينا استعداداً لتلقى إحياء من تلك الأحجار أنها ليست فقط رمزا على بقايا من تاريخ اندثر،

وإنما هي إشارة لحياة لا زالت مستمرة، من الغريب أن هذا الاستعداد لا غنى عنه لفهم تاريخ الإنسان، كانت تلك إضافة هامة لبحثي المستمر عن الحقيقة.

قضينا ما يزيد عن ثلاث ساعات في تجوال وتأمل ما حولنا مستمتعين بالجو الرائع الذي أحاطنا في هذا المكان، الشمس الساطعة والحرارة المعتدلة، ثم اقترح فابيو أن نختم جولتنا ليتوفر لنا وقت نشاهد فيه شلالات "أكوا أزول" التي تبعد حوالي ستة كيلو مترات عن بالينكا، هنالك نعمنا بالمشاهد الخلابة لاندفاع المياه من ارتفاع شاهق في الجبال نحو منحدرات صخرية متعددة المستويات حتى تصل إلى المستوى الذي نقف فيه لتصبح مجرد أنسياب رقرق في مجرى نهر يلهو فيه الصبية بالسباحة. كان المشهد أقرب ما يكون لأسطورة رائعة الجمال، تقفن العقل وتثرى الحس وتفعم النفس بإحساس لا ينسى بروعة الطبيعة وإبداع الخالق.

بعد ذلك تناولنا غداء خفيفا وعدنا إلى الفندق مع غروب الشمس وقد تشبعت النفس في لحظة نادرة بكل ما هو جميل في الحياة، ثم حزمنا حقائبنا لتتوجه في الصباح إلى الموقع الخامس لعملنا حيث قضينا ليلة في ضيافة الشركة، ومع انتهاء اليوم الثاني في هذا الموقع توجهنا مباشرة إلى مطار "فيلا هرموزا" عائدين إلى مكسيكو سيتي لقضاء ليلة الثلاثاء، ومن هناك إلى المحطة السادسة والأخيرة في مدينة "بوتساريكا". كان لابد من التوجه إلى مكسيكو سيتي فهي مركز الطيران لكافة أنحاء المكسيك منها تتطلق كل الرحلات الداخلية.



رحلتنا إلى "بوتساريكا" لم تستغرق ساعة من الزمن؛ حملتنا فيها إحدى الطائرات الصغيرة على ارتفاع يسمح بمشاهدة المباني والطرق. كان مشهد المدينة من السماء مفرعا من هول الدمار الذي أصابها نتيجة

الفيضانات العاتية، لكننا حين شاهدنا هذا الدمار عن قرب من نافذة السيارة التى أقلتنا إلى الفندق أصابنا الذهول، لم ينطق أحد بكلمة واحدة، الشوارع مهدمة، المنازل ذاب طلائها، انتشر البلل وآثار المياه حتى الأدوار الأولى، في بعض المساحات المنخفضة زالت برك المياه ساكنة تنتظر حرارة الشمس كي تجف، بعد أن عجزت قدرات الإنسان عن التخلص منها وإعادة المشهد لجدواه وصحته. بالرغم من كل ما شاهدناه كانت الحياة تدب وتنتشر متغلبة على تحديات الطبيعة القاسية، ما أروع إرادة الإنسان.

وصلنا الفندق بعد نصف ساعة، فندق صغير نقضى فيه ليلتين، أثناء تسجيل أسمائنا في مكتب الاستقبال نظر إلى فينكل في حيرة، لم أفهم السبب فسألته: هل حدث خطأ ما؟ أجابني باضطراب:.. فقدت حافظتى التى كنت أحملها في جيبى، بها نقودى وكارت الائتمان وجواز سفرى. سألته مستفسرا؟ هل أنت متأكد أنك لم تتسها في مكسيكو سيتى؟

- تمام التأكد، لابد أنها سقطت من جيبى في الطائرة أو في سيارة الأجرة.

- كان بها بعض النقود؟ مبلغا كبيرا؟ الأخطر هو وقوع كارت الائتمان في يد غريبة.

سألنا موظف الاستقبال إن كان بإمكانه اقتفاء أثر سيارة الأجرة التى نقلتنا من المطار ومحاولة الاتصال بشركة الطيران فأفاد بأنه سيفعل ما يستطيع. اتصل فينكل على الفور ببرنامج الطوارئ التابع لبطاقة الائتمان وأوقف التعامل بها كإجراء احترازي، بدأنا نشعر بالقلق لضیاع جواز السفر الذى سوف يسبب ارتباكاً لفينكل خاصة مع اقترابنا من إنهاء مهمتنا وإتمام الحجز لعودتنا إلى أوروبا بعد أربعة أيام. بعد نصف ساعة أخبرنا موظف الاستقبال أنه أمكن الاتصال بسيارة

الأجرة والذي عاد سائقها إلى الفندق على الفور حين علم أن أحد الركاب ممن نقلهم إليه قد فقد حافظته.. لم يسفر البحث في السيارة عن شئ، في نفس الوقت كانت المحاولات للاتصال بشركة الطيران مستمرة حتى أمكن الوصول إلى شخص مسئول يمكنه المساعدة، أفاد أن الطائرة في طريق عودتها إلى مكسيكو سيتي، لكنه تم الاتصال بقائدها في الجو للبحث عن حافظة فينكل وأعطى رقم مقعده الذي جلس فيه مسافرا إلى بوتساريكا.. وأن علينا الانتظار.

صعدنا إلى غرفنا لوضع حقائبنا والاغتسال ونحن في لهفة لسماع نتيجة المحاولة الأخيرة. بعد حوالي ساعة اتصل بي فينكل مسرورا معلنا أن قائد الطائرة أبلغ عن العثور على الحافظة ملقاة بجوار مقعد فينكل وأنه سيرسلها مع طائرة الغد إلى المطار ومنه إلى الفندق.. عادت الحافظة إليه غير منقوصة بالرغم من كل تلك الملابس المتشابكة. سألته بعد أن هدأت المسألة: انتهى الأمر على خير، أظنك فقدت الأمل في العثور عليها، لكن القدر يحمل أحيانا مفاجآت سارة.

أجابني في هدوء ظاهر: على العكس كنت أتوقع العثور عليها لكن فارغة من النقود وكارت الائتمان.

لاحظ دهشتي من إجابته فأضاف: احتمال السرقة وارد لكن احتمال تعمد الإضرار غير وارد بنفس الدرجة.

- ألا يعتبر السارق بسرقة متعمدا الإضرار بمن سرقه؟

- نعم إذا مد يده في جيبه، لكن في حالتي كان إهمالي في الحفاظ عليها هو سبب الضرر، ربما وجدها شخص في حاجة للنقود واعتبرها حقا جائزا له.

- الضمير في تقديرى لا يتجزأ، من يضع يده في جيب سواه أو على ممتلكات غيره مهما كان، يرتكب خطأ أخلاقيا واضحا لا مبرر له من دين أو عرف أو قانون.

لا أعارضك في ذلك، لكن للنفس حيلها في تبرير ما تريده، مهما كان باعث الضمير، كم من كهنة وقساوسة وشيوخ ورجال دين في كل مكان سرقوا ما هو أغلى من المال، على كل حال طبائع البشر لا تصمد كثيرا أو طويلا أمام نوازع الغريزة والاستحواذ من أقواها أثرا، ويتساوى حينئذ الدين والعرف.

كان ذلك فهما غريبا للأمانة يفسر دافعها بالغريزة وليس بالضمير، هو أقرب للبحث في جينات الإنسان، عن التصديق بالخير والشر في نفسه، صورة أخرى من التسليم للعلم بكل شيء في حياتنا وتجنب ميراث البشرية من العقائد والأديان، لكن أليس هذا هو لب الحضارة الغربية الحديثة وفينكل أحد أبناء جيلها الأوفياء؟ تداعت في ذهني تصورات وفروض لا حصر لها كان أكثرها قتامة، أن صراعا لا شك سوف يندلع ويحتدم أواره كلما تقاربت أطراف الأرض وتشابكت مصالح البشر الأحياء فوقها.



انتهينا من عملنا في "بوتساريكا" خلال يومين وعدنا إلى مكسيكو سيتي مساء يوم الجمعة. قضينا عطلة نهاية الأسبوع في مراجعة تقارير الرحلة كلها وتسليمها لفابيو لترجمتها إلى الأسبانية، بدأ العد التنازلي لمغادرة المكسيك. مضت الأيام والأحداث متلاحقة دون انقطاع، حين حسبنا ساعات العمل المستهلكة وجدناها ضعف وقت العمل المطلوب، لكننا كنا راضين بما وصلنا إليه من نتائج بالرغم من الإجهاد، قررت مع فينكل أن نستغل الساعات الباقية في شراء بعض الهدايا للأهل والأصدقاء فانطلقنا ظهر الأحد نستكشف صناعة المشغولات الزجاجية والفضية في هذا البلد الرائع المشهور بحرفيته في تلك الصناعات خاصة إنتاجه العالي الجودة من معدن الفضة.

اشترت بعض الأكواب الزجاجية يدوية الصنع يحوى كل منها عصفورا ملونا من الزجاج لم أقاوم جماله ورقته. أثناء بحثنا عن سوار من الفضة في أحد الأحياء المكتظة بمحلات الفضة تقدم منا شاب يحمل حقيبة بها معروضات مختلفة من حلى الفضة بدأ يستعرضها أمامنا محاولا إقناعنا بالشراء بطبيعة الحال. لاحظت سوارا دقيق الصنعة جذاب المنظر أخذت أتأمله بإعجاب ظاهر، لكننى وجدته أكبر حجما مما أريد، أكد لى الشاب أنه يمكنه ضبط مقاسه وإحضاره في صباح الغد حيث أقيم، اعتذرت له بأننا سوف نغادر المكسيك في الغد فعرض على أن يفعل ذلك ويحضر إلى الفندق في الثامنة مساء اليوم لتسليمه، لكنه طلب أن أدفع له مقدم ثمن لأن ذلك سيكونه. بعد لحظات من التفكير دفعت له مبلغا وعدنا إلى الفندق. بدا فينكل مندهشا من تصرفى سألتنى ماذا يضمن لك صدقه، لا يوجد له عنوان محل يمكنك الرجوع إليه!

أجبتة ضاحكا: معنا بطاقته فيها عنوان مسكنه وتليفونه. ما فعلته في الحقيقة مجرد اختبار مقابل خمسين دولارا. سوف نرى إن كان صادقا فيما وعد.

لم يبد عليه الاقتناع فأضفت لأزيد حيرته

. عرف أننى عربى من مصر وعرفت أنه يهودى من أصول فلسطينية.. لا تقلق انتظر حتى الثامنة مساء.

كان الشاب قد أخبرنى وفينكل مشغول في فحص معروضاته أنه يهودى يعيش في المكسيك ويتمنى زيارة إسرائيل أرض أجداده ذلك حين عرف أننى مصرى في زيارة عمل للمكسيك. شعرت نحوه بالثقة لأنه لم يخف تلك الحقيقة وعولت على فراستى.

انتظرناه في بهو الفندق في الثامنة مساء لكنه لم يحضر، نظر إلى فينكل في فضول يستتبط رد فعلى فطلبت منه الانتظار قليلا ربما أعاقه مرور مكسيكو سيتي المرتبك. في الثامنة والثلاث شاهدناه يهرع من مدخل الفندق باحثا عنا بعينيه في توتر واضح حتى لمحنا فهورل نحونا معتذرا عن تأخره، أعطاني السوار على الفور وحصل على باقى الثمن شكرته ودعوته لشراب لكنه اعتذر لضيق وقته وغادر مسرعا. قال فينكل بعد أن غادر وهو مشغول الفكر

- بالرغم من الصلة التي تحاول إثباتها بين الدين وبناء الضمير أرى المسألة بشكل مختلف، باعث الشاب الربح ونجاح تجارته، هو يعلم أن النصب والاحتيال مآله الخسارة والانهيال ولو حقق بهما مكسبا أسهل وأسرع، لن يختلف في ذلك يهودى أو مسلم أو كافر، فقط ذكاؤه وبعد نظره.

قلت: لكنك دهشت من تصديقى وعده بالحضور بعد أن حصل على خمسين دولارا.

- نعم، مجرد مقارنة بين غريزة التملك وبعد النظر، ليس للضمير دور فيها.

قضينا شطرا من آخر ليلة لنا في المكسيك متجولين في الحدائق الواسعة التي تحيط الفندق، نتجاذب أطراف أحاديث شتى ثم عدنا لأخذ قسط من النوم استعدادا لسفر طويل عائدين إلى الوطن.



فى طريقنا إلى الطائرة استحثى فينكل أن نتباطأ قليلاً ربما
حصلنا على تذكرتين للدرجة الأولى كما حدث فى رحلتنا من باريس
إلى مكسيكو سيتي

قلت له مازحاً: يا صديقي الحظ لا يمكن الترتيب له، يحدث دون
انتظار!

أجابني جاداً: هناك قوانين لكل شئ، لا شئ اسمه الصدفة

ولم يكن مصيباً هذه المرة!



ميدان الدستور، وصورة حية من التاريخ



في "لافنتا - فيلا هرموزا"



یہ "بالینکا"



یہ "اکوآزول"



رحلة في جدول "مكسيكو سيتي"

جمهورية نيجيريا الفيدرالية

يدهشني دائما كيف تتشابك خطوط الزمن في حياة الإنسان وتتحول من طريق صاعد هابط إلى طرق متعرجة متقاطعة لها نفس النهاية، ننظر إلى الخلف متصورين اتجاهها ثابتا للزمن فإذا به نسيج من الأحداث يتخطى رؤيتنا الضيقة لما هو ماض وآت إلى منظور قدرتي لا يعبأ كثيرا بالأسباب والنتائج.

بعد انتهائي من أداء الخدمة العسكرية بدأت رحلة البحث عن عمل عثرت أثناءها على إعلان لوظائف شاغرة لمهندسين حديثي التخرج في نيجيريا، أرسلت سيرتي الذاتية على العنوان المذكور فإذا بي ألتقى موعدا للمقابلة في سفارة نيجيريا بالقاهرة. في المقابلة اكتشفت لجنة المراجعين أنني أحمل تخصصا في الهندسة البحرية وعمارة السفن ودهشوا لدعوتي إلى هذه المقابلة لأنهم ليسوا في حاجة إلى هذا التخصص، تبين لهم أن السبب في حدوث هذا الخطأ هو كلمة عمارة لأنهم في حاجة لمهندسين معماريين، وهو تخصص يختلف تماما عن تخصصي الذي كان واضحا في سيرتي الذاتية، لكن يبدو أن الموظف الذي نظر في طلبي فاته هذا الاختلاف، تلقيت اعتذارا رقيقا وعدت إلى الإسكندرية يومها ببعض الإحباط.

بعد مرور ما يقرب من عشرين عاما على هذه المقابلة استدعاني رئيسي في العمل واخبرني بطلب المركز الرئيسي لشركتنا في ألمانيا أن أستعد للسفر إلى نيجيريا خلال أسبوع لفحص بعض السفن ومراجعة نظم السلامة المتبعة في إدارتها. بالطبع كانت معرفتي بالعالم قد ازدادت ولم يكن خافيا على أحد خطورة التواجد في نيجيريا لما يدور فيها من أعمال عنف تشمل الخطف والابتزاز وأحيانا القتل، لذا كان الطلب مزعجا لكن الاعتذار عن عدم تنفيذه غير ممكن، فبدأت استعد له.

مر الأسبوع دون أن يتأكد موعد السفر ثم تلاه أسبوع آخر ولما حاولنا الاستفسار عن السبب عرفنا أن هناك حربا أهلية نشبت بين بعض القبائل في المناطق المزمع السفر إليها داخل نيجيريا ولا أحد يعلم متى تنتهي تلك الحروب إذا اندلعت؛ فقد تنتهي في أسبوع إذا أمكنهم التوصل لاتفاق، أو تستمر لأشهر حتى يتفقوا، ولا يمكن لأحد الانتقال في تلك المناطق أثناء الحرب بطريقة مأمونة؛ لهذا تم إرجاء مهمتي لأجل غير معروف وربما يتم إلغاؤها تماما، شعرت ببعض الطمأنينة.

لكن هذا الشعور لم يدم طويلا فقد أخطرنا بعد حوالي أسبوعين أن الهدوء قد عاد، ويمكنني السفر فورا. كانت هناك توصية لأصحاب السفن صادرة من ألمانيا بضممان سلامتي ومرافقتي في كل تنقلاتي أثناء تواجدي في هذا البلد حتى عودتي، وبدا أنه لا بد مما ليس منه بد.



حطت الطائرة في مطار "لاجوس" أكبر مدن نيجيريا والعاصمة السابقة التي تقع على خليج غينيا الممتد من المحيط الأطلنطي. توجهت نحو بوابة الخروج تتابني مشاعر متعارضة بين الشوق لرؤية بلد أفريقي يقع في غرب القارة السوداء ذي أغلبية مسلمة، وبين التوجس والحذر من السمعة السيئة للفوضى والفساد التي تحيط باسمه كلما ذكر.

نيجيريا أكبر بلد في أفريقيا من حيث عدد السكان الذي يبلغ في بعض الإحصاءات مائة وخمسة وثلاثين مليون نسمة أكثر من ستة ملايين منهم يعيشون في "لاجوس" وحدها. يوجد في نيجيريا أكثر من أربعمائة مجموعة عرقية أو قبلية أهمها "هوسا" و"فولاني" في الشمال، يوربا في الجنوب الغربي و"ايجبو" في الجنوب الشرقي، يساوى هذا العدد من القبائل عدد اللغات المتداولة في هذا البلد، لهذا تنتشر الإنجليزية كلفة رسمية للبلاد بتأثير الاحتلال البريطاني بالطبع والذي انتهى بالاستقلال عام ١٩٦٣.

استوقفني ضابط شرطة قبل اقترابي من الجوازات وسألني من أين أتيت وما سبب زيارتي لنيجيريا ، هل هي الأولى ، هل أحمل بطاقة طبية صالحة.. الخ.

حين تفحص ما أحمله من وثائق بدأ ملاحقتي بمجموعة أخرى من الأسئلة والاستفسارات مشككا فيما أجيب به ، ثم سمح لي بمتابعة سيرى ليتلقف اثنين من الركاب الآخرين أتيا من اليابان ، كانت إجابتهما أكثر خشونة مما حاولته أنا في أدب وصبر فأفلتتهما بسرعة.. خطر ببالي أن الإجابة المؤدبة ربما توحى للسائل هنا بضعف المسئول واحتفظت لنفسى بالملاحظة حتى تكررت نفس الأسئلة من ضابط الجوازات فرددت عليه بخشونة غير مألوفة حينئذ لم يستغرق غير دقيقة في فحص جوازي وتركني أمضى لحال سبيلي.

خرجت من صالة القادمين باحثا عن مستقبلي من الشركة المشرفة على السفينة موضوع المعاينة ، اسمه كابتن جيرى بريطاني الجنسية ، لم يستغرق بحثي ثوانى معدودة ، وجدته بانتظاري ومعه سائقه الذى بدأ من ملامحه أنه من مواطني البلد ، حملني فى سيارته مخترقا شوارع لاجوس المزدحمة بالمارة الممتلئة بالمطبات والحفر.. خاطبني بعد قليل من استقراري فى السيارة قائلا: هل تفضل التوجه إلى حوض السفن لبدء العمل أو إلى منزل الضيافة حيث رتبت إقامتك ، هو لا يبعد كثيرا عن مكان العمل توفيراً لوقت الانتقال.

أجبتة فى صراحة: الرحلة من القاهرة لم تكن مرهقة لذا أفضل أن أبدأ العمل ، لكنني أفضل الإقامة فى الفندق الذى نصح به مكتبنا فهو أكثر أمانا كما تعلم.

رد بقوله: إقامتك فى الفندق سوف تستلزم المرور خلال شوارع المدينة فى الذهاب والعودة وهى كما ترى تعج بالفوضى ، لكن إذا كنت مصرا دبرناه لك.

- يمكننا البدء مبكرا لتفادي تلك الفوضى لكنني مضطر للعمل بكل ما نصحت به لتفادي المتاعب.

كنت أحاول فتح نافذة السيارة أثناء حديثي فتبهني قائلاً: فتح نوافذ السيارة أثناء السير غير آمن هنا..

أعدت زجاج السيارة إلى موضعه مع شعور متزايد بالحواجز من حولي. بعد لحظات توقفت السيارة أثناء صراعها لعبور أحد التقاطعات وإذا بأعداد غفيرة من الباعة الجائلين تحيط برتل السيارات العاجز عن الحركة يمرق كل منهم حاملاً كل ما يخطر على البال مما يمكن الاتجار به بدءاً من الخبز وانتهاء بالأجهزة الكهربائية مثل الكاسيت والتليفزيون، لا أدري من أين هبطوا ولا كيف يعودونا من حيث أتوا حين تستعيد السيارات فرصة الحركة من جديد. هنالك أدركت الحكمة من غلق النوافذ في السيارة كإجراء احترازي ضد من تتخطى نواياه حدود البيع إلى السرقة أو الخطف أو مجرد الإيذاء. كانت الرحلة إلى ترسانة السفن في المرة الأولى مزعجة ومفاجئة يتضح منها سبب اقتراح جيرى بتفادي تكرارها يومياً في الذهاب والإياب، لكنني التزمت باختياري للإقامة في الفندق.

وصلنا إلى الترسانة حيث قابلت مدير الإصلاح وهو هولندي الجنسية، كانت السفينة موضوع المعاينة قد رفعت فوق قزق الإصلاح في انتظار المعاينة وتحديد ما يلزم إصلاحه أو استبداله. ارتديت ملابس العمل فوراً واصطحبني المهندس المكلف بالسفينة وهو نيجيري اسمه "أوبي"، أبدى ترحاباً حين عرف أنني قادم من مصر، سألني ونحن نصعد على ظهر السفينة كم أقدر من وقت لإتمام المعاينة، أجبت: - هذا يعتمد على النتائج الأولية للمعاينة وتوافر قطع الغيار، لكنها عادة تستغرق من يومين إلى ثلاثة إذا لم تبرز ضرورة لإصلاح جسيم.

- ستعود بعدها إلى مصر طبعاً؟ لازل أمامي أربعة سفن أخرى في
"بورت هاركورت"

- إذن سوف تمتد إقامتك في نيجيريا بعض الوقت أتمنى لك إقامة
طيبة، نحن نتناول غداءنا في الساعة الواحدة ويسعدنا أن تقبل الانضمام
إلينا.

قبلت دعوته شاكراً وبدأنا العمل. توالت لقاءاتنا وتشابكت أحاديثنا
مع زملائه الآخرين، هذا اليوم والأيام التي تلتها.

سألت قبطان السفينة وهو نيجيري اسمه "أوبو" أثناء أحد هذه
اللقاءات

- كيف يمكن لنزاع نشب بين بعض القبائل أن يؤثر على حركة
السفن ويمنعك من الوصول إلى ورش الإصلاح في موعذك، تولد لدينا
شك أن مالك السفينة يتقاضى إجراء الفحص لعيوب جسيمة سوف
نكتشفها بالمعاينة؟

أجابني مبتسماً: لقد شاهدت بنفسك حالة السفينة، ليس لدينا ما
نخفيه وسنقوم بإصلاح أو تغيير ما توصينا به قبل عودتك، أما تخلفنا عن
موعدنا بسبب تلك الحروب فهو أمر معتاد في نيجيريا، الحياة كلها
تتوقف في مناطق النزاع وليس فقط إبحار السفن.

سألته في سذاجة واضحة: وأين الحكومة المركزية من تلك
الصراعات الأهلية؟

أجاب مستفيضاً في الشرح: القبائلية أو العرقية أحد الركائز الهامة
لفهم المجتمع النيجيري هي تمييز بين مجموعات البشر المقيمين في هذا
البلد على أساس تاريخي جغرافي ثقافي. على الأساس العرقي تتحدد
أيضاً فرص الحياة للأفراد، لا تتدهش فهو أشبه ما يكون بالتمييز
العنصري!

فى الحقيقة كان عدم تصديقي لما أسمعهُ أكبر من دهشتي،
أضاف ربما ليخفف من أثر صراحته

- عموما السياسات المركزية الحالية تعمل على نشر روح التسامح
وقبول العيش مع الآخر وكبح جماح الظلم الاجتماعي الناشئ بسبب هذا
التمييز العرقى، لكننا جميعا نعلم أن العادات القديمة تختفي ببطء،
لهذا لا يزال الاحتكاك القبلي موجودا مسببا تلك الحروب بين الحين
والحين. المهم أن هذا ينحصر بين المتخاصمين حتى يثوبوا إلى الرشء أو
تختفي المصلحة من القتال. كان حظنا السيئ أن مركبنا فى منطقة
القتال، حينئذ لا حيلة لنا سوى الانتظار.

قلت: من المذهل أن يضم بلد واحد أربعمائة مجموعة عرقية تتحدث
أربعمائة لغة كما قرأت، أما كان من الممكن أن يوحد بينهم دين،
يساوى بين أقدارهم كما فعل الإسلام فى الجزيرة العربية؟

قال "أوبى" وكان يتابع النقاش باهتمام: لعلك سمعت عن الفتن التى
تنشأ بين أصحاب الديانات المختلفة هنا خاصة الإسلام والمسيحية أكبر
ديانتين فى نيجيريا، تصل فى بعض الأحيان إلى القتل والحرق، إذا لم
يوحد الوطن الواحد والمصير المشترك بين فئات المجتمع هل تظن الدين
يفعل ذلك؟

قال "أوبى" مؤكدا: إذا انتشر الظلم الاجتماعي والتمييز العرقى فى
مجتمع ما فهو فى حاجة إلى معجزة كي يتوحد أفرادُه. بالرغم من
الثروات الطبيعية التى تتمتع بها نيجيريا وعلى رأسها البترول يعانى غالبية
النيجيريين من الفقر.. فقط قلة منهم يحوزون ثروة طائلة.. من هنا ينتشر
الفساد وينعدم الانتماء.

قلت: لكن هذا بالضبط كان حال العرب قبل أن يبرز الإسلام فى
أرضهم ويحولهم إلى مجتمع قوى متماسك استطاع تأسيس حضارة زاهرة
فى وقت قياسي لا تزال تحير المؤرخين.

قال "أوبى" مبدىا إمامه بتلك القضية: يعتنق الإسلام حوالي نصف النيجيريين وهو يشكل الغالبية العظمى في الشمال حيث بدأ انتشاره في القرن الحادي عشر ثم استقر كديانة أساسية في القرن السادس عشر وأخذ يتقدم نحو الوسط حتى اصطدم ببعض القبائل التي أعاقته تقدمه وانتشاره في الجنوب خاصة مع قدوم المستعمرين الإنجليز ومعهم حملات التبشير بالمسيحية، لهذا تشكل المسيحية الديانة الأساسية في الجنوب بنسبة تصل إلى ٣٥% من مجموع النيجيريين، كان السبب في سرعة انتشار المسيحية إدراك قيمة التعليم الذي تنظمه الإرساليات للسكان المحليين، لكنك ستجد المساجد مقامة أيضا في الجنوب خاصة في "لاجوس"

قلت موضعا وجهة نظري: من الغريب أن يؤدي اختلاف الديانات إلى التقاتل، في نظري الاتفاق بين الأديان أعمق كثيرا من الاختلاف بينها وأدعى إلى تقارب البشر وإثراء الإنسانية.

قال القبطان: نعم، إذا خلصت النوايا واتحدت المقاصد وهو مستحيل لأنه يتعارض مع طبيعة البشر المشبعة بالأنانية والجشع، وهو ما يؤكد الماضي ويستعرضه الحاضر وينبئ به المستقبل.

قلت: هذه نظره يائسة وإن كنت أفهم أسبابها إلا أنني لا أشاركك فيها.

قال "أوبى" مؤيدا زميله: حين تعيش في هذه البلد وترى ما يحدث فيه تميل إلى تصديق ما نقول، كان حظنا أوفر من ملايين غيرنا لأننا تعلمنا وحصلنا على عمل وفرلنا قدرا معقولا من الحياة الكريمة، لكننا حين نرى الجوع والفقر متفشين حولنا وما يملكه وطننا تستنزفه بانتظام قلة من الشركات العالمية تعينهم على ذلك مجموعة من الفاسدين يصيبنا الإحباط واليأس.

سكت قليلا ثم قلت مواسيا: هذا حال العالم الثالث خاصة في أفريقيا لكن الحياة بدون أمل مستحيلة.

فجأة قطع حديثنا صوت انفجار مدوي صاحبه صياح العمال في حوض الإصلاح، خرجنا مهرولين نستطلع ما جرى، كانت ساعة الغداء حيث يتوقف العمل، لفتت نظرنا سحب من الدخان الأسود الكثيف تبعث من مكان ليس ببعيد عن موقعنا. وقفنا مشدوهين نتابع تدفق الدخان نحو السماء دون توقف، قال أحد العمال الواقفين من حولنا: يبدو أن حريقا اندلع في أحد أرصفة الميناء أو ربما في إحدى السفن الراسية هناك.

بعد دقائق كنا في المبنى الإداري للترسانة نستوضح ما حدث، قال المهندس الهولندي وبدا على علم بما جرى: أخبرنا أحد زملائنا القريبين من موقع النيران أن ناقلة بترول قد انفجرت وقد قام بتصويرها، هو في طريقه إلينا الآن ومعه الصور.

نظرنا إلى الصور في هلع، النيران تحيط بناقلة البترول كأنها كانت محملة بكتل من اللهب انشقت من بدنها الذي انشطر جانبه؛ كأنها مصنوعة من ورق. وليس من حديد. حملت صحف الصباح صوراً مشابهة معلنه أن السفينة كانت فارغة من البترول وأن أحد العمال كان يقوم بلحام بعض الأجزاء التالفة من الحديد داخل أحد العنابر الفارغة دون أن يتأكد من خلوها من الغازات القابلة للاشتعال وهو إجراء ضروري قبل البدء بأعمال الإصلاح باللحام. مع الشرارة الأولى للحام انفجرت السفينة وقتل من ساء حظه وتواجد على متنها في تلك الثانية، لم يكن هنالك من تعليق يقال؛ فالكارثة لها مقدماتها التي لا تغفل العين عن حصرها وإن عز على العقل أو الضمير قبولها.

أثناء اصطحابي من الفندق في اليوم التالي قال كابتن جييري وهو ينظر إلى صور السفينة المشتعلة: يعتاد المرء هذه الكوارث كلما امتدت

إقامته في هذا البلد ، الناس أيضا لا تستشعر لهم أي رد فعل ، اهتمامهم الوحيد الحصول على المال بأية طريقة ممكنة.

قلت مداعبا: مكث الإنجليز في نيجيريا أكثر من مائة عام لا بد أنكم تعرفون عنها ما لا نعرف.

— كان هذا في زمن ماض ، العالم كله تغير سواء للأسوأ أو الأفضل ، لا أحد يمكنه أن يجزم.

أضاف بعد لحظة: كيف يمضى العمل حتى الآن؟ لقد رتبت لاصطحابك معي إلى "بورت هاركورت" بعد غد حيث أقضي عطلة نهاية الأسبوع مع زوجتي.. أنا أقيم هناك حيث أدير أعمال تلك السفينة لصالح شركة نيجيرية ، إذا تأخرت عن هذا الموعد سوف يرتبك كل جدولك في نيجيريا وربما تؤجل موعد عودتك للقاهرة.

. إذا لم تحدث مفاجأة يمكنني الانتهاء من عملي في "لاجوس" غدا.

. طلبت من مدير الإصلاح في الترسانة تجديد بعض التلفيات الجانبية في السفينة مما لا يقع في دائرة اهتمامك لكنه طالب بمبلغ من المال أظنه مغالي فيه، ربما أفدتني برأيك ، أنا قبطان وليس لي خبرة كبيرة في تلك الإصلاحات.

بعد معاينة تلك الأجزاء تبينت أنه كان محقا وأن قيمة الإصلاحات المطلوبة غير واقعية ، تحدثت مع "أوبى" بشكل شخصي في إمكانية إعادة النظر في هذا التقدير الجزافي ، وافقني وقام بتخفيض المبلغ. بدا أن مساحة من الثقة نشأت في علاقتي القصيرة معهما. لا يزال حديث الأشخاص أقرب للإنسانية من حديث القبائل والشعوب.

توطدت علاقتي بجيري إثر ذلك ودعاني لزيارته في منزله حين أذهب "لبورت هاركورت".



مطار "لاجوس" للرحلات الداخلية أشبه بمحطة أتوبيس الأقاليم القديمة بموقف "أحمد حلمي" في القاهرة.. في هذه الأثناء علمت بقرار إحدى شركات الخطوط الجوية الأوروبية وقف رحلاتها إلى مطار "لاجوس" الدولي لعدم مطابقته لشروط السلامة كما تحددها.. نظرت إلى جيري في قلق فابتسم قائلاً: - عليك أن تتسنى هنا ما اعتدته في أسفارك السابقة، الأمر هنا مختلف، الطائرات لا تقلع ولا تهبط في موعدها، التأخير يتراوح من ساعة إلى عدة ساعات إلى الإلغاء التام دون إبداء أسباب، بطاقات الصعود للطائرة تمنح لأكثر من راكب لنفس المقعد والأسرع في الصعود يحصل على المقعد مع قليل من المال تضعه في يد المسؤول يمكنك أن تكون الأسرع، لهذا أرجو منك الهدوء وتوطين نفسك لكافة الاحتمالات، بهذه الطريقة لا تصاب بضغط الدم.

قلت مصطنعاً الهدوء: كل ذلك محتمل إذا كان قائد الطائرة يعرف كيف يؤدي عمله ونحن على متنها.

كنا محظوظين لم تتأخر الطائرة سوى ساعتين عن إقلاعها قضيتهما في تأمل العالم الغريب من حولي. الوجوه سوداء البشرة تبدو مستسلمة لقضائهم والوجوه البيضاء تبدو متألفة مع واقعها، الموقع والزمن يفرضان على الجميع حقائق الحياة المجردة الخالية من أي زخرف أو ادعاء.

وصلنا "بورت هاركورت" وقد هبط الليل فغلف سواده ما يكشفه النهار من خداع ومواربة. الطريق من المطار هادئ لا تسمع فيه سوى حفيف الأشجار المتكاثفة على الجانبين تحجز خلفها مساحات من الأدغال لا يطرُقها البشر. فجأة استوقف سيارتنا كمين مسلح، اخترقت أعين حراسه داخل السيارة متفرسين في وجوهنا، الوجوه المتفرسة امتداد كالليل المنسل لا ترى منها سوى بريق العيون كأنه بريق النجوم في ظلمة السماء.

أشاروا للسائق بالمضي إلى حال سبيله، تطوع جيري بتفسير ما حدث قائلاً: تنتشر تلك الأكملة على الطرق المؤدية للمدن خاصة في الليل لمنع تهريب الأسلحة وضبط المشبوهين، أو هكذا يعلنون. لا يمضى يوم إلا ونسمع عن حالة اختطاف وطلب فدية خاصة بين العاملين الأجانب في شركات البترول، لهذا نتجنب السفر على تلك الطرق أثناء الليل إلا للضرورة القصوى، المطار كما ترى يقع خارج المدينة، وصولنا ليلاً كان خارج إرادتنا.

وصلنا إلى فندق "برزيدنت" الذي تأكد حجز إقامتي فيه قبل حضوري إلى نيجيريا، ودعني جيري قائلاً: - سأصل بك خلال الأسبوع لدعوتك إلى العشاء في منزلي والاتفاق على موعد العودة معا إلى "لاجوس" لحضور مرحلة تعويم السفينة وإصدار التقرير النهائي. من الغد أنت في رعاية أصحاب السفن الأخرى لكن يمكنك الاتصال بي بالطبع في أي وقت تشاء في مكثبي أو في بيتي إذا شعرت بالحاجة إلى المساعدة.

- أشكرك جدا، دعنا نأمل أن تكون مركبك جاهزة للإبحار مع نهاية الأسبوع.

- نعم، لكن لا تنس أن المفاجأة هي القاعدة هنا، لا شئ يمضى كما هو مخطط له.

كانت المفاجأة التالية أمام موظفة الاستقبال في الفندق التي أكدت أكثر من مرة أنه لا يوجد حجز بإسمى في هذا الفندق. كانت الساعة قد تخطت العاشرة مساءً والشعور بالتعب طاغ على جسدي ونفسي، سألتها إن كانت هناك حجرات خالية فأجابت بالإيجاب لكن على الدفع مقدماً، قدمت لها المبلغ المطلوب بالدولار الأمريكي فرفضت طالبة المبلغ بالعملة المحلية "نيرا" سألتها هل هناك بنك يعمل في تلك الساعة أجابتنى بالنفي ثم بدا لها أن ترفق بي قليلاً فتصححتني باستبدال الدولار في محل مجاور لها.. أخيراً أمنت لنفسي مكاناً أقضي فيه ليلتي.

الفندق معقول، حجراته واسعة ونظيفة، يعج بالأجانب من جنسيات عديدة، ضخمة وفسيح تحيطه حديقة واسعة يحدها سور عال يحرس بوابته مجموعة من رجال الأمن المسلحين، ما أدهشني هو هذا الكبرياء الوطني الأشبه بالنفاق في الإصرار على التعامل بالعملة المحلية التي لا تساوي الكثير بينما التبادل بالعملة الأجنبية بأسعار السوق السوداء يمضى في العلن كأنه قانون من عالم آخر ارتضاه الناس وإن لم يعترفوا به، هل هو انفصام في الشخصية الوطنية؟

بالرغم من التعب كان نومي متوترا قلقا متحسبا احتمالات الغد بعد مضى أسبوع على وجودي في نيجيريا رأيت فيه ما رأيت. استيقظت مبكرا متوقعا وصول أحد موظفي الشركة مالكة السفن في "بورت هاركورت" لاصطحابي إلى الميناء لبدء العمل. تناولت فطورتي وانتظرت في غرفتي أراقب التليفون لكن الساعات ميرت، دون جدوى حتى اقترب الظهر حين رن جرس التليفون ليعلن "بيتر" عن وصوله، الماني الجنسية يعمل مديرا لأسطول الشركة في بورت هاركورت، ممتلئ الجسم، سريع الابتسام هادئ الحديث، صافحتني قائلاً: رأيت أن نتركك بضعة ساعات للراحة بعد هذا الأسبوع المنصرم في "لاجوس"، أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام، إذا كنت مستعدا دعنا ننتقل إلى معسكر الشركة لنبدأ عملنا هناك بمراجعة الوثائق والبيانات حتى تتوفر لنا زيارة السفن.

نظرت إليه متوجسا وسألته: هل تقصد أن السفن غير متواجدة في الميناء؟. كلها تعمل في أعالي البحار، لكن ربما تصل إحداها غدا إلى الميناء للتموين، يعتمد ذلك على ظروف العمل وحالة البحر، أظنك لاحظت هنا ألا شيء يمضى حسب المخطط له ولا نستثنى أنفسنا من تلك القاعدة، لذا نرجو منك المرونة في مواعيد العمل.

لم يكن لي حيلة إزاء هذه الظروف سوى الاستعداد لقبول ما هو متاح بغية إنجاز العمل الذي كلفت به، فأصبحت وأمسيت تحت رحمة مكالمات تليفونية من "بيتر" يخطرني أنه في الطريق لإحضاري لزيارة

إحدى السفن التي وصلت الميناء ، أحيانا في منتصف الليل أو مع طلوع
الفجر أو عند الغروب ، تستغرق الزيارة ما لا يقل عن ست ساعات ثم
أعود إلى الفندق لانتظار المكاملة التالية.



الطريق للميناء يخترق منطقة من الغابات والأحراش تصطف
دكاكين صغيرة على أحد جانبيه لا تكاد تتبين فحوى ما تتاجر فيه
من فرط فقرها وكآبتها وبالرغم من ذلك تجدها في الليل موصدة
بسلاسل الحديد والأقفال من كل حجم ربما تساوى قيمة الأقفال قيمة
ما تحميه داخل الدكان أو تزيد ، ربما هي رمز لفقدان الأمان أكثر منها
أداة للحماية من السرقة والنهب ، أصحابها - وربما زوارها - مستلقون على
أبوابها في حر النهار في استرخاء وكسل لا يدرى الناظر إليهم ما معنى
الحياة عندهم أو ما جدوى أن يعيشوا يومهم.

في إحدى الزيارات المفاجئة أخبرني بيتر أنه على عجلة من أمره على
غير المعتاد وأنا يجب أن نسرع للحاق بإحدى السفن في الميناء حيث مقدر
وصولها في أية لحظة ولن تمكث سوى نصف ساعة ثم تتطلق إلى أعالي
البحار وأمهلني خمس دقائق لأستعد بينما هو في انتظاري ببهو الفندق.
كنت مستعدا فلم يستغرق الأمر سوى دقيقة واحدة كنا بعدها ننهب
الطريق. قلت له ملاحظا

. نصف ساعة لن تكفى لأداء العمل كما تعلم.

أجابني وذهنه مركز على الطريق: سوف توفر الوقت المطلوب!

لم أدر ما يفكر فيه في تلك اللحظة لكنه كشف خطته وهو
يقترّب من الميناء قائلا: سوف نقوم برحلة بحرية معا توفر لك الوقت الذي
تريده أثناء الإبحار بعدها سندبر أمر عودتنا إلى الميناء بمركب آخر
مخصص لنقل الأفراد.

لذت بالصمت محيطا تصوراتي، لما يمكن أن يحدث، بسياج من الجمود أو على الأقل حاولت ذلك. ما أن صعدنا على ظهر المركب حتى طلب مني بيتر الانتظار في صالون الاستقبال ريثما يبحث عن القبطان لإخطاره بوصولنا والاستعداد للمغادرة.

بعد مضي دقائق على انتظاري فوجئت بضابط بوليس نيجيري يقتحم الغرفة حيث أجلس دون استئذان أو تحية ويبادرني بلهجة عدائية قائلاً: من أنت وماذا تفعل هنا، أرني جواز سفرك.

تمالكت نفسي بسرعة أمام المفاجأة وأجبت دون تردد وبنفس الخشونة لكنه استمر في لهجته قائلاً: تأشيرة دخولك نيجيريا لا تعني التصريح لك بالعمل.

فلا، موضحاً وفي نفس الوقت مستغرباً غياب بيتر تلك المدة بحثاً عن القبطان: التأشيرة أعطيت بناء على طلب واضح من شركة مسجلة في نيجيريا لفحص سفنها طبقاً للقواعد الدولية، سفارتكم في القاهرة تعلم السبب من الزيارة وبناء عليه أعطت التأشيرة، لا يوجد شيء غير قانوني كما أظنك تعرف من جواز سفري.

أصر قائلاً: لا بد من التوجه لقسم الشرطة لفحص الجواز والتأكد مما تقول.

في تلك اللحظة دخل بيتر الحجرة وأدرك الموقف في لحظة ثم تدخل في النقاش مؤمناً ما قلت، لكن الضابط طلب منه الصمت وأشار عني بمصاحبه إلى قسم الشرطة، حينئذ تغيرت لهجة بيتر في مخاطبة الضابط وقال في غضب: إذن سوف نلغى رحلة السفينة اليوم ونتوجه جميعاً إلى قسم الشرطة، سوف أنقدم بشكوى ضدك لتعطيلك أعمالنا دون سبب.. هيا بنا لن نعمل اليوم.

تردد الضابط قليلا إزاء ما سمع، لانت لهجته قليلا وهو يقول: أنا أؤدى عملي، قسم الشرطة غير بعيد من هنا، لن يستغرق الأمر طويلا، يمكنكما الانتظار هنا لحين عودتي بجواز السفر بعد فحصه.

لم تتطل على بيتر حيلة الضابط وقال بإصرار: لا يمكنك أخذ جواز السفر، دعنا نتوجه لقسم الشرطة لننهي هذه المسألة.

لمحت أن الضابط يبحث عن مخرج لحفظ ماء وجهه فعرضت عليه حلا

- يمكنك أخذ صورة فوتوغرافية من جواز السفر إذا شئت.

قال وهو يفكر مترددا في القبول: لا توجد ماكينة تصوير مستندات بالقرب من هنا على أية حال.

استخرجت صورة من جواز سفري كنت أجملها احتياطيا وأعطيتها له فقبلها وقال بابتسامة زائفة قبل أن يهم بالمغادرة: ربما هذا يكفي، يمكنك أن تبدأ العمل!

نظرت إلى بيتر في غاية الدهشة، فقال بهدوئه المعتاد كأن هذا المشهد قد تكرر أمامه عشرات المرات: يا سيدي هو يبحث عن بعض المال، هذا كل ما في الأمر، نحن ندفع مقدما لرؤسائه لتجنب تلك المواقف، هو استسلم في النهاية لأنه فهم مغزى إصراري على التوجه لقسم الشرطة. أرجو ألا يسوؤك كثيرا ما حدث، إذا شئت أن نلغى تلك الزيارة أو نؤجلها إلى موعد آخر فسوف أتفهم ذلك.

. لا أخفيك أنه أزعجني فعلا، لكن ليس للدرجة التي تمنعني من العمل، ما يحدث في هذا البلد مما أشاهده وأسمعه يصعب وصفه أو تصديقه.

لكن مشهد الغروب والسفينة تبحر في نهر "ورى" فتتني وأزاح عن نفسي ما سببته اللحظات السابقة من انزعاج. لماذا يصر الإنسان على أن

يشوه هذه الصورة الرائعة بمسلك يبرر إزاحته من الصورة بأكملها أو على الأقل تتمنى لو أنه لم يكن. عموما ليست كل الصور بهذا الجمال وليس كل إنسان بهذا القبح وعلينا أن نصر على تواجدنا في الصورة الجميلة بتفادينا مصادر القبح.



قبل أن ينتهي عملي في "بورت هاركورت" اتصل بي كابتن جييري ليطمئن على سير الأمور ويؤكد دعوته لي للعشاء بمنزله والتي قبلتها شاكرا.

قال لي وهو يصحبني من الفندق بسيارته: عندي أخبار غير مطمئنة عن مركبنا في "لاجوس" قد تستلزم مد إقامتك أياما قليلة. كانوا واثقين من تجهيزها في الموعد المحدد.

بعض قطع الغيار الضرورية نفدت من مخازنهم أو غير ملائمة وهي ليست متوفرة في نيجيريا، لابد إذن من استيرادها من أوروبا، يبحثون عنها الآن في هولندا، لكن الشحن سوف يستغرق أسبوعا. دعنا ننتظر حتى نصل هناك ثم نقرر ما يجب عمله.

بعد قليل وصلنا منزله، المكون من طابقين يحيطه سور عال ذي بوابة حديدية ثقيلة، استقبلتني زوجته "دونا" مرحبة، سيدة إنجليزية لطيفة في منتصف الأربعينات من العمر، لم أشعر بأي تكلف أو مجاملة وهي تشد على يدي محيية كأنها تعرفني منذ زمن بعيد. المنزل من الداخل مريح ومنظم يعلن عن ذوق سيدته الراقى، لفت نظري باب من الحديد يفصل الدور العلوي عن الدور الأرضي، يبدو أن ملامحي أفصحت عن استغرابي لتطفل هذا الباب على المشهد العام، تطوع جييري مفسرا بقوله: هذا إجراء احترازي وهو معتاد في كل البيوت التي يسكنها الأجانب في هذا البلد. هذا التدبير أنقذ أسرة من القتل على أيدي عصابة مسلحة حاولت السطو على منزلهم.

- وأين الشرطة من هذه الفاجعة؟

أضافت "دونا": كان الوقت ليلاً حين شعروا بمهاجمتهم وسطوهم على الدور الأرضي، لما توجه اللصوص إلى الدور العلوي اعترضهم الباب الحديد فبدأوا يحاولون كسر أقفاله وسلاسله، استغرقهم ذلك بعض الوقت، حين أوشكوا على اجتيازه وصلت الشرطة، لك أن تتخيل كيف مرت الدقائق على رجل وزوجته وأطفاله وهو يعرف أنه قد يلقي حتفه مع أسرته بعد لحظات.

كان ذهولي يزداد مع وصف هذا المشهد، قلت بعد لحظات وقد جلسنا نحتسى بعض العصائر المعدة سلفاً.

- هل يعقل أن ينعدم الأمان في مجتمع إلى هذا الحد؟

أجاب جيري: الفقر والفساد يهدمان أسس الأمان في أي مجتمع، أضف إلى ذلك اليأس التام أن ينصلح الحال.

أضافت "دونا" وهي تدعونا إلى المائدة حيث أشارت إلى الطاهي أن يبدأ في تقديم الطعام: تناقشنا نحن زوجات الأجانب العاملين في "بورت هاركورت" فيما يمكننا تقديمه للمعتمدين والتعساء من حولنا، أنشأنا ما يشبه جمعية خيرية أو نادياً لتقديم المعونة لمن حولنا سواء بالنصح أو بالقليل من المال الذي يجتمع في أيدينا في بعض الحالات، بتيسير بعض الخدمات الطبية أو العلاج للمرضى، لكن ما يحتاجه هذا المجتمع أكبر بكثير مما نحاوله.

كنت أرتشف قليلاً من الحساء الذي وضع أمامي، استمرت تقول مستفيدة في وصفها: في الأسبوع الماضي صدمت سيارة مسرعة إحدى النساء كانت تعبر الطريق فقتلتها. لم يقترب أحد من جثتها ثلاثة أيام، لم تحضر سيارة إسعاف أو سيارة شرطة للتحقيق في الأمر إلا في اليوم الرابع، ظلت ملقاة طيلة هذه المدة يمضى المارة من جوار جثتها دون أن

يحرك أحد ساكننا ، فقط حين سعيينا من خلال إحدى السفارات لتتسيط السلطات المحلية لمعالجة الأمر.. حينئذ حضروا في اليوم الرابع..

قاطعها جيرى مضيفا:.. هناك بعض المعتقدات الأسطورية لدى العامة من النيجيريين أن الاقتراب من جثة المتوفى بهذه الطريقة يصم المقرب بروح شريرة.

قلت وكان ما أسمعه أغرب مما يمكن تصديقه أو تخيله ونحن في نهاية القرن العشرين.

إذا كانت السلطة الحاكمة عاجزة أو عاجزة أن توفر للمجتمع أبسط ظروف العيش في أمان، وقبائل المجتمع وجماعاته المختلفة تحارب بعضها بعضا لأسباب قبلية أو عرقية ترجع إلى مئات السنين، فأين تأثير الدين في صهر أخلاق المجتمع واستنهاض الضمير لتأمين أسباب الحياة للأحياء ومراعاة حرمة الموت للأموات؟ الإسلام والمسيحية هما أكبر الديانات وأكثرها انتشارا في نيجيريا، مبادئهما تتافى وتعارض كل ما أسمع عنه من خلل وانحلال وشعوذة

قال جيرى بحكم ثقافته: صهر المجتمع في نموذج متجانس لا يحدث بغير قوة ضاغطة سواء عسكرية أو اقتصادية، حتى الإسلام في فجره كانت من خلفه قوة جيش يمهد فتوحاته ويحميها. نيجيريا نموذج لما يستعصي على الدين أن يحققه مهما طال به الزمن. القبلية والعرقية هنا أكثر عمقا في وعى الإنسان النيجيري وأشد شراسة، الرأي السائد بيننا في أوروبا أن رسالة الأديان في تشكيل حياة البشر وريادتها قد توارت في كتب التاريخ، لا بأس من أن نذهب إلى الكنيسة يوما في الأسبوع أو لا نذهب على الإطلاق، العلم هو الذى يقود حياتنا ومنطقه هو الذى يؤمن مستقبلنا، المقارنة الموضوعية بين حال بريطانيا مثلا وحال نيجيريا لا تستغرق كثيرا من الوقت والجهد لتحديد من يكون على صواب.

قلت بعد لحظة تفكير: هذا أقرب لمادية التاريخ وحصر صراع البشر مع الطبيعة وأسباب الحياة مثلهم مثل كل الأحياء الأخرى. في رأيي أن الإنسان مميز عن غيره من المخلوقات بما وهب من عقل، لذا فله رسالة مختلفة وواجب يؤديه أكبر من مجرد الحرص على البقاء، هو أيضا واجب غريزي لا جدال فيه.

قال جيرى متعمقا في نقاشه: لا أضلنا نختلف كثيرا في المعطيات، فقط النتائج تبدو ومختلفة، العلم الحديث يتقدم حثيثا في تفسير عمل العقل بما يدور في المخ من عمليات حيوية تتحكم فيها عناصر الكيمياء وشحن الكهرباء. الإنسان جزء من الكون المحيط به خاضع لسننه وقوانينه، بالتأكيد هو ليس مركزه ولا أهم جزء فيه، ربما يحدث ذلك بعد ملايين السنين حين يتطور مخه ويستوعب بعلمه ما يحدث في هذا الكون. لا أجادلك في دور الدين في حفظ البقاء للبشرية في أطوارها الأولى حتى أمكن للإنسان أن يطور من وعيه ويصبح أكثر تحكما في مصيره. التحديات التي تواجه البشرية الآن أكبر مما يمكن للأديان أن تتعامل معه أو علينا أن نكتشف دينا جديدا يلئم عصرنا.

أضافت "دونا" مبدية اعتراضها على قول زوجها: يجب أن أحذرك من جيرى وبعض آرائه الحادة التي تقاجئ ضيوفنا حين ينجرّف في المناقشة، أرجو ألا تستاء من صراحته، أما أنا فلا أشاركه رأيه، بل أذهب إلى الكنيسة أسبوعيا وأشعر بالراحة كلما فعلت ذلك.

قلت: أنا أوافق جيرى في توافق المعطيات، ما ينقصنا هو الاتفاق أن الدين ليس عمل العقل وحده، مع التقدير الكامل لما يبذله العقل من فكر مؤثر في مصير الإنسان إلا أنه ليس الرافد الوحيد لمصيره، حتى لو سلمنا بالعمليات الحيوية المحركة لعمل المخ، أين باقي أجهزة الجسد، كيف نجيب على سؤال النفس وماهيتها فيه، الروح وتأثيرها في وجوده المادي؟

قالت "دونا" ضاحكة محاولة تغيير مجرى الحديث: أظن تلك نقطة فاصلة لتناول الحلوى والعودة إلى حدث اليوم، أخبرني جيرى بمحاولة ضابط البوليس النيجيرى اصطحابك إلى قسم البوليس ومنعك من العمل، لابد أنها تجربة شخصية مباشرة في تعاملك مع الوجه القبيح لهذا المجتمع.

قلت محاولا الموضوعية في إجابتي: كان الرجل يحاول أن يكسب عيشه بمنطقة المجتمع الذى نشأ فيه، أظننى كنت في اللحظة الخطأ من يومه لأنه لم يجد سببا لتبرير منطقته رغم محاولته باستماتة. لا أظنه شعر بأي أسف من فشل المحاولة رغم ذلك لأن محاولات أخرى قد نجحت بكل تأكيد تبريرا لمنطقه.

قالت "دونا": هذا من حسن حظ جيرى فهو يأمل في إبحار مركبه قبل عودتك إلى مصر

قال جيرى: نحن مرتبطون بعقد هام يحتم إعادة المركب للعمل في غضون أسبوع وإلا تعرضنا لشرط جزائى، لو تعطلت رحلة عودتنا إلى لاجوس لوقعت في ورطة كبيرة.

- هل نسيت قولك لي حين هبطنا في مطار "بورت هاركورت" أنه لا شئ يمضى هنا كما هو مخطط له وأن المفاجأة هي القاعدة؟

ابتسم وقال: ها قد بدأت تعتاد منطق الأشياء هنا، بهذه المناسبة حجزت لثلاثتنا على طائرة "لاجوس" بعد يومين، سوف نمر عليك في الفندق لنذهب إلى المطار معا.

أفادت "دونا": سوف أقضي يومين مع جيرى في "لاجوس" قبل سفري إلى إنجلترا، أمضى معه شهرا وأغيب شهرين، حتى ينتهي عقد عمله في نيجيريا بعد عام آخر.

- يسعدني صحبتك وأشكرك على دعوتك الكريمة الليلة والحديث الشيق الذى تبادلناه، سوف أذكر دائما تلك اللحظات.



لم أتمكن من الانتهاء من برنامج العمل المتفق عليه في بورت هاركورت، أفادنى "بيتر" أننا سننتظر أياما وربما أسابيع وأنه من

الأفضل إرجاء ما تبقى إلى فرصة أخرى في المستقبل القريب. لحسن حظي انتقلت ملكية السفن العاملة في "بورت هاركورت" إلى ملاك جدد ومعها انتقلت مسئولية الفحص والمراجعة إلى جهة أخرى غيرنا.. بعد أسابيع قليلة من اللقاء الأخير.

حين عدت إلى لاجوس علمت أن قطع الغيار المنتظرة لن تصل قبل أسبوع آخر وأنه لاجدوى من انتظاري كما نصحت "جيري" فهي تكلفة لا مبرر لها. كان الموقف مزعجا له لارتباط السفينة التي يديرها بعقود عمل عاجلة لكن لا حيلة له أمام عجز النظام الذي يعمل فيه عن الوفاء بالمنتظر، حينئذ لا سبيل أمامه غير الاستسلام للقدر.

بدأت الساعات المتبقية لي في نيجيريا تتاقص مع اقتراب موعد طائرتي إلى القاهرة. كان شوقي للعودة إلى مصر هذه المرة غير مألوف. كنت متلهفا للحظة التي أضع فيها قدمي في الطائرة.

غادر جيري "لاجوس" بعد أن ودع زوجته عائدة إلى وطنها، لم يكن هناك ما يفعله في ترسانة إصلاح السفن؛ حيث ترقد سفينته بانتظار قطع الغيار فعاد إلى "بورت هاركورت" حيث منزله ومكتبه. رتب لي قبل مغادرته لاجوس كيفية انتقالني من الفندق إلى المطار حيث كلف سائقه في لاجوس واسمه "فايوز" أن يصحبني إلى المطار في الموعد الذي أبلغه به. تواعدنا أن يستمر الحوار بيننا ولا تنقطع آصره.. الصداقة التي مهد لها هذا العمل الطارئ، وقد استمر في الحقيقة سنوات عدة حتى ابتلعنا زحام الحياة.



في الطريق إلى المطار نظرت إلى "فايوز" كنت أجلس إلى جواره، وجهه مسالم مشوب بالعزوف والترفع، سألته
- أنت دائم الصمت يا "فايوز" لم أسمعك تتحدث كثيرا مع كابتن جيري فقط حين يطلب منك شيئا.

لازلت أذكر وجهه واقفا في انتظاري بالمطار مع جيري في يوم وصولي إلى لاجوس لم ينبس وقتها بكلمة.. أجابني ونظره على الطريق المزدحم بخليط من المارة والسيارات في فوضى عارمة

- هذا ما تدرّبت عليه، قيادة السيارة والحرص على العمل الذى أكلف به، أتحدث حين يطلب منى ذلك، لهذا لم أفقد عملى وهو أمر نادر الحدوث هنا.

قلت مسترسلا: يبدو أن نسبة البطالة هنا مرتفعة بالرغم من ثراء بلدكم بالموارد الطبيعية سواء البترول أو المياه.

قال بعد صمت قصير: الموارد الطبيعية متوفرة لكن أعداد الناس غفيرة، بدون عمل حقيقي لن تفيدنا الثروات الطبيعية مهما كانت ضخمة، الشيء الذى نملكه بلا حدود هنا هو الفقر، انظر إلى أعداد الصبية المنتشرين في كل مكان مادين أيديهم لأى شئ مهما تضاعل مالا أو طعاما، أي مستقبل ينتظرهم؟

- المأساة لا تخص نيجيريا وحدها بل معظم شعوب أفريقيا، كما قلت لن يفيدنا شئ سوى العمل المضني والمستمر.

مع اقتراب السيارة من المطار لفت نظري مسجد على أحد جانبي الطريق، أخذت أتأمله، إنه تقريبا نفس البناء الذى أشاهده حيثما كان للإسلام قوم يعتقدونه، المآذن العالية والصحن المستوى بقباب أو بدون قباب، الرموز واحدة أو تكاد تتقارب لكن العقول شتى والمصائر متفرقة، هل غابت عنا الحقائق البسيطة للإيمان بالله؟

أخرجني "فايوز" من انشغالي وصوته يصل أذني حيث أوقف السيارة أمام صالة المغادرين في مطار "لاجوس" الدولي قائلا: أتمنى لك رحلة آمنة إلى القاهرة.

شكرته وحملت حقيبتي إلى مكان التفتيش حيث طلبت منى ضابطة الجمارك فتحها، من المفهوم تفتيش الحقائب عند دخولك بعض البلاد، لكنها كانت المرة الوحيدة التى جربت فيها تفتيش الحقائب عند المغادرة لأسباب تتعلق بالجمارك! ما الذى يمكن لغريب أن يهربه خارج نيجيريا مما يحرمه القانون أو يستوجب دفع ضرائبه؟

نظرت الضابطة إلى ملابسي داخل الحقيبة نظرة يائسة وسألتني وهى تنظر إلى زميلتها: ألا يوجد شئ لنا؟

لم أفهم ما تقصده فسألتها بسداجة

- لست أفهم ما تعنيه.

ألحت قائلة: بعض النقود؟

فكرت بسرعة وأجبته صادقاً: - يوجد معي بعض الجنيهاات المصرية إذا شئت.

نظرت إلى مشفقة وقالت غير صادقة: - تفضل مع السلامة.

ما أن انتهيت من إجراءات السفر ووصلت إلى قاعة الانتظار حتى شعرت بمزيد من الهواء يدخل صدري والطمأنينة تتساب إلى نفسي خاصة حين تأكدت أن طائرتي جاهزة للإقلاع في موعدها.

ارتفعت الطائرة في أجواء نيجيريا فبدت قطعة خضراء زاهية، الأشياء تبدو جميلة حين تكون بعيدة، لماذا نبحت دائماً عن الحقائق ولا نرضى بخداع البصر؟



على السفينة تحت الإصلاح "لاجوس"



الحادث المروع لناقلة البترول "لاجوس"



في الفندق - لاجوس



على إحدى السفن "بورت هاركورت"

الفصل السابع

جمهورية ألمانيا الاتحادية

لم أظن أن ألمانيا سوف تشكل محورا أساسيا في حياتي العملية، بعد انتهائي من دراسة الهندسة وتأدية الخدمة العسكرية، كان أقرب إلى الحدوث أن أرتبط بسويسره بشكل من الأشكال؛ نظرا لقضائي بعض عطلاتي الصيفية بها حين كنت طالبا، ولصلات الصداقة التي ربطتني ببعض أهلها والتي استمرت لسنين طويلة، لكن مسار العمل اتجه لشركة دولية مقرها الرئيسي في هامبورج بألمانيا، واستمر منذ ذلك التاريخ حتى وقتنا الحاضر، وهي مسافة زمنية تقترب من العقدين من الزمان.

ألمانيا تقع في قلب أوروبا، تطل على بحر الشمال وبحر البلطيق، تجاورها تسع دول هي النمسا والدنمارك وهولندا وبلجيكا ولوكسمبورج وفرنسا وبولندا وسويسره وجمهورية التشيك. عدد سكانها يتعدى الثمانين مليوناً، مساحتها ثلث مساحة مصر أي نحو ٣٦٠ كم مربع، لكنها تعد أعظم ثاني دولة صناعية في العالم بعد أمريكا، لا يخفى على أحد الثقل التاريخي لألمانيا خاصة في قارة أوروبا وتأثيرها على مصير العالم في التاريخ الحديث، سلباً أو إيجاباً، والذي لم يتوقف عند اندلاع الحربين العالميتين بسببها، وقيادتها لإحدى جبهتي الصراع الدولي وهي جبهة المحور، وإنما يتخطى ذلك إلى نهضتها العملاقة من جديد بعد هزيمتها النكراء في الحرب العالمية الثانية؛ لتقود أوروبا من بعد، نحو اتحاد اقتصادي وسياسي يعتبر حدثاً فريداً في تاريخ تلك القارة التي يحفل تاريخها بالمنازعات والحروب التي لم تكن لتنتهي حتى تبدأ من جديد.

كانت زيارتي الأولى لألمانيا في مطلع التسعينيات بعد مضي عامين على التحاقني بالعمل في هذه الشركة وكان سفري لقضاء ستة أشهر

للتدريب واستكمال المهارات والخبرة اللازمة لأداء عملي كما تشترط الإجراءات الدولية.

وصلت مدينة هامبورج في شمال ألمانيا بعد توقف قصير في فرانكفورت، كان ذلك في نهاية شهر سبتمبر حيث تودع الأشجار خضرتها ورونقها وتبرز جافة عارية مستسلمة لعصف الرياح بها، الغيوم تكتسى السماء كأنها لا تسمح بنهار أو تعترف به على أي حال.. من جو مصر الرائع هذا الوقت من العام إلى هذا الجو المفاجئ الغريب عما اعتدته في موطني، لكن المفاجأة لم تتوقف عند هذا الحد.

وصلت إلى المركز الرئيسي للشركة والساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر فوجدت الموظفة المسئولة عن المتدربين في انتظاري وأمامها قائمة بما سوف تطلعني عليه، لم تضيع ثانية في أسئلة لا معنى لها.. قالت وابتسامة خفيفة تملو فمها

.. أسمى "أندريا"، هذا رقم تليفوني للاتصال بي في حالة الضرورة. هذا جدول التدريب الخاص بك عليك مراجعته والرجوع إلى دكتور "رول" في حال رغبتك في تعديل بعض بنوده، هذا مفتاح الشقة التي ستقيم فيها، هذا عنوان الشقة وطريقة الوصول إليها عن طريق المترو الذي يجب أن تستبدله في منتصف الطريق، هذا عقد الشقة للإطلاع عليه والتوقيع الآن، مركز التدريب قريب من هنا سوف أصحبك إلى هناك للتأكد من موقعه حيث ستواجد فيه حتى نهاية الأسبوع، الأسبوع القادم والذي يليه سوف تذهب إلى "بريمن" حيث سيتولى أحد زملائك في مكتبنا هناك اصطحابك إلى ترسانة بناء السفن في اليوم الأول ثم تذهب بمفردك بعد ذلك.. هذه تذكرة القطار إلى بريمن والعودة صالحة مدة الأسبوعين وهذا جواز ركوب جميع المركبات العامة في هامبورج لمدة ستة أشهر.. هل لديك استفسار؟

نظرت إليها وإجهاد السفر يحتجز في نفسي أي استفسار أو استيعاب، لم تسمع مني ردا فقالت وهي تتطلق خارجة من مكتبها .. دعني أصحبك إذن إلى مركز التدريب.

تلاحقت خطواتي وراءها حاملا حقيبتني، بدت خطواتها أطول وأسرع مما تستوعبه حالتي، طولها الذي يتخطى المائة والثمانين سنتيمترا لم

يشفع لي، كنت ألث وراءها.. قالت وهى تتابع خطوي خلفها: هناك زميل في مركز التدريب يعيش في نفس المنزل، ربما اصطحبك معه اليوم حتى لا تضل طريقك، كما يجب أن تحاول شراء بعض الطعام لأن المحال هنا تغلق أبوابها في السادسة مساء بالضبط. هناك "سوبر ماركت" قريب من المنزل كما توجد في أوراقك خريطة للمدينة ومخطط لمحطات المترو والأتوبيس ومواعيد قيام القطارات من المحطة الرئيسية..

شعرت كأنني أدنو من آلة ضخمة تعمل بدقة متناهية لا مجال فيها للخطأ، الزمن يقاس بقدره الحقيقي إذا صغرت وحداته متحدية الإنسان الذي صنع مقياسه، لا يوجد خيار، إما أن تستدعي ما فيك من عزيمة وانتباه وإما أن تخرج من هذا المضمار لتعود إلى عالمك، لم تكن تلك تجربتي الأولى للعمل في دولة أوروبية خاضعا لقواعد العمل الصارمة ونظام حياة لا يسمح بالفوضى والعبث، لكن شعوري بالغربة في ليلتي الأولى كان قاسيا.. في تلك اللحظات تعظم في النفس قيمة الأصدقاء..



في اليوم التالي توجهت وقت الغداء لمقابلة "جونتر" حسب اتفاق مسبق، عرفت جونتر لمدة تزيد عن عام، عملنا فيها سويا في مصر حيث توطدت أواصر الصداقة والصداقة بما واجهناه من مصاعب العمل وتعقيدات الحياة، هو يكبرني بحوالي سبعة عشر عاما يتمتع بحس نادر بالدعابة لا يفارقه في أحلك اللحظات ثم جد وإتقان في الأداء لا يقبل أنصاف الحلول، وبعد إنساني يميزه عن كل من عرفته من مصريين وأجانب. قال لي بعد أيام قليلة من وصوله لمصر للمرة الأولى وقد تحول نقاشنا إلى ما يدور في منطقتنا من صراع: إسرائيل سوف تقضى على كل أعدائها فهي أقوى دولة في المنطقة، على الفلسطينيين أن يجدوا لهم موطننا في إحدى الدول العربية المجاورة حتى ينتهي هذا الصراع.

قلت له ملاحظا تأثير الدعاية الصهيونية في الغرب: - واضح أنك تستمع لطرف واحد من الصراع، لماذا لا توفر لنفسك وقتا لتستمع إلى الطرف الآخر وتنتهم موقفه ثم تكون رأيك دون انحياز؟

بعد عدة شهور فاجأني بقوله: - شغلت نفسي بقراءة الكثير من الكتب والاستماع للطرف الآخر كما نصحتني، أنت محق، لا يجب الحكم في قضية دون علم كاف إذا قصد العدل، لكن المرء يقبل على الآراء الجاهزة المعدة سلفاً فهي أسهل وأقل إجهاداً للعقل وإنفاقاً للوقت. وجود إسرائيل في المنطقة هو سبب كل ما فيها من صراع لا نهاية له طالما حظيت بدعم أمريكا والغرب، لكن لليهود الحق في العيش كما هو للفلسطينيين، علينا أن نتفق على ذلك.

سألته لأتبين انطباعه عن العيش في مصر تلك الشهور الطويلة، هل يتفق وما تخيله عنها قبل سفره إليها، أجابني: أنت تعرف أنني عشت في جدة بالسعودية ما يقرب من عامين، كنت أتصور العيش في مصر لن يختلف كثيراً، لكنني بعد هذه الشهور أدركت خطأي، الحياة في مصر تختلف عن الدول العربية التي زرتها أو عملت بها، هامش الحرية الشخصية هنا أكبر والمجتمع أكثر انفتاحاً وتسامحاً، هي ليست دولة غربية بالطبع، لكنها ليست السعودية أو إيران مثلاً، لكنني أكره ما اعتدت أن أسمعه من كلمات مثل "بكره" "معلش" "إن شاء الله"، فهي لا تعني عندي غير اللامبالاة والاستهتار وعدم الالتزام بما يقوله المرء وذلك يحول الحياة إلى فوضى لا معنى لها.

ثم أضاف قبل أن أبدى اعتراضاً: المعنى الجاد لكلمة "إن شاء الله" مقبول لكن ما يفعله الناس باستخدامها لا يصدق.

عاش جونتر في أحد فنادق الإسكندرية فترة عمله هناك حتى عرفه كل العاملين في الفندق وعرفهم هو بأسمائهم، بعد انتهاء مهمته سألتني - هل يمكنني أكلفك بأمري؟

أجبت: تعرف أنه يمكنك ذلك

- هناك فتاة تعمل في هذا الفندق أقوم بمساعدتها مالياً لأنها تعمل أسرة كبيرة وفي نفس الوقت تحاول استكمال دراستها، سوف تكون همزة الوصل بيننا بعد عودتي إلى ألمانيا، لا أريد أن أتخلى عنها حتى تنتهي من دراستها، لكن عليك أن تؤدي ذلك بحكمة فهي شديدة الكبرياء.

ما أن شاهدني أدخل مكتبه في هامبورج حتى نهض من مقعده باسطا ذراعيه محتضنا كأخوين التقيا بعد افتراق، قال وهو يصحبني إلى خارج مكتبه بعد لحظات قصيرة: ليس لدينا وقت نضييعه، بعد الغداء سنتوجه لزيارة معرض صناعات السفن بأرض المعارض في هامبورج.

- حينئذ على أن أبلغ د. رول بأنني لن أعود إلى مركز التدريب بعد الظهر.



كان المعرض ضخما ومذهلا في تنظيمه وتنسيقه وترتيب الشركات العارضة فيه من جميع أفرع الصناعات المرتبطة بالسفن؛ هذا جناح الطلبات وذلك للضواغط والذي يليه أنظمة التحكم ثم البلوف إلى ما لا نهاية له.. الزحام شديد والوجوه من كل جنس ولون بالرغم من أنه كان اليوم الأخير.

سألني جونتربعد جولتنا السريعة في بعض أجنحته: لعلك كونت انطبعا ما بعد هذه الزيارة الخاطفة، لا يمكننا مشاهدة كل صالات العرض في ثلاث ساعات ولا ثلاثة أيام.

أجبتة ولازال الذهول يعقد لساني: هذا عنوان على عبقرية الإنسان الصانع في عصرنا الحديث. لا أدري لم يهدر الإنسان مواهبه في الهدم وهو قادر أن يقيم مثل هذا البناء.. لا بد أن بناء هذا المعرض استغرق شهورا.

- فقط أسابيع قليلة لا تتعدى شهرا ثم يتم تفكيكه في أسبوعين لأن صالات العرض هذه محجوزة طوال العام لمعارض أخرى، ألمانيا الدولة الأولى في العالم في إقامة المعارض.

أضاف جونترو نحن نقرب من بوابة الخروج: لعلك تذكر نقاشنا في الإسكندرية حول أيهما أكثر نفعا في حياة الإنسان المعاصر، العلم وما يستتبعه من تكنولوجيا حديثة تطور وسائل العيش وتوفر الرخاء أم الدين وما يبذره من خلاف بين صنوف البشر. شاهدت اليوم مجرد لمحة من صورة ضخمة للتقدم التكنولوجي وسوف تلاحظ دون جهد مستوى المعيشة المرتفع في ألمانيا بسبب هذا التقدم، ستفيدك إقامتك في ألمانيا

لمعرفة لم تقدم الغرب هذا التقدم الهائل في هذا الوقت القصير ولماذا تتسع الهوة بينه وبين بقية العالم على هذا النحو.

كنا نقرب من محطة مترو "ميساهلا" وتعنى بالألمانية محطة أرض المعارض منها يتوجه جونتير إلى محطة القطار الرئيسية "بان هوف" ومن ثم إلى "فنس" قريته التي تبعد أربعين كيلو مترا عن هامبورج، أما منزلي في "ريكارد شتراسا" فكان قريبا من مركز المدينة. قلت له ملاحظا الوقت القليل المتبقي لنا حتى نفترق كل في اتجاه.

- أنت تذكر أنى ناقشت هذه الفكرة فى أحد كتبي متسائلا لم يستوجب علينا الاختيار بين العلم والدين، الإنسان في حاجة لكليهما حاجته إلى العقل والشعور.

- إذا كنت تقصد الأخلاق والضمير فالدين ليس هو الباعث الحتمي لهما، القانون العادل يحقق نفس النتائج.

- القانون قد يحقق العدل والمساواة في مجتمع ما، لكنه لا يهدي الإنسان لمعنى وجوده وحكمة خلقه وماهية مصيره.

- أظننى أنصت هنا لما يقوله "ستيفن هوكنج" عن نشأة الكون ومعنى الزمن وأقبله أكثر مما يوعظ به رجال الدين عن قصة خلق آدم من طين ثم عصيانه وطرده من الفردوس في علياء السماء إلى الأرض ذلك الكوكب الشارد المسكين، ثم بالله عليك أيهما أقرب لقبول العقل في تفسير نشأة الكون نظرية الانفجار العظيم أو نصوص التوراة والإنجيل والقرآن؟

أضاف وقد لاحظ صمتي واستغراقي في التفكير مركزا النظر على لوحة الإعلانات المثبتة أمامنا على الجانب الآخر من المحطة: سفن الفضاء تتطلق لتجوب مجموعتنا الشمسية الصغيرة تحوجها عشرات السنين لتبلغ حدودها وهى بعد جزء تافه من الكون الفسيح، يوجد مثلها عشرات الآلاف ينتشر في آلاف المجرات التي يعز على العقل استيعابها، كيف نقارن تلك الحقائق التي لا جدال فيها مع نصوص ليس عليها أي دليل؟

كان المترو - أو الأويان كما يسميه الألمان - المتجه إلى "البان هوف" بقى دقيقة على وصوله مؤذنا لحظة الافتراق، قلت لجونتر وهو ينهض من مقعده حيث جلسنا ننتظر

- هذا خلط بين الرمز والحقيقة، المهم هو الإيمان بوجود الخالق وهو ما لا يتعارض مع نظرية الانفجار العظيم كما لاحظ بعض العلماء ومنهم "ستيفن هوكنج" نفسه.

تواري "الأويان" حاملا جونتر في اتجاه قريته كما تتوارى لحظات الزمن في كتب التاريخ بالرغم من مخزونها الذي لا ينفد في جعبة القدر، وظل بصرى محاولا النفاذ في كنهه مالا أراه.

في رواية "دان براون" الملائكة والشياطين "يقف كارلو فينتريسكا" السكرتير الخاص لبابا الفاتيكان الراحل أمام كاميرات التلفزيون معلنا أن الحرب بين الدين والعلم قد انتهت بانتصار العلم مؤكدا أن انتصار العلم كان حتميا وأن العلم قد أصبح الإله الجديد للبشرية، أن المعجزات الجديدة هي الهندسة الجينية والاتصالات الإلكترونية والطب وسفن الفضاء، لم تعد للقصص القديمة من إحياء الموتى وإشقاء الأعمى وشق البحار أهمية أو أثر في نفوس الناس، ثم أضاف أننا جميعا دفعنا ثمننا غاليا لانتصار العلم بعد أن أصبح العالم لا يبهرنا.. غروب الشمس لم يعد سوى تردد موجات، الكون تقفت إلى معادلات رياضية، حتى القيمة الذاتية للإنسان دمرت، الأرض وما عليها ذرة لا قيمة لها في خضم لا نهاية له، مجرد مصادفة. لماذا أصبحت حياتنا أكثر كآبة من أي وقت مضى في تاريخ البشرية؟ العلم لا يقدس شيئا؛ لأنه يبحث عن إجابة لكل سؤال، يفحص الأجنة في بطون أمهاتها، يطمح لإعادة تنظيم الحمض النووي للإنسان وغيره من المخلوقات. لكن العلم ينتصر مثل الفيروس الذي ينمو بطريقة خبيثة متسارعة. استلزم الإنسان آلاف السنين لينتقل من صناعة العجلة إلى صنع السيارة، لكنه اجتاز صناعة السيارة إلى الفضاء في بضع عقود فقط. الآن يحسب التقدم العلمي بالأسابيع والخلاف بيننا يزداد عمقا، بعد أن هجر الناس الدين وجدوا أنفسهم في فراغ روحاني وتافوا معنى الحياة التي يحيونها فتارة تجذبهم تجارب التحرر من الجسد وتارة يتطلعون إلى وجود مخلوقات قادمة من الفضاء، إنها صرخة النفس المعاصرة التي تؤلمها الوحدة ويعذبها ما جنته بأيديها

من تنوير! العلم سوف ينقذنا كما تقولون، العلم سوف يدمرنا كما أراه، منذ أيام جاليليو والكنيسة تحاول أن تبطئ تسارع العلم، لكن الإغراء كان قويا لا يمكن مقاومته، وما وعد به العلم من كفاءة وبساطة لم يحققه إنما استبدله بالتلوث والفوضى..

ما هو هذا العلم الإله الذي يمنح عباده القوة دون أساس أخلاقي لاستعمالها؟

ما نوع الإله الذي يعطى طفلا نارا ولا يحذره بمخاطرها؟ لغة العلم تأتي خالية من النصيح بما هو طيب أو خبيث، تحدثنا كيف نشئ تفاعلا نوويا لكن لا تصحنا إن كانت تلك فكرة خيرة أم شريرة.

وفى النهاية يلقي سؤاله على الجميع: "هل أصبح رجال الدين لا قيمة لهم؟ هل العالم حقيقة في حاجة لصوت يدافع عن الفقير والضعيف والمقهور؟ هل نحن في حاجة لهؤلاء الذين يفنون حياتهم متوسلين إلينا أن نقتدى بالقيم الأخلاقية ولا نفقد طريق الحق؟"

وصلت إلى منزلي ودخلت حجرتي دون أن ألحظ اختلاف الأمكنة، حين تسيطر فكرة على وعي الإنسان لا تلحظ العين ما تراه.

فى اليوم التالي توجهت لمقابلة "كلاوس" في إدارة مشاريع البترول والغاز لمناقشة قصيرة لنتائج أحد المشاريع التي كنت أتابعها في مصر، كنت أعرفه من خلال زيارته لمكتبنا في الإسكندرية، متوسط القامة كثيف الشعر كث الشارب هادئ الطبع سهل العشرة لم أره أبدا غاضبا أو متوترا بالرغم من ضغوط العمل المتواصلة.

بعد عدة دقائق من حديثنا رن جرس التليفون في مكتبه تحدث بضع عبارات قصيرة وهو ينظر إلى مبتسما ثم وضع سماعة التليفون واستأنفنا حديثنا دون أن يفسر سبب ابتسامته فافترضت أنها لا تعنيني، لكنه قال بعد لحظات

.. هناك مفاجأة قادمة خلال ثوان.

لم تمض دقيقة حتى رأيت "فيلهم" بوجهه الطيب وملامحه الودودة، مضت عشر سنوات منذ المرة الأخيرة التي زار فيها مصر افترقنا بعدها دون أن ندرى متى أو أين سنلتقي، وقتها لم يدر بخلدي أنى سأعمل في

تلك الشركة أو سأقوم بزيارة ألمانيا. كيف عرف بوجودي في هامبورج وفى هذا المكان ولم يمض على يومان؟

كانت الفرحة المشوبة بالدهشة لرؤيته أمامي تفوق حيرتي، بعد لحظات الانفعال قال مفسرا: قابلت "جرهارد" بالأمس وأخبرني أنكما ركبتما نفس الطائرة القادمة من الإسكندرية نحو فرانكفورت ثم توجهت أنت إلى هامبورج وهو إلى بريمن حيث نعيش فقررت أن أسافر إلى هامبورج اليوم علني التقى بك وأرتب موعدا تزورنا فيه.

قلت مندهشا من المصادفة: لم أعرف أنك و"جرهارد" أصدقاء، ما أغرب تصارييف القدر. سوف أمضى في "بريمن" الأسبوعين القادمين يمكننا أن نرتب لزيارتك خلالهما.

. لماذا لا تأتى للإقامة معنا هذين الأسبوعين، لدينا حجرة إضافية في منزلنا، أو على الأقل تمضى نهاية الأسبوع معنا، سوف آتى إلى ترسانة "بريمار فولكان" يوم الاثنين لاصطحبك إلى منزلنا وهناك تقرر ما يناسبك.

قال كلاوس: هذا الرجل يعيش في "بريمن" وعمله في هانوفر "أتى هامبورج ليراك بالرغم من مرور عشر سنوات على آخر لقاء بينكما في مصر؟ أن يظل يذكرك طوال تلك السنين ويأتيك بتلك اللفتة فهذا أمر غير عادى.

. صدقني كنت سأفعل مثلما فعل لو أنه حضر إلى مصر، السنوات لا تؤثر في متانة الصداقة الحقة.



في فجر الاثنين غادرت منزلي متوجها إلى "البان هوف" كي أستقل قطار السادسة إلى بريمن، الجو بارد وممطر لكن وصولي إلى المحطة أعاد إلى بعض الدفء، كانت تعج بالحركة والحياة كأنها في عز النهار، المطاعم والمقاهي المصطفة ممتلئة بالزبائن، من يتناول إفطار مبكرا على عجل ومن يحتسى كوبا من القهوة لحين موعد قطاره، محلات بيع الكتب والمجلات والجرائد عامرة بالمشتريين، النداءات على القطارات القادمة والراحلة تتابع بالرغم من لوحات الإعلانات

الإلكترونية و الورقية الموزعة في كل مكان، إنها عالم مصغر لحركة الحياة لإنسان هذا النهار.

تقع بريمن في جنوب غرب هامبورج، تبعد عنها مسافة تزيد قليلا عن المائة كيلو مترا قطعها القطار في ساعة وبضع دقائق. لم تكن محطة القطار في بريمن تقل حركة وحياة عنها في هامبورج.. اتخذت وجهتي نحو مكتبنا في بريمن مهتديا بخريطة للمدينة سلمتها لي أندريا حددت عليها مساري بدقة متناهية لا تسمح بخطأ أو ضلال. من هناك اصطحبني زميل ألماني إلى ترسانة السفن "بريمار فولكان" على اسم إله النار والمعدن عند الرومان "فولكان" وتقع في مقاطعة قريبة من "بريمن" اسمها "فيجازاك". دلني الزميل المهدب على وسيلة الذهاب إلى هناك مستخدما الأوتوبيس في الأيام التالية في مواعيد محددة نصحني بها تتفق مع موعد وصول قطاري من هامبورج.

مضى يومي الأول في الترسانة حافلا بالعمل ولقاء زملاء جدد معظمهم أكبر مني سنا ومنهم "هلمود" الذي تجاذب معي أطراف الحديث خلال ساعة الغداء مستفسرا عن مصر مبديا أسفه لضحايا الزلزال الذي أصابها.. أضاف: إنها المرة الأولى التي نسمع فيها عن زلزال يهز مصر، خسائر الأرواح والممتلكات كبيرة حسبما نشاهده في الأخبار.. إنها كارثة بلا شك.

قلت: هذا صحيح، لكن تكاتف الأمة يخفف من حدة الكارثة . على الأقل تلك كارثة طبيعية، أحيانا تكون كوارث الأمم من صنع أنبائها مثل كارثة ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، لكن تكاتف الأمة كما أشرت أعاد لنا الحياة وأصبحت ألمانيا من أرقى الدول في أقل من خمسين عاما.

لا بد أن التضحية كانت هائلة لملايين البشر الذين واجهوا كارثة ما بعد الحرب لسنين طويلة حتى أصبحت ألمانيا بهذا الوجه المشرق.

لك أن تعلم أن الرجال والنساء معا كانوا يعملون ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة في اليوم يبنون المصانع والماكينات والطرق والجسور والبيوت، عمل متصل بلا كلل دون تضحية بالمتانة والجودة والارتقاء، العمل الجاد الشاق الذي لا يفرق بين رجل وامرأة ولا يحتقر مهنة مهما

بدت تافهة، وقف الجميع صفوفًا طويلة ليحصلوا على طبق من حساء الكرنب الأحمر بعد يوم العمل الشاق.

ابتسم بعد توقف قصير وقال: لهذا نعتز بالكرنب الأحمر حتى اليوم ونتناوله باستمتاع، تعلمنا الدرس بكل قسوته، أفقنا على معاني الحياة التي تعلو من قيم العمل والسلام وقبول الآخر وتحاشى تكرار الخطأ. هذا ما يجب أن يحدث في منطقتكم، الحرب والعداء المستمر لن يفيد أحدا غالبا أم مغلوبا بامتداد الزمن.

كنت مصفيا إليه بإعجاب، سنوات عمره التي تخطت الستين تؤكد كل كلمة يفوه بها، قلت مازحا: لكنك الآن تنعم بثمره هذا الجهد الذي بذله الآباء وهم مدركون أن ثمرته لن تطلها أيديهم.

سكت لحظات بدت عليه لمحة أسى وقال: ليتني كذلك، أنا مازلت أنفق على ابني يدرس لنيل درجة الدكتوراه في الهندسة، حتى يتم تعليمه لن يتوفر لنا ما به نقضى إجازتنا السنوية حيث نشاء.

- إذن فأنت تضحي لابنك كما ضحى أبوك؟

- الأمر غير ذلك، القانون الألماني يحتم على الأب الإنفاق على ابنه إذا استمر في تعليمه بنجاح حتى سن الثامنة والعشرين، كان أفضل لي لو أنه رضى بدرجة البكالوريوس وبدأ حياته العملية إذن أكون قد أدت واجبي وأستفد بعض المال لراحتي وأمه، هكذا الحال.



انقضى يوم العمل، اقتربت الساعة من الخامسة مساء فخرجت لانتظار "فيلهم" عند بوابة الخروج حيث اتفقنا أن نلتقي. طافت بنفسي ذكرى الأيام التي قضيناها معا في الإسماعيلية حيث عملنا في مطلع الثمانينيات، تذكرت حين وقفنا أمام أحد المساجد في طريق عودتنا لفندق السلام، كان وقت صلاة المغرب فوقف يراقب باهتمام استغراق المصلين في أداء صلاتهم ثم قال بصوت هامس: - يغمرنى شعور عميق بالسلام والطمأنينة لمجرد تأملهم، هل تظن أنه يمكنني الدخول للحظات؟

دخلنا وجلسنا في أحد الأركان نتأمل في صمت، أسارير وجهه تبئى عما يجيش في صدره من أحاسيس، بعد خروجنا قال: قرأت عن الإسلام

بعض الكتب وحصلت على نسخة من القرآن مترجمة للألمانية، لكن لا شيء يعادل شغف الإحساس بالواقع الحي، الشعور الديني جزء أصيل من طبيعة البشر بصرف النظر عن ديانتهم.

قلت متذكرا تجربة مماثلة: هذا ما شعرت به أيضا حين حضرت قداسا للصلاة في إحدى الكنائس في "بادن" بسويسره، لكن تواصل هذا الشعور يشترط صدق النفس وصفاء مقصدها.

قطع انسياب الذكريات رؤيتي له يلوح من السيارة وقد اقترب من حيث أقف، توجهت نحوه ودلفت إلى جواره بسرعة محتميا من الأمطار المتساقطة، اعتذر عن تأخره تلك الدقائق القليلة بسبب كثافة المرور هذا الوقت من اليوم قطعنا المسافة حتى منزله في ضواحي "بريمن" في حوالي نصف الساعة، منزل صغير مكون من طابقين تحيطه حديقة كما هي معظم البيوت هنا، يتفق مع النسق العام للمنطقة التي يتواجد فيها. قدمني لزوجته وأحد أبنائه في لقاء ودي غمرني بالألفة وخفف من حنيني لأسرتي، قالت زوجته في تلقائية: هل أخبرك فيلهم أننا في طريقنا إلى مصر الأسبوع القادم؟

نظرت إليه مندهشا فابتسم وقال: - لم أبلغه، أردت أن نفاجئه.

قالت موضحة: سوف نذهب في رحلة نيلية من الأقصر لأسوان وكنا نخطط لزيارتك في الإسكندرية في نهاية الرحلة، لكنك كنت أسرع منا.

قلت لهما جادا: لازالت أسرتي في الإسكندرية وسوف يسعد زوجتي استقبالكما فلا تغيرا ما تم التخطيط له.

بعد تناولنا طعام العشاء مع اقتراب الساعة من الثامنة قال فيلهم معذرا

- الوقت قصير لاستمرار الحديث، يجب أن أستيقظ في الخامسة صباحا للتوجه إلى "هانوفر" حيث أعمل؛ لذا سوف أخلد إلى النوم، دعني أصحبك لحجرتك التي أعدناها لك، كانت لإبني الأكبر الذي استقل بحياته ولم يعد يعيش معنا.

سألته ونحن نصعد للدور العلوي من المنزل حيث توجد حجرات النوم، عن أحد زملاء العمل يعيش في بريمن اسمه فالتر " كيف حاله؛ حيث سمعت بإصابته في إحدى ساقيه،

أجابني: يتماثل للشفاء، هو يعيش في شقة قريبا من محطة القطار، ما رأيك أن نزوره سويا يوم الخميس حيث يتوفر لي الوقت مساء سوف يسعده ذلك.

- فكرة جيدة: إذن سأمر عليك في نفس الموعد والمكان.



يوم الخميس الساعة تخطت الرابعة مساء، أنهى كل من في المكتب يوم عمله وغادروا المكان، جلست أنتظر موعد حضور " فيلهلم " حسب اتفاقنا، كالعادة انشغلت في قراءة ما أحمله من كتب، هذه المرة كان كتابا للصحفي الشهير " بوب وإدوارد " من الواشنطن بوست عنوانه " الحجاب " يقص فيه دخائل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في عصر أحد رؤسائها " ويليام كيسي "، كنت اشتريته مؤخرا وبدأت استهلك صفحاته التي تزيد عن الألف في ساعات السفر المتواصل أو ساعات الانتظار. بعد دقائق استأذنت فتاة في سن العشرين لتتظف المكتب كما هو معتاد بعد خروج الموظفين وبدأت عملها وأنا منهمك في القراءة، تبهت وهي تسألني إن كان عملها يزعجني أنها تتحدث بالإنجليزية على غير المنتظر كما أن ملامحها ليست الألمانية بقدر ما أميز تلك الملامح. لم أعر الأمر كثيرا من الاهتمام لكن شيئا ما في نبرة صوتها جعلني أعيد إليها النظر بعد لحظات كأنني أتأكد من ظني.

كانت قد بدأت تفرغ صناديق النفايات الموزعة إلى جوار المكاتب، لم تكن طريقة عملها بالشكل المعتاد لعمال النظافة الذين يحفظون عملهم بأيديهم من كثرة التكرار. كانت تبدو لي تفكر في كل خطوة قبل أن تؤديها، تلفها هالة من الغرابة والحزن أزهدتني في القراءة، قاومت رغبتني في تبادل بضع كلمات معها أختبر ظني ثم غلبني الفضول وأشعة حزنها معا.. سألتها: - اسمحي لي يا آنسة، لا يبدو لي أنك متحمسة لأداء هذا العمل، أعذري لي تطفلي، لكن هناك حزنا واضحا في وجهك.

توقفت برهة عما كانت تفعله، نظرت إلى مليا وسألتني: - أنت لست ألمانيا، لم يسألني أحد هذا السؤال منذ جئت ألمانيا، لم يلحظ أحد ما لاحظته، أو ربما لم يشغل نفسه بما لاحظته!

- أنا مصري أعمل في شركة ألمانية جئت هنا لقضاء فترة تدريب أعود بعدها إلى مصر، لكنك لم تجيبي على سؤالي.

- ماذا تنتظر من فتاة فقدت أسرتها ومستقبلا كريما كانت تسمى إليه أوشكت أن تبلغه، كنت طالبة في السنوات النهائية في كلية الطب في وطني البوسنة، خربت حرب الإبادة العرقية بيوت المسلمين، فقدت أهلي وتهدمت كليتي وحملتني قوافل الإغاثة لاجئة إلى ألمانيا إنقاذاً لحياتي كي أعمل عاملة نظافة.

سكنت لحظات كأنها تجتر مشاهد ألم لا ينسى ثم أضافت: قدمت لنا الحكومة الألمانية مشكورة مسكنا نأوى إليه، وفرت لنا عملا نرتزق منه كما تشاهد.

قلت محاولا مواساتها: إنها مأساة لاشك، لكن على الإنسان ألا يستسلم لواقعه مهما كان طاغيا، لا أظن العالم المتحضر سوف يسمح لتلك الحرب أن تستمر، سوف تعودين إلى وطنك خلال أشهر قليلة ويشرق مستقبلك من جديد، لا تبتئسى.

أجابت كأنها تقرأ الغيب: لا أظن ذلك، تلك الحرب ستدوم سنوات وستدمر كل شيء، النية مبيتة لدى الصرب أن يمحوا كل ما يمت إلى الإسلام بصلة ثم يقيموا صربيا الكبرى على أساس عرقي، من تظن يساند المسلمين ويحميهم من بطش الصرب؟ هل تظن أوروبا سوف تتفرض لتدفع عدوانهم عن المسلمين؟

- إذا لم توقف أوروبا تلك الحرب لسبب عقائدي فسوف تفعل ذلك حتما لأسباب سياسية أو إنسانية.

- بل هي لن تفعل ذلك لأسباب سياسية، أمام الدوافع الإنسانية سوف تلبى نداء الضمير بإرسال المعونات الطبية والأغذية إن استطاعوا، ثم قبول بعض اللاجئين والفارين إن وصلوا أحياء كما فعلت ألمانيا، ما أحاول استيعابه الآن هو أن حياتي التي عرفتتها قد انتهت ولن تعود،

أحاول تعلم الألمانية كي أجد فرصة أفضل للحياة في البلد الذي آواني، لكن ما حلت به وكافحت من أجله كفتاة ضاع إلى الأبد.

يقص نوبل "مالكولم" الكاتب السياسي في الدبلي تليجراف الصحيفة البريطانية الشهيرة قصة البوسنة في كتاب "تاريخ مختصر للبوسنة"، يسطر في هذا الكتاب كيف سيتذكر العالم عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ كتاريخ لا يمحي لتدمير وطن فريد. وطن لا يماثل تاريخه السياسي والثقافي أي وطن آخر في أوروبا. وطن تفاعلت فيه القوى العظمى مع الديانات الكبرى فاختلطت وتشابكت، إمبراطورية الرومان وشارلمان، العثمانيون والنمسا والمجر، مقابل الكاثوليكية والأرثوذكسية واليهودية والإسلام، بهت هذا التاريخ الغني اليوم بما شاهده البوسنة من حروب وعنف أطلق سحابة دموية من الجهل والضلal. نصف "نوبل مالكولم" في كتابه الدعوى بحتمية الحرب في البوسنة كنتيجة للكرهية العرقية القديمة وأوضح أن سبب الرغبة في تدمير البوسنة في أساسه سياسي افتعلته قوى خارجية، أولا بسبب الاستراتيجية السياسية للقيادة الصربية وثانيا كنتيجة لتدخل الساسة الغرب بجهل مهلك وعدم بصيرة بحقائق الأمور، في النهاية دمر هذا الوطن الفريد وانمحي في أعقاب هذا الدمار أي احتمال لمستقبل له.

في نهاية كتابه يقول: "ربما أفضل تعليق على ما اتخذه "ميلوسوفيتش" و"كاراديتش" من تكتيك في تلك الحرب البشعة التي أودت بحياة مائة وخمسين ألفا وشردت ما يزيد عن مليونين من السكان أبعدتهم عن بيوتهم ومدنهم وقراهم بعد أن تحولت إلى خراب، بالإضافة إلى مئات المساجد والكنائس التي دمرت عن عمد ذلك الوصف الذي اعتمد أحد المؤرخين لبلد آخر انغمس تاريخه أيضا في دماء البشر وهو روسيا، في روايته "المسكين" يتحدث الروائي الروسي الشهير "ديستوفيسكي" عن أبطال روايته زعماء البلشفيين، كيف أنهم أصروا على سفك الدماء لمجرد أن يرتبطوا جميعا برابطة الذنب المطلق، فكلما زاد عدد الضحايا الأبرياء ارتقى الحزب البلشفي وكلما أدرك أعضاؤه ألا تراجع أو تردد أو مصالحة وأنه لا سبيل أمامهم إلا التقدم نحو النصر النهائي دون أي اعتبار لثمن هذا النصر.

لم آع أبدا كم كانت تلك الفتاة مصيبة في إدراكها للمأساة وكم كنت مخطئا في تقديري لعمق الشر في الطبيعة البشرية إلا بعد مرور السنين.



خرجت من بوابة الترسانة أترقب وصول "فيلهلم" مشاعر الأسف والأسى لتلك الفتاة وما يحدث في وطنها تطفئ على نفسي. وجدته في انتظاري فتوجهت نحوه، ما أن اتخذت مجلسي إلى جواره حتى انطلق ونظره مثبت على الطريق قال بعد عدة ثوان.

. لمحتك في مرآة السيارة تقترب، لاتبدو لي متألفا كما رأيتك المرة الأخيرة هل هو إجهاد العمل؟

أجبتة: لا، إنه إجهاد النفس، بعد حديث بالصدفة البحتة مع فتاة من البوسنة تعمل في الترسانة بدا لي العالم قبيحا وبائسا، لماذا لا تتدخل أوروبا وتنتهي هذه الحرب، هل هي عاجزة أم متواطئة؟

. لا هذا ولا ذاك، لقد تعلمنا دروسنا بثمن باهظ وغير مستعدين لأن نكرر أخطائنا، هذه البؤرة في أوروبا - دول البلقان - هي سبب كثير من الحروب، عليهم أن يحلوا مشكلتهم بالطريقة التي تناسبهم، نحن كألمان ضد أي تدخل عسكري من جانبنا في هذه الحرب، نحن أيضا لا نساند طرفا ضد الآخر، كلهم مخطئون وإن كانت أخطاء الصرب أكثر فداحة.

سكت غير راغب في استمرار هذا النقاش خاصة ونحن مقبلان على زيارة صديق مصاب يستحق منا بعض البشاشة.

"فالتر" في الستينيات من عمره، عرفته في مَصر في بداية الثمانينيات أيضا حين أتى إليها لمتابعة بعض الأعمال ثم قويت صداقتنا بدواعي العمل. استقبلني بحفاوة كأنه ينتظر أخا عزيزا، احتضان الأصدقاء دليل محبة وقد أشعرنني بذلك كثير من أصدقائي الألمان.

بعد حديث الذكريات دعانا "فالتر" لتناول العشاء في مطعم قريب من منزله سألني ونحن نسير نحو المطعم إن كنت قد شاهدت شيئا من معالم بريمن فأجبتة محطة القطار الرائعة وبعض العمارة من المدينة القديمة في طريق مكتبنا كما شاهدت في الطريق إليه مبنى جامعة

بريمن الحديثة الذي أخبرني فيلهلم أنه يضم في حرمه أعلى برج في بريمن والذي يرتفع ما يقرب من مائة وخمسين مترا حيث تجري اختبارات انعدام الوزن.

قال فالتر متباهيا: بريمن أقدم مدينة في أوروبا حافظت على استقلالها خلال القرون بالرغم من كل صنوف المحن، لهذه المدينة دستورها المكتوب من ثمانمائة عام يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة، فهي إحدى مدن ألمانيا الكبيرة، بها أكبر ميناء بعد هامبورج، عليك أن تمضي بعض الوقت هنا لتشاهد معالمها، يمكنك أن تقيم في شقتي إذا شئت فهي كبيرة وتتسع لكلينا.

شكرته قائلا: هذه فكرة جيدة، سوف أزورك في إحدى عطلات نهاية الأسبوع بعد أن يستقرى المقام في هامبورج.

بعد العشاء عدنا إلى منزله نواصل الحديث وإذا " فيلهلم " يسألني فجأة

- ما رأيك في الانتقال بأسرتك للعيش معنا في ألمانيا، هناك وظيفة شاغرة في الشركة التي أعمل بها تناسب مؤهلاتك تماما؟

أضاف فالتر: ولماذا ينتقل إلى شركتك هناك مكان له في إدارتي إذا رغب.

قلت لهما والمفاجأة في السؤال تبطئ من ردى: الحقيقة أنا لا أستطيع العيش خارج وطني مصر، لازالت لي آمال لا يمكنني تحقيقها بعيدا عنها، أنا أكتب وأشعر أن لدى ما أقوله للناس فهو واجب لا يمكنني التخلي عنه.

نظر فالتر مندهشا وقال :- هل ترفض العيش في ألمانيا؟ مستوى المعيشة في ألمانيا الأعلى في العالم، يمكنك أن تواصل كتاباتك هنا بحرية أكثر.

أجبتة: أنا لا أشك فيما تقول لكن على الإنسان أن يسأل نفسه ماذا يبغى من حياته في النهاية، الكاتب لا يتخلى عن موطنه أبداً، يمكنه أن يخاطب الإنسانية جمعاء من خلال حديثه لوطنه، كما أن الكاتب هو الذي يحدد مدى حرته مثله كالرسم والنحات والموسيقي، وليس المكان الذي يعيش فيه.

ساد الصمت بيننا لحظات تذكرت فيها فتاة البوسنة التي قابلتها عصر اليوم كيف كانت منكسرة بانكسار وطنها ربما لن أنساها مطلقاً، قلت متأثراً بالذكرى: بالطبع الوطن ليس مجرد قطعة أرض إنما هو ماض وثقافة وتاريخ متصل، لهذا تبقى الأوطان حتى لو انتزعت الأرض أو احتلها مغتصب.

نظر إلى فالتر مستفسراً فتطوع فيلهم بالقول: - لقد تحدث مع فتاة لاجئة من البوسنة، قصت عليه الأحوال التي عاشتها وحالة اليأس التي تعيشها.. يبدو أنه لا زال متأثراً بحديثها.

قلت: - نعم ما يحدث في البوسنة الآن هو إبادة وطن وليس انتزاع قطعة أرض.

قال فالتر مبدياً تفهمه: الأمر أكثر تعقيداً مما يبدو، هو معقد لدرجة يصعب تحليله بأي منطق، لكنني سأحاول إبداء رأي متواضع لألماني عجوز.

سكت قليلاً يستجمع أفكاره ثم استأنف يقول: - قرأت في تاريخ دول البلقان خاصة البوسنة، بالطبع حين اندلعت الحرب راجت الكتب التي تتناول ماضي تلك الدول بالدرس والتحليل، هذه طريقتنا في أوروبا لفهم ما يدور من حولنا، ما استخلصته أنه لا يعقل أن نُخلّ الأحقاد بين الأعراق المختلفة كآمنة لمئات السنين ثم تتفجر بهذه الدرجة من العنف والدمار، كما أن معتقي الأديان السماوية الثلاثة عاشوا تلك القرون معاً وأثروا في بعضهم البعض حتى تالفوا وتقاسموا المصير، فكيف يمكن قبول أن تلك المجازر دافعها الاختلاف حول كيف نعبد من خلقنا؟ إذن فالأقرب إلى الفهم أنها مصالح فئة معينة تعلم أنها لن تحقق مآربها إلا بهذه الطريقة الوحشية لأنها تعلم يقيناً أن ما تريده غير عادل وغير منصف وأنها لن تجد أحداً ينصرها فيه. إذا أمعنت النظر تجد ذلك

محصورا في بضعة أفراد أسلموا أنفسهم لنوازع الشر حين تكبل وعى الإنسان في لحظة امتلكوا فيها قوة السلاح. حين يجتمع الشر مع القوة فلا تبحث عن منطق إنساني. كانت تلك أيضا تجربتنا مع النازية، الآن نتساءل في حيرة كيف أمكن لفرد واحد أن يتسلط بكل ما في نفسه من شر على مستقبل أمة فيملك قدرها، ثم يحمله غروره لمحاربة العالم ثم تضحي أمته بعد ذلك خرابا، ثمن باهظ وهائل دفعناه لأننا رضخنا لما لا يقبله المنطق الإنساني البسيط، هذا ما يحدث الآن في البوسنة وإن كان على مقياس أصغر بكثير.

سألته وأنا منصت باهتمام لما يقول: ألهذا السبب تنأى أوروبا عن التدخل وردع المعتدين؟ أهو الخوف من الاختلاف حول الوسيلة وربما التكلفة؟ هل يمكن لأحد أن يصدق أن قوة حلف الأطلسي التي شكلت للدفاع عن أوروبا ضد خطر الاتحاد السوفيتي عاجزة أن تسيطر على نزاع إقليمي في دويلة تفككت من اتحاد مصطنع؟ أم أن هناك رغبة خفية حتى عن أصحابها مفادها محو أي احتمال لقيام دولة مسلمة في جنوب أوروبا مهما كانت الوسيلة لتحقيق ذلك مخزية ومهينة لما تتادى به أوروبا من قيم وأخلاق وحقوق الإنسان.

قال "فالتر": أوروبا عليها مسئولية إزاء هذا الصراع لا شك في هذا لكننا في أوروبا نحاول أن نفهم قبل أن نفعل والموقف كما حاولت أن أبين معقد للغاية ويصعب على فهم السياسة الموجودين في الحكم الآن، أو ربما هم غير راغبين في المغامرة بمستقبل حكوماتهم في صراع ليس له تأثير مباشر على اقتصاد دولهم، أما الثمن الأخلاقي إذا شئت فهو محتمل طالما الشعوب صامته تراقب دون انفعال مؤثر على هؤلاء السياسات، سوف تتحرك أوروبا فقط حين تتحرك شعوبها تطالب ساستهم بالعمل، ربما كان التخوف من قيام دولة مسلمة في جنوب أوروبا سببا في الصمت عما يحدث كما افترضت، أعنى صمت الشعوب. نحن نعمل بجد للحفاظ على تقدمنا ورفاهية حياتنا، هل نظننا نلقى بكل ذلك لمطاردة بعض الشياطين، إلى أي مدى نظنني مسئولا عن أخي؟ بالتأكيد ليس إلى الدرجة التي يتحطم عندها مستقبلي.

أضاف "فيلهم": أتصور الخوف ليس من قيام دولة مسلمة في حد ذاته وإنما في عودة أوروبا لسيطرة الدين على الدولة وهو ما يبشر به

المسلمون الأصوليون وذلك ما لن يسمح به الأوروبيون في قارتهم مهما كان الثمن وأظنك تتفهم هذا الخوف.

قلت: إذن فما يروج له "هنتجتون" من صدام الحضارات لإعادة بناء عالم جديد يجد صدهاء في سياسات الغرب وأيضا في ضمائر شعوبه. حينئذ تفقد البشرية فرصة ثمينة في تكامل قيمها واستخلاص أفضل ما أبدعه أبنائها في مختلف مشاربهم وأصولهم، كان يمكن لتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات أن تهئ للعالم وحدة أخلاقية فريدة في تاريخه تسمح بتعدد ثقافته دون هيمنة لإحداها على الأخرى.

قال "فاتر": هذا ممكن إذا لم يتعد دور الأديان العبادة والوعظ الأخلاقي ويترك تنظيم الحياة والمجتمع لما يتفق عليه المجموع من دساتير وقوانين، لا يضير أحد إن كان المسلم لا يأكل لحم الخنزير أولا يقرب الخمر كما لا يضره إن كان الآخر يقدر الصليب أو البقرة، لكن أن يحكمنا ويملك أقدارنا حفنة من الرجال يزعمون صلتهم بالسماء فهو غير مقبول لنا في الغرب.

أضاف فيلهم: أنت تعرف أنني أحترم الدين الإسلامي وقد قرأت عنه، أظن الفكر الإسلامي يواجه تحديا صعبا في العصر الحاضر، هناك الكثير من الأسئلة التي يطرحها العلم والاكتشافات الحديثة لا يقدر على تفنيدها دين من الأديان، أضف إلى هذا انعدام أو ندرة المفكرين القادرين على استيعاب هذا التحدي ومواجهته بمنطق العصر، بدون دور أصيل للفكر لن يعبر أي دين هذا المأزق خاصة الدين الذين يعلن أنه يلائم كل العصور.

قلت: لازلت أرى الحوار بديلا للتصادم والبحث عما هو مشترك أنفع من تعميق الخلاف، لن يتوحد الناس على دين واحد أو فكر مشترك مهما كان لكننا نستطيع العيش جميعا معا ونحقق ما نرجوه في الحياة دون أن يقتل بعضنا بعضا، لدينا من تحديات المرض والفقر ما نواجهه معا ونغلب عليه، لنبحث عما يقرب بيننا وليس ما يباعد بيننا. إذا كان الإسلام لا يناسب الغرب فليس في الإسلام ما يجبر أحدا على اعتناقه.

كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة فاقترح " فيلهلم " أن نستأذن في الذهاب لنتمكن من أخذ قسط من الراحة قبل بدء عمل يوم جديد فأسرعنا إلى بيته للحاق بركب النائمين.



استيقظت حوالي الساعة الخامسة والنصف صباحا، بعد نصف ساعة كنت جاهزا لليوم الجديد، هبطت إلى الدور الأرضي من المنزل لأجد زوجة " فيلهلم " في انتظاري بالمطبخ حيث الإفطار معدا والقهوة ساخنة، بعد تحية الصباح سألتها عن " فيلهلم " فأخبرتني أنه غادر إلى عمله منذ ساعة وأنها ستصحبني بسيارتها إلى محطة المترو لأتجه من ثم إلى عملي، شكرتها وهي تضع في حقيبتي بعض السندوتشات للفداء كما اعتادت أن تفعل مع " فيلهلم وانطلقت إلى بريمار فولكان ".

مضى الأسبوع التالي في الترسانة بشكل روتيني في جو مطير وبارد لا يتغير، عدا دعوة للعشاء تلقيتها من مركز التدريب في هامبورج مع مجموعة أخرى من المتدربين الذين وصلوا خلال وجودي في بريمن فكانت فرصة للتعرف على زملاء جدد ستمتد إقامتنا معا لشهور قادمة. بعد انتهاء هذا الأسبوع بدأت أعد نفسي للسفر إلى مدينة "دوسلدورف" حيث أمضى الأسبوعين التاليين كما هو مخطط في أحضان الصناعة الألمانية.



من وسائل النقل الممتعة التي أفضّلها القطار، يتيح للمرء التحرر من التركيز في القيادة مثلما الحال في السيارة ويمنح راكبه متعة المشاهدة عن بعد لكثير ما يدور من حوله من مكان دون أن يختلط به، ليس كذلك الحال في الطائرة حيث لا تشهد غير السحاب وكأنك جالس في قفص مغلق، كما أن متعة القراءة أثناء حركته لا تقارنهما متعة، المهم أن يتحرك في موعد منتظم وألا يكون مزدحما جدا وأن يكون السفر نهارا. هكذا أمضيت حوالي أربع ساعات قطع فيها القطار ما يزيد عن ثلاثمائة كيلو مترا جنوب غرب "هامبورج" حتى وصلت "دوسلدورف". الفندق الذي نزلت به بسيط لكن ميزته الكبرى أنه يجاور مكتبنا. أخطرتني موظفة الاستقبال أن إقامتي عندهم مؤكدة لمدة أسبوع فقط

بعد ذلك على البحث عن مأوى آخر لأن كل الغرف محجوزة بعد هذا الأسبوع سألتها عن السبب في هذا الزحام فقالت لوجود ثلاثة معارض كبرى في نفس الوقت في "دوسلدورف" و"كولن" و"إسن" وهما مدينتان كبيرتان إلى جوار "دوسلدورف" قلت لنفسى هذا شأن مكتبنا، أن يدبر أمر إقامتي.

أتاح لي الأسبوع الذي أقمته في هذه المدينة أن أزور كثيرا من المصانع المنتشرة فيما حولها سواء في "إسن" أو "كولن" أو غيرهما من المدن الأصغر في محيط ثلاثمائة كيلو مترا، كل يوم كان يصحبني أحد زملائي في مكتب "دوسلدورف" لزيارة مصنعين أو ثلاثة قاطعين في رحلتي الذهاب والعودة مئات الكيلو مترات.

زرت في يومى الأول مدينة "مندن" و"زيجن" حيث تابعتنا صناعة المواسير الحديد، في اليوم التالى سافرت إلى مدينة "بوخوم" حيث زرت شركة كروب الشهيرة، بعد ذلك ذهبت إلى "زيندورف" و"برول" و"كولن" حيث شاهدت مصنع "دويتس"، هكذا تكشفت لي دولة صناعية من الطراز الأول وعرفت لم أصبحت ألمانيا أقوى دولة صناعية في أوروبا وربما في العالم بعد أمريكا. سألت زميلي في إحدى الزيارات ونحن نتناول طعام الغداء في إحدى مطاعم مدينة "بوخوم"، كنا قد انتهينا من عملنا في شركة "كروب".

- ما أراه في زيارتي لتلك المصانع يصيبني بالدوار ويفسر قوة ألمانيا الاقتصادية الهائلة، ما السر وراء هذا التقدم الهائل والمنظم بدقة متناهية تثير الدهشة من قدرة الإنسان؟

كان زميلي في نهاية الخمسينيات من العمر ذا شعر كثيف يتخلل اللون الرمادي فيه لونه الأسود الأصيل مرح محب للصحة، أجابني: لاحظت تلك الدهشة في عينيك، لكننا اعتدنا على رؤيتها في أعين زملائنا الزائرين، أنت أول من سألني هذا السؤال، هناك سبب أصيل لكل نجاح هو العمل الجاد.

سكت لمدة ثانية ثم أضاف: العمل الجاد المنظم لمجموع الفريق، كل فرد عليه أن يؤدي دوره بالإتقان المطلوب وإلا انعزل عن الفريق، المحصلة النهائية تعود على الجميع فلا تهاون ولا تقصير. العمل هو عقيدتنا، نحن

نعمل لأننا نحب العمل ونجد فيه قيمة مطلقة للحياة، بدون العمل نفقد تميزنا ونتخلف عن ركب التقدم الذي نقوده.

عدت إلى الفندق في نهاية اليوم وكلمة العمل تتردد في أعماقي، العمل قيمة مطلقة في حياة الإنسان كالمبادئ والأخلاق وليس ضرورة ارتزاق، ليس صورة للعبودية والرضوخ للحاجة بل هو إضافة للوجود من خلال التعبير عنه بإيجابية منتجة، هو كذلك إذا كانت الحرية ضامنه والعدل قانونه.

من يصدق أن في "دوسلدورف" وحدها مائة وسبعين مؤسسة مالية عالمية ومحلية ومائة وثلاثين شركة تأمين ومائتين من دور النشر وأربعمائة شركة إعلان، يتوقف في محطة قطاراتها الرئيسية أكثر من ألف قطار كل يوم.

أما جمال الطبيعة الطاغية فيكفي ما حباها به الخالق من وقوعها في حوض نهر الراين الخلاب حيث يصب نهر "دوسل" - الذي سميت على اسمه - في نهر الراين مباشرة، ألا يكون ذلك مكانا لأثقا ليرتبط به الشاعر العظيم "هيني".

مع انتهاء أسبوع العمل الأول في "دوسلدورف" اتصل بي السيد "جريبى" من مكتبنا في "دوسلدورف"، كنت وقتئذ في زيارة لعمل اختبارات المواد في "مولهايم" أخبرني أنهم عاجزون عن توفير مكان لإقامتي في الأسبوع التالي وأنهم اتصلوا بالمركز الرئيسي في هامبورج لمعرفة كيف يتصرفون، قلت له في براءة: أظننى أعود إلى هامبورج حيث يتوفر السكن.

أجابني بسرعة: لا أظن ذلك، لقد قرروا سفرك إلى "مانهايم" لقضاء الأسبوع القادم مع زملائنا هناك، حجزت لك تذكرة السفر بالقطار غدا وتم حجز فندق لإقامتك في "فيرنهايم" إحدى ضواحي "مانهايم"، سوف تجد التذكرة وعنوان الفندق في مظروف بانتظارك لدى عودتك.



هكذا وجدت نفسي دون ترقب مسبق متخذاً وجهة محطة قطار "دوسلدورف" في صباح يوم سبت بارد ممطر وقاتم، لم تفلح ابتسامة موظفة الفندق وهي تتمنى لي نهاية أسبوع طيبة أن تقنع الشمس بالسطوع

أو المطر عن الهطول وحملت حقيبتى خارجا. في محطة القطار لوحات الإعلانات تنتشر في كل مكان توقفت أمام إحداها أبحث عن موعد قيام القطار المتجه إلى "مانهايم" ورقم الرصيف الذي يقطع منه، عرفت أن "مانهايم" تبعد ما يزيد عن ثلاثمائة كيلو مترا جنوبى "دوسلدورف" وهى مسافة يقطعها القطار فيما يقرب من أربع ساعات انغمست في القراءة مقاوما ضيق النفس حتى لاحظت توقف القطار لعدة دقائق في "كولن" المحطة التالية، ثم انطلق من جديد كأن القدر يطارده حتى عبر "بون"، بينما هو يقترب من "كوبلنز" إذا بمشهد ينبسط أمامي تتطبع روعه في ذاكرة الإنسان إلى الأبد، كأنه صفحة من كتاب الجمال صورته يد الخالق المبدع. كانت الجبال تطل على جانب نهر الراين خضرة الأشجار المعمرة تكتسى سفوحها تمنحها نبضا بالحياة لا ينقطع، هل هناك ملائكة تحرسها وتحفظ لها خلودها؟

لا بد أن تصفو النفس وتتفرج الأسارير لمثل هذا الجمال حتى تتفعل به وتتواصل معه إلى حقيقة خالدة من حقائق الوجود.

صعدت من مدينة "كوبلنز" سيدة عجوز تخطت السبعين كما تبنى ملامحها، دخلت الديوان الذي أجلس فيه بمفردي تبحث عن رقم مقعدها، أخبرتها أنى أجلس دون رفيق يمكنها الجلوس إذا شأيت، قبلت وأحضرت حقائبها ثم جلست في المقعد المقابل إلى جوار النافذة. أسر بصرها المشاهد الرائعة التي أسرتني وظلت ممتدة متلاحقة بحركة القطار ثم تطوعت تشرح لي قصص بعض القلاع المنتشرة فوق قمم الجبال. انفجرت أساريرها حين أخبرتها أنني قادم من مصر، علا وجهها تلك المسحة التي تلازم ذكرى محببة إلى النفس إذا اخترقت حجب الماضي البعيد، قالت ملتفتة عن مشهد القلاع والحصون: زرت مصر منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، قضيت وقتا رائعا، كنت وقتها أعمل طبيبة، لا أظن أشياء كثيرة قد تغيرت في هذا البلد العريق، ماذا تعنى ثلاثون عاما في بلد يعرف آلاف السنين من ماضيه؟

قلت لها: الأشياء تتغير يا سيدتي حتى في مصر، أما إن كنت تقصدين أن الأهرام لازالت في مكانها فعندك حق!

سكتت قليلا كأنها شعرت أنى أستخف بحكمتها ثم قالت في ثقة: أنا أقصد الناس، شهدت فيهم عمق الإيمان، في كل مكان ذهبت إليه

كانت هناك مساجد ، لم أر مرة واحدة مسجدا مهجورا من المصلين ، هل تغير ذلك؟ هكذا كانت مصر طوال تاريخها الذي قرأت فيه كثيرا ، مهما تغيرت الأديان واستبدلت العقائد يظل الشعور الديني محرك المصريين الأساسي والقوى ، تسمع المؤذن للصلاة من شرقى القاهرة إلى غربها لا ينقطع سواء في حي راق أو متاء كأنه خيط غير مرئي يربط الجميع ، هزني ذلك كثيرا حينئذ وكلما تذكرته.

- هذا لم يتغير ، لكن العالم الذي نتمين إليه لا ينظر إليه نظرتك ، التقدم التكنولوجي المتسارع لا يفسح في وعى الإنسان ما يكفى ليطمئن ضميره مما يدفع المتدين للغلو والتشنج الفكري في محاولة للتخلص من سيطرة التكنولوجيا الطاغية ، هل تظنين أن هناك أملا في انفراج أخلاقي يمنح الإنسان فرصة لالتقاط الأنفاس؟

كان واضحا فرق الأربعة عقود بيني وبينها لأنها نظرت إلى مشفقة غير مصدقة سداجة ما أقول ، ابتسمت وسألتني: أين محطة وصولك؟ - "مانهايم"

- إذن ليس أمانا وقت كاف للنقاش القطار يقترب من "ماينز" بعدها يتوقف في "مانهايم" ، لو كنت أسعد حظا لاستمر بنا الحديث حتى "ميونخ".

أضافت بعد لحظات تأمل: الإنسان يتمنى ماضيه حين يتضاءل في وعيه مستقبله ، لهذا تجدني أجتري ذكرياتي بشغف كلما اقتربت من الثمانين ، لو كنت فتاة صغيرة لاندفعت نحو الغد بكل شجاعة ، هكذا أيضا الأمم. التكنولوجيا الحديثة يقودها البحث العلمى النشط تفتح أمام البشرية مستقبلا جديدا ومثيرا يحد من نظرتها لماضيها البعيد ويمتقزها للقفز إلى المجهول.

لمحت ما تحاول التعبير عنه فقلت بإصرار: مضى زمن الأنبياء الذين أسسوا لمستقبل الإنسان الأخلاقي وكانوا وراء فتوح الضمير البشرى ، ما تركوه من رسالات حقيق أن ينير هذا المستقبل من جديد لو وجد من يستوعب هذا العصر بروح مستبيرة تستلهم رسالتهم.

توقف القطار في "ماينز" وإذا بمجموعة من الأطفال يبدو أنهم في رحلة مدرسية يصعدون في صخب إلى عربتنا ثم يلج بعضهم الديوان الذي نجلس فيه ويتساءل أحدهم بأدب إن كان ممكنا أن يجلس ورفاقه معنا. رحبنا بهم بالطبع فتراصوا إلى جوارنا الحديث الصاخب بينهم لا ينقطع مما استدعى الابتسام المتبادل بيني وبين مرافقتي العجوز ومن ثم توقف النقاش. كانوا في قمة الحيوية والنشاط لم تهدأ حركتهم لحظة واحدة خاصة فتاة صغيرة عمرها حوالي سبعة أعوام ذكرتني بابنتي، كتمت دهشتي الشديدة حين ناداها أحد رفاقها وتبينت أنها تحمل نفس الاسم، أدركت حينئذ أن مجلسي في هذا الديوان لم يكن مصادفة.

نزلت من القطار وقد توقف في محطة "مانهايم" بعد أن رعت الطيبة العجوز متمنيا لها رحلة آمنة شاكرًا لها ما أنستني به من حديث، استقلت تاكسيا إلى فندق "سنترال" حيث وجدت غرفة مريحة واسعة دافئة في انتظاري ساعدتني على نوم أكثر استقرارا بالرغم أن صوت المطر وهو يرتطم بالنافذة لم ينقطع وأوراق الشجر من خلفها ترتجف مع اقتراب أجلها.

"مانهايم" تقع عند ملتقى نهر الراين ونهر نيكار "ومع بطول تلك الأمطار الكثيفة معظم أشهر العام أصبحت حديقة كبيرة أو جنة خضراء يقطنها حوالي ثلاثمائة ألف نسمة فقط، ولأنها مركز صناعي ضخم دمرها الأمريكان والبريطانيون بالقنابل في الحرب العالمية الثانية، لكنها بزغت من جديد أكثر تقدما وأضخم صناعة.

حضر "أندرياس" زميلي في مكتبنا "بمانهايم" إلى الفندق في صباح الاثنين في الموعد الذي أخطرني به وبدأنا معا أسبوعا مكثفا من العمل والسفر المتواصل بالسيارة حيثما وجد هذا العمل. ذهبنا إلى "شتوجارت" حيث زرنا مصانع "تيسين" العملاقة لصناعة الحديد وصعدنا جبالا مجاورة نهر نيكار لزيارة مصنع للفلايات ودنونا من الغابات السوداء الشهيرة في اليوم التالي كان اتجاهنا فرانكفورت حيث زرنا مصانع كاستلا. هو كست للكيماويات وترسانة لبناء السفن على نهر الماين، في اليوم الثالث توجهنا إلى "زاربروكن" حيث زرنا أضخم مصانع الصلب في ألمانيا "ديلنجر هوتا" ثم اخترقنا الحدود الغربية نحو كلوانج في شرق فرنسا لزيارة مصنع لتجهيز أغشية عنابر السفن ثم عدنا إلى

مانهايم وقد هبط الليل، في يوم الخميس اصطحبني "أندرياس" إلى المكتب لمساعدته في إعداد التقارير، لاحظ الإرهاق باديا على وجهي فاقترح أن ننهي العمل مبكرا لأنال قسطا من الراحة استعدادا للذهاب إلى "هايدلبرج" في المساء مدعوا للعشاء مع زوجته.



تقع مدينة "هايدلبرج" على نهر نيكار على بعد عشرين كيلو مترا من "مانهايم" يسكنها مائة وأربعين ألفا، اشتق اسمها من الاسم الألماني "جبل" الكريز الأزرق، استقت شهرتها من كونها مركزا للبحث العلمي والفنون معا في الماضي والحاضر.

قالت "كلوديا" زوجة أندرياس وهي تتحدث عن هايدلبرج بحماس: جامعة هايدلبرج أقدم جامعة في أوروبا، أنشئت عام ١٢٨٦، ارتبط بإسمها أحد أعظم الفلاسفة الألمان وهو المثالي "هيجل" وسار في حدائقها القديمة الشاعر الألماني العظيم "جوته".

أضاف أندرياس والسيارة تقترب من حدود البلدة: لا تنس العلماء أيضا مثل "رايمان" الذي اكتشف النيكوتين كمادة فاعلة في التبغ عام ١٨٢٨، هنا أيضا المركز الألماني لأبحاث السرطان ومعهد ماكس بلانك لطب الفضاء ومعهد ماكس بلانك للطبيعة النووية.

ذكرته زوجته بمخترع هام قائلة: أيضا "كارل دريز" الذي اخترع الدراجة عام ١٨١٧ كان طالبا في جامعة هايدلبرج.

بدأنا نتجول بالأقدام في شوارع المدينة التي تأسر زائرها بهذا العبق التاريخي المتسم بالعظمة في الفكر والشعر والاختراع وتؤكد له في نفس الوقت جدارتها بالحاضر. كان مشهد القلعة المرتفع فوق الجبل والأضواء تعلن عن وجوده في ظلام الليل أخاذا فوقفت منبرا به محاولا استيعاب جلاله وجماله، قالت "كلوديا" منفعة بالمشهد مثلى رغم مشاهدتها له مرارا من قبل: هذه قلعة "هايدلبرج" ترتفع ثمانين مترا عن نهر "نيكار" وتقع على ذلك التل المسمى كرسى الملك أو العرش، هنالك كان يتريض جوته مستلهما شعره.

قلت ملاحظا دقة معلوماتها: أشكرك على مشاركتي تلك المعلومات القيمة، للشاعر جوته شهرة كبيرة في مصر على الأقل بين كتابنا

وشعراءنا الكبار، وقد قرأت له " فاوست " وأنا لازلت طالبا في المدرسة الثانوية.

قال أندرياس وهو يربت على كتف زوجته مداعبا: - هي تعمل في شركة سياحة، هذا أقل ما يجب أن تعرفه عن هايدلبرج، هي تعرف أيضا عن مصر الكثير ليس من الكتب فقط وإنما بالزيارة.

نظرت إليها فأومأت برأسها موافقة وأضافت: هذا صحيح، زرت مصر مع بعض أصدقائي العام الماضي، كانت رحلة رائعة في جنوب مصر، كما أود أن أخبرك أن أحد أصدقائنا المقربين طبيبا مصريا يعيش في مانهايم.

قلت موجهة الحديث إلى أندرياس: إذن فهو أنت الذي لم تزر مصر بعد، الدعوة مفتوحة لكما لزيارتي وقتما تشاءان.

- سوف نفعل هذا معا لكن بعد حين، لن ننس هذه الدعوة.

بعد تناولنا العشاء استأنفنا السير في تلك المدينة الخلابة عازفين عن العودة إلى حيث كنا، كان الجو جافا وصحوا كأنه يمهلنا ما شئنا من وقت. سألتهما مأخوذا بما يحيطني من جمال الطبيعة وجمال ما صنعه الإنسان: ما الذي لم تبرع فيه ألمانيا؟

قال أندرياس وبدا أنه سأل نفسه هذا السؤال من قبل: باختصار نحن استبدلنا العمل بالعقيدة، لو أن هناك حياة أخرى وأتصور ذلك ممكنا، فتحن لا نبرع في الاستعداد لها مثلكم ولا يبدو أنها تلقى منا اهتماما.

قالت كلوديا معترضة: لا أحد يمنع أحدا من التوجه إلى الكنيسة أو المسجد أو المعبد الذي يرغبه، هذا شأن الفرد وليس شأن المجتمع، هو جزء من حرية الشخصية بنص الدستور الألماني.

قال أندرياس مصرا على رأيه: عدد الألمان المتدينين في الوقت الحاضر باختلاف عقائدهم أقل منه في الماضي، الكثير لا ينتمي إلى أية ديانة وحتى الذين ينتمون رسميا إلى الكنيسة لا يشاركون في أي نشاط ديني حقيقي اللهم إلا في مناسبات عقد القران أو الجناز، وحتى ذلك أخذ يتناقص هروبا من الضرائب والرسوم. هل تعرفين أن نسبة حضور قداس الأحد في كافة الكنائس تناقصت إلى نحو ٦٪ ؟

قالت كلوديا لا تقل إصرارا: لا تنس أن الحكم الشيوعي استمر في ألمانيا الشرقية لمدة خمسة وأربعين عاما قضى فيها على أي اتجاه ديني وذلك ما جعل تلك النسبة تتضاءل مع وحدة شطري ألمانيا عام ١٩٩٠، لكن النسب والإحصائيات لا تعنى أننا ملحدون، الإيمان تجربة خاصة، هذا رأيي.

قال "أندرياس" وأنا أتابع حوارهما في شغف: - الدين ليس تجربة خاصة، الإيمان ربما أما الدين والعقيدة فرباط وآصرة بين مجموعة من البشر يمنحهم معنى للحياة وحكمة للوجود وهو ما استبدلناه نحن بالعمل كما قلت فأصبح هو الآصرة والرباط القوى الذي يربط مجتمعنا، إذا فقد الفرد وظيفته وجد نفسه عاجزا عن التواصل والاستقرار.

قلت مبديا رأيي: الشيوعية لم تستطع القضاء على الإسلام في دول آسيا الوسطى التي ضمتها بالقوة إلى الاتحاد السوفيتي ولا أظهرها قضت على المسيحية في ألمانيا الشرقية، إنما تخفى الشعور الديني في أعماق الضمير مانحا صاحبه فرصة للعيش في ظل مجتمع سادته الاضطهاد الفكري والعنف الطبقي. هذا البطش قد زال الآن وبدا الإنسان حرا، لكن للزمن أيضا أثره، في رأيي أن الشعور الديني موجود لدى الألمان دون أن يدروا أو يمنحوه فرصة للإعلان عن نفسه، لقد انشغلوا ببناء الحاضر تماما واستغرقوا فيما انجزوه بنجاح، أحيانا يكون النجاح شركا لصاحبه، للشعوب كما هو للأفراد.

عدنا إلى "مانهايم" بعد قضاء هذا الوقت الممتع مفعمين بمشاعر المودة التي ابتكرتها روح إنسانية حرة تبحث عن الحقيقة والجمال في لحظة صدق.



في صباح اليوم التالي أعددت حقيبتي استعدادا للعودة إلى هامبورج بعد انتهاء برنامج العمل، حجزت تذكرة العودة بالقطار السريع الساعة السادسة والنصف مساء. لم أتوقع أن نقصد فرنسا مرة أخرى لزيارة مصنع لأجزاء الماكينات في مقاطعة "نانسى" في شرقى فرنسا ثم دعينا للغداء على الطريقة الفرنسية حين استغرق ساعتين في جو من الاسترخاء

والحوار في موضوعات شتى. ربما كان ذلك نمطا مألوفا في نهاية الأسبوع لأن المطعم كان ممتلئا بالزائرين.

لاحظت الساعة تتخطى الرابعة بعد الظهر فنظرت إلى أندرياس ببعض القلق لأننا في حاجة لساعتين حتى نعود إلى "مانهايم" لكنه كان هادئا، بعد ذلك عرفت أنه اعتاد في بعض الأحيان أن يتحدى بعد الزمن بحاجز السرعة. انطلق بالسيارة على الطريق الدولي السريع بسرعة تفوق المائة والثمانين كيلو مترا في الساعة غير مبال بشيء وقد أحاط بنا الليل في الخامسة، وكلما نظرت في وجهه رأيت سكونا غريبا لا يعبر عنه مؤشر السرعة. قال لي ملاحظا صمتي وتوتري

- إذا لم أسرع لن تلحق بقطارك، أمامنا فرصة ضئيلة للوصول في موعدها وعلينا أن نحاولها.

سألته محاولا صرف نظري عن مؤشر السرعة: هل أنت معتاد على هذه السرعة الهائلة؟

أجاب مبتسما: ألم تلاحظ أن بعض السيارات سبقتنا، أنا لم أقرب من المائتي كيلو مترا في الساعة. عموما في نهاية الأسبوع يسرع الناس للحاق بأسرهم وأصدقائهم في أماكن بعيدة عن مكان عملهم، لهذا فالطريق بين الدول الأوروبية متحرر من قيود السرعة، لا تتزعج فالطريق آمن والسيارة متينة والسائق مدرب.

قلت محاولا المداعبة: ماذا عن السيارات الأخرى من حولنا، ألا يوجد احتمال للخطأ؟

أجابني ونظره مثبت على مرمى الطريق حتى ينتهي حدود الضوء الكاشف أمامه: لا يجب أن يكون هناك خطأ، النظام لا يسمح بترخيص السيارة الغير صالحة المخالفة لمعايير المتانة الفنية والسلامة، السائق الغير مؤهل ومدرب لدرجة عالية لا يسمح له بالقيادة، الطريق مسئولية الدولة التي يقع في حدودها ويجب أن يكون في حالة فنية تسمح بسلامة استخدامه من جميع الأوجه وهو كذلك كما ترى، إذن فالخطأ غير محتمل.

- لكن الإنسان يسهو ويغفو ويخطئ وأحيانا يقود سيارته مخمورا، ماذا عن القدرة؟

- إذا وقع حادث فهناك الشرطة والإسعاف وشركات التأمين، لكل دوره يؤديه، إذا أخفق دفع ثمن إخفاقه، الحياة تمضى بسرعة لا هوادة فيها، حتى أننا لم يعد لدينا وقت لنفكر إن كانت هناك حياة أخرى كما تحدثنا الليلة الماضية.

أضاف بعد لحظات من صمتي: ربما لهذا يتحدث الإنسان عن القدر فقط في المجتمعات البطيئة الحركة والتي تسودها الفوضى، لأنه ينتظر من الغيب ما يصحح له خطأه ويدفع بحركته، حين يعترف المرء بخطئه ويصححه بإرادته أو يتحمل عقابه يتضاءل إدراكه بما تسميه القدر.

- الإيمان بالقدر اعتراف بوجود إرادة أعلى من إرادة الإنسان تصرف هذا الكون الفسيح، الإنسان ليس مركزا للكون ويخطئ لو تصور أن إرادة الفعل في يده بشكل مطلق مرتبطة ببطء حركته أو سرعتها.

قال دون تردد: نعم أظنك على حق، لكنني تمكنت أيضا من اللحاق بقطارك، خلال بضعة دقائق سوف نكون أمام المحطة، علينا أن نسرع بمجرد الوصول لن يكون أمامنا غير دقيقة واحدة لتقفز في إحدى عرباته ثم ينطلق.

كان وداعي لأندرياس قصيرا وخاطفا لكنه لم يكن سطحيا أو زائفا، الوقت الذي أمضيته معا خلال أسبوع لم يكن طويلا لكنه كان عميقا ومؤثرا، وعدني بالمقابلة في هامبورج وأن تتواصل المراسلة، لكن يبدو أن القدر كان يراقب أقوالنا وأفعالنا عن كثب لأنني لم أراه بعدها وعلمت أنه توفى إثر أزمة قلبية مفاجئة.



وصلت إلى هامبورج بعد رحلة استغرقت خمس ساعات قطع القطار فيها ما يزيد عن الستمائة كيلومترا، كنت متعبا والقطار منطلق في أعماق الليل لا تفصح نوافذه عن طبيعة ما يتخطاه من أمكنة سوى بعض الأضواء التي تسترق وجودها من المدن والقرى المتلاحقة لتعلن أننا لا نمضى في صحراء خاوية. الأفضل في تلك الأحوال أن يسترخى الإنسان ولا يقاوم قدره.



كنت أتطلع لزيارة " جونتر " لي يوم الأحد كما اتفقنا لكنه اتصل معتذرا مقترحاً تأجيل اللقاء إلى الأسبوع القادم لذا وجدت لها فرصة لمحاولة الوصول سيرا على الأقدام إلى المركز الإسلامي في هامبورج مستعينا بخريطة توضح معالم هذه المدينة الرائعة وكيفية الوصول إلى كل ركن فيها. الجو كان بارداً لكن الشمس ساطعة، مع الملابس المناسبة يمكن احتمال البرودة القارصة، هكذا بدأت سيرى المتباطئ ذاك الصباح حتى وصلت هنالك في حوالي ساعتين.

المركز الإسلامي في هامبورج أحد أقدم المساجد في ألمانيا وأوروبا، تأسس في أواخر الخمسينات على يد مجموعة من المهاجرين ورجال الأعمال ثم تطور بسرعة ليصبح أحد المراكز الإسلامية الرائدة في غرب أوروبا حيث تدرس فيه الفلسفة والعلوم الحديثة من جانب والدراسات الإسلامية من جانب آخر. يقع بعيد بحيرة "الستر" التي تتوسط " هامبورج "، ارتفعت مآذنته تعلن كينونته. كان السكون يحيط بصحن المسجد حين دخلت، لم يصادفني أحد ولم يكن موعد صلاة.

هكذا انقضى ذاك النهار خليط متضارب من الاستجابة لمشاعر دينية تفتقد الوطن وأحاسيس متحفزة ترقب الأيام القادمة. مع اقتراب الليل بينما أنا جالس في شقتي الصغيرة إذا بجرس الباب يدق، لا أنتظر أحداً ولا يعرفني أحد في هذا المنزل، فتحت الباب ليصافحني وجهان غريبان أحدهما يحمل ملامح أسيوية والآخر أقرب إلى أمريكا الجنوبية، لم يتركاني لدهشتي وتساؤلي، قدم أحدهما نفسه باسم "بان" من الصين والآخر "رودريجو" من فنزويلا زميلان قادمان للتدريب مثلي يسكنان في نفس المنزل قررا زيارتي والتعرف إلى قضايا معي حوالي نصف ساعة عرفت منهما أن بقية المتدربين قد وصلوا من دول مختلفة، بولندا والمجر وكولومبيا واليابان وكوريا الجنوبية وبعض الألمان، الجميع مشوق لبدء البرنامج الدراسي الأكاديمي من غد. هكذا تترقبنا الأيام قادمين نحوها بلهفة قد تكون أشد من لهفتنا لها، لكن الصبر هو ما ينقصنا في معظم الأحوال.



بدأنا ننتظم في فصول الدراسة المقدر لها ثمانية أسابيع كما أخذت ألفة الصحبة والزمالة تنتشر بين الدارسين متخطية حواجز قد ينشأها

اختلاف اللغة الأصلية أو اختلاف الوطن أو اختلاف الدين، ساعد على ذلك عددنا الصغير وتتابع الأيام علينا برتابتها أحيانا وإثارتها أحيانا أخرى، كنا أيضا نعيش معا في منزل واحد، ثم قويت الأواصر بيننا باجتماعنا على العشاء من وقت لآخر وخروجنا للتزّه معا في هامبورج وبعض المدن القريبة في عطلة نهاية الأسبوع التي كان تصحبنا فيها مسئولة التدريب "ستيفاني" التي كان لي معها مناقشات وحوارات اتسم بعضها بالجدل والفرور لكن لم يمنع ذلك من تواصلها واستمرارها كلما سنحت الفرصة.



"هامبورج يوم" خليط بين ملاهي الأطفال بكل ما فيها من ألعاب الحظ المعسلة والمراجيح الأفقية والرأسية وبيت الأشباح وبين موالد العارفين بالله وأصحاب المقام في ريف مصر بكل ما فيها من صخب وزحام وأنواع الطعام الغير مألوفة إلا في تلك المناسبات. الفرق بين ما يحدث هنا في هامبورج وما يحدث في مصر هو الدقة في التنظيم والترتيب ووفرة كل ما يعرض من لهو وطعام، لكن أحيانا تستحب الفوضى.

من المدهش أن كل هذا التجمع المرح من الأبنية والألعاب يتم إنشاؤه في هامبورج كي يستمر لمدة شهر فقط ثم يعاد فكه وإنشاؤه من جديد في مدينة أخرى في ألمانيا وهكذا حتى يعود إلى هامبورج من جديد بعد ستة أشهر.

أضافت "ستيفاني" بعد أن وصفت لنا كيف نذهب إلى هذا المكان قريبا من محطة "سان باولي" لنلتقي ونشاهد ما يدور ونمرح لبعض الوقت: الجو شديد البرودة ليلا لكن لا ينتظر سقوط أمطار، السماء الليلة صافية.

تقابلنا في الثامنة مساء عند مدخل تلك الملاهي كان بيننا "بوتر" و"ماريك" من بولندا و"ورودريجو" الفنزويلي و"لي" من كوريا وستيفاني بالطبع.

كنا منبهرين بما حولنا، يشارك بعضنا في الألعاب بينما يكتفي الآخرون بالمشاهدة، قالت "ستيفاني" بعد مضي ساعة ملاحظة انهماكنا

في الضحك والمرح مثل كثير من الأطفال حولنا: ألا نشواق جميعا لطفولتنا ونتمنى لو نجربها من جديد؟

قلت بعفو الخاطر: نعم نشواق لبراءة العالم والتمسك بلحظات المرح كأنها لن تنتهي ، ألا ننتظر من أنفسنا شيئا ، فقط نعيش ولا نسأل عن سبب.

قال "بوتر" وكان محبا للأدب دائم الاطلاع: مثل الطائر إذا ارتفع أو سقط لا يسأل ما السبب، أو هكذا عبر إرنست همنجواي عن فكرته عن الحياة.

قالت ستيفاني، وهي في الأربعين من عمرها: إذن فمنتهى ما نبغيه حين يتقدم بنا العمر أن نعود أطفالا؟

قال "رودريجو" وكان متزوجا ولديه ولدان: يعوضنا أطفالنا عن ذلك الحلم المستحيل

قال "ماريك": لهذا يفعل الإنسان المستحيل لينجب أطفالا إذا عجز عن ذلك بطبيعته، قرأت مؤخرا عن طبيب إيطالي يدعى د. أنتينوري تمكن من جعل سيدة في التاسعة والخمسين أمًا عن طريق التلقيح بالأنابيب. إلى هذا الحد ظل الأمل بالأُمومة يحدو بتلك السيدة حتى في هذا السن المتأخر، لم تياس بتحقيق هذا الحلم بالرغم من كل العوائق البيولوجية والاجتماعية.

قالت ستيفاني: أذكر هذا الحدث فقد أثار جدلا كبيرا في ألمانيا خاصة أن نفس هذا الطبيب استطاع أن يجعل أما هولندية في سن الستين فقدت ابنها في حادث أن تنجب في هذه السن طفلا آخر يخفف من حزنها ومصابها.

قلت: لكن ذلك يتم عن طريق تلقيح بويضة من امرأة أخرى ثم يتم تثبيت البويضة الملقحة في رحم المرأة الأم أو الحاضنة في تلك الحالة لأنها في الحقيقة ليست أم الطفل القادم من الناحية البيولوجية أو الجينية تحديدا، وهذا محرم دينيا، في الإسلام كما هو في المسيحية.

قالت ستيفاني في تحد واضح: لا أظن أن هذه مشكلة، الإنسان حر في حياته، إذا كان يسعد امرأة أن تنجب في الستين فلها أن تفعل ما يتيحه العلم من وسائل لتحقيق أمنيتها، إذا كان القانون في ألمانيا مثلا لا

يسمح بهذا النوع من التلقيح فالقانون في إيطاليا لا يجرمه، المشكلة في رأيي تكمن في أن الطفل المولود لأم في هذه السن لن يحظى بطفولة نمطية وسيواجه ظروفًا بين أقرانه تبدو غير مألوفة وعليه أن يعتاد وضعًا لم يستأذنه أحد فيه أو يسأله إن كان يوافق عليه! هي قضية الحرية الشخصية أولاً وأخيراً.

قال "بوتر": بصرف النظر عن موقف الأديان في تلك القضية هذا يخالف القوانين الطبيعية، المرأة تتجلب في شبابها لأنها بحاجة إلى قوة الاحتمال لتربية أبنائها، في سن الستين تكون هي في حاجة لمن يرعاها، لا تستقيم الحياة بتلك المخالفات لهذا لا أظنها ستجد تجاوبًا وسوف تظل استثناء نادرًا، مادة للصحف أو موضوعًا لاختبار المعامل.

أضاف "ماريك": ليس لهذا الطبيب مستقبل في بولندا على أي حال، الناس في موطني متمسكون بدينهم.

قالت ستيفاني: انتظر بضع سنين حين تصبح بولندا عضواً في الاتحاد الأوروبي، سوف يزيد وعي الناس بقيمة الحرية الفردية ويمارسونها دون خوف من عرف أو نصيحة رجل دين، لا يمكن لشئ أن يقف في طريق المستقبل، سيجد رجال الدين أنفسهم في موقف إما أن يقبلوا التغيير الذي يطرحه العلم وينشده الناس أو يختفوا في صوامعهم.

ساد الصمت بيننا لحظات، كنا نقف على مقربة من المرجيحة الرأسية التي ترتفع مائة وثمانين متراً في السماء تدور بعرياتها محملة براكبيها، تصل بهم إلى أعلى ارتفاع ثم تحملهم إلى الأرض من جديد كأنها تبادل خيالهم بواقعهم في لحظة مغامرة. لكن احتياطات السلامة مؤكدة لا شك فيها، تمنيت لو أن ما نتحدث عنه من مغامرات العلم اتخذت له احتياطات سلامة مماثلة لا يرقى إليها الشك، أن نهوى من هذا الارتفاع الشاهق لايغنى للبشرية غير شئ واحد هو الفناء.

قطعت ستيفاني تأملي مستأنفة نقاشها متوجهة بسؤالها إلى: - لو كان الأمر يتعلق بالرجل هل ترونه إذن مشروعا في دينكم؟ لماذا تأتي المرأة دائماً في مرتبة ثانية عندكم؟

كنت قد اعتدت منها تلك الطريقة المبالغية في الحديث فلم يفاجئني سؤالها، أجبت: الحقيقة أن هذا الأمر يتعلق بخطورة الأنساب وأهميتها

في الإسلام وليس بسبب تفضيل الرجل على المرأة أو العكس، الأنساب تحدد العلاقات والحقوق الأساسية في الأسرة ومن ثم المجتمع الذي تنتمي إليه سواء علاقات زواج ومصاهرة أو حقوق موارثة. ما فعله الطبيب الإيطالي في مثل هذه الحالة يزعزع تلك العلاقات ويقوضها، وإذا ترك الحبل على غاربه سنجد مستقبلا أما تحمل جنينا في أحشائها لبويضة بذلت من ابنتها لأنها لا تستطيع الإنجاب بشكل طبيعي ويأتي المولود لا يعرف من هي أمه ومن هي أخته ومن تكون جدته من هاتين المرأتين، هل هذا مما يمكن قبوله في نظرك؟

قال "رودريجو" مازحا وكان قد عاد مع "لي" من ممارسة بعض الألعاب واستمع لبعض المناقشة: سوف يكون له في هذا الوضع "أمان وأختا وجدة بشخصين اثنين، أليست صفقة رابحة؟

قال "ماريك": هذا وضع مستحيل اجتماعيا من وجهة نظري

قالت ستيفاني مبدية دهشتها: أليست أمها أفضل إنسان تأتمنه على جينيتها؟ لو اضطرت المرأة إلى هذا الحل فالأم هي خيارى لو قبلت، نحن لا نهتم كثيرا بالتقاليد والأعراف إذا اعترضت حرية الفرد كما يعرفها ويحميها القانون.

قال "بوتر": نعم إذا سمح القانون للرجل أن يتزوج رجلا والمرأة تتزوج امرأة مثلها بل وأن يتبنى منهم من يشاء طفلا يحمل اسمه، حينئذ فلا جدوى من المناقشة.

قال "لي" الكورى وكان ينصت باهتمام: هذه أشياء غريبة عن ثقافتنا وليس لها مستقبل في مجتمعنا كما أنها لا تشكل نسبة تذكر في الغرب، إنما يضحّمها الإعلام ويضعها في بؤرة الضوء فتبدو ذات قيمة، في رأيي أن القيمة الحقيقية هي في البحث العلمي والقدرة على الوصول لبعض أسرار خلقنا، ربما يضل التطبيق بعد ذلك فيتدخل المجتمع المعنى لتصحيحه.

قال "ستيفاني": أرى في تلك الآراء غرور الرجل أكثر من إنصافه، نحن في الغرب لا نفكر بهذه الطريقة، ما تسنه القوانين يلقي احترام الجميع لأنه نتاج عملية ديمقراطية حيث تتحقق الموافقة بأغلبية أساسها الاقتراع الحر. الأخلاق والدين ليسا حكرا على التقدم لأنهما خاضعان

أيضا لحرية الفرد في الاختيار، هذا خلاف جوهرى مع الذين يجعلون من دينهم مرجعا لحياتهم ومماتهم بالرغم من مرور عشرات القرون على نشأة هذا الدين أو ذلك.

قلت: مرجعية الدين لا تقاس بالزمن وإنما ينفعه وخيره للبشر الذين يعتقدونه وإلا أصبح التراث الإنسانى كله بلا نفع بادعاء حرية الفرد.

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة والبرودة تزداد اختراقا لأجسادنا، الحديث لا تبدو له نهاية مقبولة للجميع لذا كان قبولنا لاقتراح "ماريك" أن نكتفي بهذا القدر من المرح ونتوقف عند هذا الحد من النقاش ونعود لدفاء مسكننا في "ريكاردشتراسا"



فى عطلة نهاية الأسبوع التالى دعنا "ستيفانى" لزيارة مدينة "لوبيك" المدينة التى ولدت ودرست فيها والتى تبعد أربعين كيلو مترا شمال هامبورج، بها أكبر ميناء فى ألمانيا على بحر البلطيق، يحيط بها نهر "ترافا" الذى تربطه بنهر "إلبا" قناة تعرف بإسم "إلبالوبيك".

قالت ستيفانى وهى تقود السيارة متجهين إلى "لوبيك" فى صباح يوم صحو وإن كان غير دافئ: لم أدعوكم لزيارة "لوبيك" لمجرد أنها مدينتى. لكن لأنها مدينة تاريخية عريقة، ويعتبر مركزها من التراث العالمى حسب توصيف اليونسكو لعام ١٩٨٧. لازالت تحتفظ المدينة القديمة بطابع العصور الوسطى بمبانيها القديمة وشوارعها الضيقة ولا يزال يوجد اثنان من البوابات الأربع القديمة التى يعود تاريخها إلى منتصف القرن الخامس عشر.

تذكرنا ذلك ونحن نمرق بسيارتنا خلال إحدى هاتين البوابتين المعروفة باسم "هولستتور" شعرت كأننى أدخل صفحات التاريخ فى القرون الوسطى، نفس الشعور الذى يراودنى حين أقترّب من باب الفتوح فى القاهرة القديمة، كأنما يد جبارة تقفز بك فوق حاجز الزمن.

أمضينا بعض الوقت مترجلين مستمتعين بمشهد النهر الممتد فى سلاسة وكسل غير عابئ بملاقاة بحر البلطيق بعد حين، سألت ستيفانى

هل يمكننا التوجه إلى شاطئ البحر، أشعر بحنين لصفحته، ثلاثة أشهر مضت منذ آخر لقاء معه في الإسكندرية.

أجابتنى: - سنتوجه إلى "ترافا موندا" إحدى ضواحي "لوبيك" حيث يمكنك التجوال فوق رمال شاطئ البلطيق وتتصت لحديث الأمواج كما تشاء.

بينما نحن سائرون في صمت نتأمل الأفق البعيد وصخب الموج المحبب ينساب في أذني مثل لحن موسيقى رائع سمعت "ستيفاني" تحدثني كأنها في مكان قصي: ألاحظ دفاعك عن الأديان وشغفك بالطبيعة، لكن لا يزال يؤرقني حديثنا السابق الذي لم نستكمله في حينه.

سألتها: تقصدين الأمومة المتأخرة المتعارضة مع ناموس الحياة؟ كما قال زميلنا "بوتر" لن يكون لها أثر إلا في وسائل الإعلام.

قال "بوتر" وكان يسير إلى جوارى منتشيا مثلى بعبق البحر: هل جد جديد، هل جعلوا الرجل أما؟

قالت "ستيفاني" مدعية الغضب من مزاحه: أقصد قضية أهم من ذلك وهي قضية المساواة بين المرأة والرجل، مشهد المرأة تسير خلف الرجل بينها وبينه خطوات غطت نفسها من رأسها لقدمها، لا يسمع لها صوت، لا يحق لها العمل أو الخروج بمفردها أو قيادة سيارة، مسألة تستفز أي امرأة في أوروبا ولا أفهم كيف يمكن لإنسان في هذا العصر أن يقبل ذلك ويدافع عنه.

قلت: بالطبع لا يمكن الدفاع عن هذا المشهد ولا يقبل منصف أن ينتمى إنسان حقاً من حقوقه سواء كان رجلاً أو امرأة، لكن ما تصفينه هنا هو أعراف اجتماعية تسود بعض المجتمعات ليس لها أي سند من شريعة أو دين. الخطأ الذي يقع فيه الناقد لتلك الأوضاع مثل الخطأ الذي يقع فيه المدافع عنها أو المكسر لها وهو تناول المسميات بما كانت تعنيه منذ عشرات القرون غافلاً عن تطور المعاني وتغيرها مع مرور الزمن في اللغات وفيما تعنيه فعلاً في الحياة المعاصرة.

قال "بوتر": أفهم الفرق بين العادات الاجتماعية الموروثة ومبادئ الأديان الثابتة، لكنني لا أفهم ما تقصده من تطور اللغات.

قلت موضعا: لا أظننا نختلف أن الحياة التي نعيشها الآن لا تشبه حياة أسلافنا منذ ألف عام، كانوا أقل عددا وأقل فهما لما يحيطهم من ظواهر الطبيعة وأسرار الحياة، كانوا أضعف تأثيرا في المستقبل إذا ما قورنوا بما تملكه الحضارة الحديثة، مع هذا البعد الزمني الممتد لا يصبح لنفس الكلمات مدلولها القديم، اللغة في الحقيقة هي تواصل المعرفة بين البشر المتحدثين بها، ما كانت تعنيه كلمة أو عبارة من ألف عام لا يظل بالضرورة معناها الآن.

قالت "ستفاني": أتفق معك في هذا، لكن ما صلة ذلك بمساواة المرأة بالرجل في مجتمعاتكم، أظن معنى كلمة الرجل والمرأة والمساواة لم يتغير في أية لغة.

قال بوتر: "ربما يحدث ذلك في المستقبل، لا تتعجلي فالهندسة الجينية سوف تجعل أي شيء ممكنا.

قلت: ما كان يعنى بالمرأة أو الرجل في مجتمع طبقي جاهلي يقسم نفسه إلى أشراف وعبيد أو حرائر وإماء يختلف عنه بعد ألف عام حين انمحت تلك الطبقة واندثر الرق إلى غير رجعة. منذ ألف عام كان التمييز في ملابس الأفراد محتما لإعلان طبقتهم، الآن التمييز الصارخ في الملابس يثير السخرية. إذا طبقت هذا الفهم على المجتمعات التي لا تزال تفرض على المرأة تغطية وجهها تدركين أن المجتمع المعنى بتلك الظاهرة لم يتطور بسرعة تواكب الزمن وتسمح له باستيعاب ما يدور من حوله، الإسلام أعلن مبدأ المساواة بين البشر جميعا رجالهم ونساءهم وهو مبدأ لا يغيره الزمن، لكننا حين نحاول تطبيق المبدأ بمحاكاة حياة قوم كانوا يعيشون منذ أكثر من أربعة عشر قرنا نرتكب خطأ، لهذا لا تصح مهاجمة الدين لمجرد أن بعض أتباعه لم يلحظوا اختلاف الزمن.

قالت "ستفاني" بعد فترة صمت: ربما كنا جميعا في حاجة لإعادة تعريف مسمياتنا فما تقوله لا يقتصر على مجتمع دون آخر.

قلت: هذا يحدث دون أن نشعر إذا انتشرت مؤسسات التعليم تؤدي دورها بفكر مستير.

قال "بوتر": لم أكن إذن أمزح حين قلت أن الهندسة الجينية سوف تعيد تعريف الإنسان لكن ربما استغرق ذلك بعض الوقت.

قلت وقد استغرقتني الفكرة التي رأيتها تتدمج في الأفق البعيد :
ربما كان من الأوجب أن نحاول أن نعرف أنفسنا قبل أن نعرفها



تواترت الأيام في مركز التدريب أحيانا رتيبة وأحيانا مثيرة إلا أن
أواصر الصداقة بين مجموعة المتدربين ظلت في أجمل صورة، ربما كان
شعور الجميع أننا تركنا أسرنا وأوطاننا ولا عوض لنا غير أن نتكاتف
معا هو الدافع القوي لتلك الصداقة، حتى أن نزھتنا معا في نهاية الأسبوع
أصبحت تقليدا لا يشذ عنه إلا من كان عنده واجب ملزم يؤديه. كنا في
زيارة لأحد المتاحف المقام في قلعة "آرينسبورج" على بعد خمسة وعشرين
كيلو مترا من "هامبورج" عمر القلعة أربعمئة عام، تحيطها الطبيعة
برونقها الممتد حتى الأفق في جمال وجلال. همست "ستيفاني" وهي
تلاحظ شغفي وتألمي لما حوته القلعة من تحف وأثار تقرأ فيها بعض
ملامح الحياة على هذا البعد الزمني: كنت أخشى ألا يعجبك برنامج
اليوم لكن يبدو أن خوفي لم يكن مبررا، فاجأني اهتمامك بالتماثيل
والآثار.

لم أكن شغوفاً بقطع استرسال خواطري في تجوالى بأنحاء المكان
ومحاولة استيعاب إحياءات ما أراه فلم أجبها وفهمت هي أن تنتظر لحين
خروجنا من عبق هذا التاريخ.

قلت لها و"ماريك" و"بوتر: و"نيوبي" الياباني يسировون في أثرنا خارجين
بعد انتهاء جولتنا في القلعة القديمة: لا أظننى فهمت ما تقصديه، لماذا
تخوفت من عدم اهتمامي بالفنون؟

قالت بصراحتها المعهودة: نعرف أن العرب يتجنبون حيازة التماثيل في
بيوتهم، ربما كانت هناك إشارة في القرآن تحرم على المسلم هذا الأمر.

قلت مندھشا: هذا غير صحيح، النحت فن من الفنون الجميلة شأنه
شأن الرسم والموسيقى والشعر وكافة الفنون الأخرى، ليس هناك ما
يحرم تلك الفنون في الإسلام.

. كيف إذن تصلنا تلك المعلومات، لا أظنها مزيفة؟

. مرة أخرى علينا أن نفرق ما يفضله قوم في حياتهم الخاصة ما قد
يتعارض مع ما يفضله سواهم، وبين الحلال والحرام كما يسنه الإسلام.

قال "نيوبى" وكان قد لحق بنا وأنصت لما نتبادلله من نقاش: أنا شخصيا لا أفهم كثيرا من اللوحات المعروضة ولا أظننى تأثرت بالنظر إلى التماثيل، كنت أفضل لو ذهبنا إلى متحف الطائرات.

قال "ستيفانى": سنفعل ذلك في الأسبوع القادم، من الصعب أن أجد شيئا يثير اهتمامكم جميعا لهذا على البعض أن يقدم التضحية.

قلت مستأنفا إجابة سؤالها: تحفظ بعض المسلمين على التماثيل يعود إلى ميراث تاريخي معروف، حين كانت الأصنام تعبد قبل ظهور الإسلام في الجزيرة العربية منذ ما يقرب من خمسة عشر قرنا، وأظن هذا زمن يكفى لانتفاء الخشية أو اللوم من النظر إلى التماثيل كعمل فني بحت يعبر عن إحساس النحات بالجمال في الموضوع الذي ينحته، لا أحد يقتنى تمثالا ليعبده. عموما الموارث النفسية في الشعوب لا تتمحى بسهولة خاصة إذا اختلطت بالدين كذبا أو صدقا، لكن العرب من الشعوب المحبة للفنون وعشقهم للشعر وقرضه أكبر دليل على ذلك.

قالت: هذا يفسر ندرة النحاتين والرسامين العرب وكثرة الشعراء.



مع نهاية شهر يناير اختتمنا فترة المحاضرات النظرية وافترقنا لاستكمال البرنامج العملي كل في اتجاه، ذهبت لفترة أربعة أسابيع للتدريب بهيئة الميناء الألمانية يزاملنى "نيوبى" أما "ماريك" و"بوتر" فسافرا إلى "دوسلدورف" أما الآخرون فتوجهوا إلى "كيل" و"لوبيك" و"بريمن" و"بريما هافن".

بعد انتهائنا من فحص ناقلة حبوب برازيلية الجنسية عرض على زميلي "فيليكس" من هيئة الميناء أن نخرج على سفينة أخرى مجاورة هولندية الجنسية بها بعض الأعمال القليلة التى لن تستغرق وقتا فوافقته، كانت الساعة تقترب من الثانية ظهرا درجة الحرارة اثنين تحت الصفر والجليد متراكم فوق الأرصفة. صعدنا المركب مشدوهين من نظافتها وتنظيمها كأنها في رحلتها البكر، بحثنا عن أحد البحارة ليصحبنا إلى القبطان فلم نجد أحدا في طريقنا، صعدنا إلى كابينة القيادة نبحت عنه فلم نجده، بدأنا نقتش في مكاتب الطاقم ونطرق بعض الأبواب حتى وجدنا رجلا ينزل من السطح العلوي متسائلا بجفاء

- ماذا تريدان؟

قال "فيليكس": نحن مفتشان من هيئة ميناء هامبورج نريد أن نتحدث إلى القبطان

قال متخابثا: القبطان غير موجود، ما سبب زيارتكما؟ هل الأمر هام؟

قال "فيليكس": - توجد بعض الملاحظات البسيطة من التقرير السابق الصادر في

"روتر دام" يجب تغطيتها قبل إبحار السفينة من ميناء "هامبورج".

- قال الرجل مبتسما: أنا قبطان السفينة، تفضلا في مكتبي.

نظر إلى "فيليكس" باستغراب وصعدنا من خلفه إلى مكتبه حيث استخرج بعض الشهادات قدمها لنا للمراجعة، استغرق الأمر خمس دقائق بعدها قال "فيليكس"

- هذا كل شيء، نشكرك على حسن تعاونك!

قال القبطان: هكذا يجب أن يكون التعاون بيننا، في الزيارة السابقة حضر مفتش أسود اللون لا يفقه شيئا، ربما هو السبب في إصدار التوصية بإعادة التفتيش.

نظرنا إليه مندهشين من ملاحظته حول لون المفتش السابق، فهم معنى نظرتنا وقال بجرأة غريبة: لا تنتظرا اعتذارا عن ملاحظتي لأن تلك هي الحقيقة التي استخلصتها خلال عمري وخبرتي في التعامل مع الناس من جميع الأجناس والألوان، الرجل الأبيض هو الأكثر ذكاء والأقدر على مواجهة الحياة، يمكن الاعتماد على موضوعيته في الحكم لهذا يقود البشرية بحضارته لعشرات القرون.

قال "فيليكس" مستفزا بفضافة الرجل: حيث أننا انتهينا من عملنا الرسمي، أظنك تنتظر منا تعليقا شخصيا على ملاحظتك الغريبة، من ناحيتي أعتقد أنك مخطئ في هذا الرأي كما أنك مخطئ بالتصريح به أماننا دون سابق معرفة، هذا النوع من التفكير قد اندثر من وعى البشرية إلى الأبد.

نظر إلى القبطان منتظرا أن أبدى رأبي فقلت: في الحقيقة أنا لم أفهم ما تقصده لأعلق عليه، ربما أمكنك إيضاح ما تقصده أو من تقصده بالرجل الأبيض، في بلدي مصر يوجد لجلد الإنسان ألوان متعددة ولم أسمع أحدا يصف الآخر بلون جلده ليصنفه عن سواء.

قال القبطان دون أن ينتبه للشرك الذي نصبته له: أظن ما أقوله واضحا، اللون الأبيض لا يختلف على تمييزه اثنان إلا أن يكون أحدهما أعمى أو كلاهما.

استأنفت قائلا: إذن ما تقصده بالرجل الأبيض يعيش في أوروبا وأمريكا وروسيا وجنوب أفريقيا والبلدان العربية وأستراليا والقليل من هنا وهناك.

اعترضني قائلا: بالطبع لا، أعنى بالرجل الأبيض الذي يعيش في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الدول المتقدمة التي تقود البشرية.

قلت: - أظنك في حاجة لتعريف ما تقصده بالضبط الرجال البيض موجودون في كل مكان، أنت في هذه الحالة تتحدث عن اختلاف في الموقع الجغرافي والإسهام الحضاري وليس لون بشرة الإنسان، بالطبع يمكن مناقشة الأسباب التي جعلت من دولة أو ثقافة معينة أن تتقدم سواها لكن أن يكون سيادة لون من الألوان هو القضية فهذه مسألة نفسية بحتة مثل خوف بعض الأطفال من الظلام.

احمر وجهه الأبيض غضبا أو خجلا لا أدري وقال: - لكن الجنس الأبيض هو الأقوى والأغنى ولا يوجد سبب يميزه عن غيره من الأجناس سوى ما ميزته به الطبيعة من لون.

قال "فيليكس" محاولا إنهاء النقاش وهو ينهض من مقعده: كنت أظن العنصرية انتهت من عقول الناس لكن ليس كل الأمراض يمكن الشفاء منها للأسف.

قال القبطان شاعرا ببعض الحرج: ربما يشفع لي سني هذه الآراء المحافظة.

قال "فيليكس" بعد أن ابتعد عن السفينة النظيفة وقبطانها المحافظ: لم أشهد في حياتي عنصرية بهذه الفجاجة، هؤلاء سيئون لنا جميعا.

- لا تقلق سوف تجدهم دائما في مكان ما ، العنصرية ليست لونا فقط إنها وسيلة تفكير، هي موقف من الإنسانية كلها.

قال وهو يقود السيارة وقد ابتعدنا عن حدود الميناء واقتربنا من شوارع هامبورج المزدهمة في ساعة ذروتها: ما رأيك في تناول غداء سريع معا ، عمل اليوم انتهى.

كان رمضان قد بدأ منذ عشرة أيام وانتظمت في صيامه ، شكرته قائلا: نحن في شهر رمضان ، لذا لا نأكل حتى غروب الشمس.

- إذن نشرب بعض الحساء أو العصائر.

- نحن لا نأكل ولا نشرب من الفجر حتى الغروب طوال شهر رمضان.

- ولا حتى كوبا من الماء؟

- لا يصح أن يدخل جوف الصائم أي طعام أو شراب إلا خطأ أو سهوا.

- لكن الامتناع عن الشراب فترة طويلة يضر بالصحة خاصة في البلاد الحارة كبلادكم.

- نحن نصوم رمضان منذ أربعة عشر قرنا ولم يهلك مسلم بسبب صيامه ، هي مسألة رياضة للروح ومحاولة لتعالى النفس فوق حاجات الجسد ، الصوم أحد الأركان الأساسية في الإسلام وهو كذلك في الديانات السماوية الأخرى كما تعلم.

- لكن لابد أن الجهد البشرى ينخفض خلال هذا الشهر فهي عبادة مكلفة.

- هل لاحظت أي تغيير في برنامج العمل اليومي الذي أكلف به بسبب الصوم؟ لا أعتقد أن للصوم تأثيرا سلبيا على إنتاجية الصائم لكنه بالطبع يجهد الجسد في بداية الشهر لتغيير نمط غذائه ثم يتأقلم ويعتاد النمط الجديد ، لكن إذا اتخذ البعض صومهم حجة للكسل والخمول فهذا شأنهم.

- لابد أن يكون الصوم شاقا عليك في بلد بارد الجو مثل ألمانيا تعيش فيه الآن بعيدا عن أهلك ووطنك يمضى يومك بين الجميع أكليين شاربين غير منتبهين لك..

هو كذلك، لكنه ليس مبررا كافيا للمخالفة.



فى الحقيقة يفتقد المرء بشدة الجو الساحر لشهر رمضان فى مصر حين تجبره واجباته أن يتواجد خارجها بضعة أيام فما بالك بالشهر كله؟ لاحظ "جونتر" هذا الأمر لتجربته السابقة فى مصر، أشفق على ودعاني للغداء فى منزله يوما، نبهته أنني لا أكل قبل غروب الشمس فضحك وقال: هل تظننى نسيت، أعرف هذا، سوف ننتظر حتى غروب الشمس ونأكل معا.

أشعرني تواجدي فى منزله ذلك اليوم بألفة مفتقدة، للمرة الأولى أتناول طعام الإفطار مع أحد، التزم وزوجته بالانتظار حتى غروب الشمس بغرض المشاركة، قلت لهما فى ختام سهرتنا: أشكركما تواجدي معكما اليوم، إنه يعنى لي الكثير، أن أفق الإنسانية ليس له حدود.

تبدى ذلك أيضا حين انتهى شهر رمضان وأقبل عيد الفطر لأجد "ستيفانى" قد خبزت لي كعكا فى منزلها وأرسلته مع "ماريك" مهنئة بالعيد ثم فوجئت بدعوة من "جونتر" لحضور المسرحية الموسيقية "شبح الأوبرا" أول أيام العيد اعترف لي أنه قام بحجز التذاكر منذ عدة أسابيع مجازفا بتحديد موعد العيد متمنيا أن يصدق حدسه لتصح المفاجأة. كانت أجمل الليالي التي قضيتها فى ألمانيا خلال ستة أشهر متصلة، لروعة الموسيقى والغناء والأداء، استمر عرض هذه التحفة الفنية الرائعة سنوات متصلة فى "هامبورج" دون أن يملها الجمهور الذي أتى لمشاهدتها من جميع أنحاء ألمانيا.



المشهد الأخير لهذه الرحلة ساعة الوداع التي قضيتها إلى جوار بحيرة "ألستر" هائم البصر فى صفحتها تدور فى أعماقى ذكريات جلوسي الدائم إلى جوارها قارئاً ومتأملاً يجاورني على بعد خطوات أفواج البط العائم فى المياه غير مبال ببرودتها وأسراب الحمام المتناثرة تداعب أفراد البشر المحيطين بها يطعمونها فى طمأنينة وسلام. تتاغم غريب بين مفردات المكان والزمان وما ترمز به الحياة.

القاهرة ٢ مارس ٢٠٠٧



هامبورج . غداء جماعي



حوار متصل مع الأصدقاء .. إحدى الكنائس في مدينة "شتادا"، قريباً من "هامبورج"



هامبورج - هيئة الميناء الألماني



هامبورج - متحف الطائرات



البوابة التاريخية.. مدينة "لوبيك"



بجوار نهر "ترافا"



في برلين



هامبورج - بحيرة "الستر"

الخاتمة

بين صفحتي هذا الكتاب أمضى القارئ معي سويغات حاولت فيها أن أشركه جانباً مما رأيت وسمعت تاركاً له حرية الفحص والتدقيق فيما قرأ ، داعياً عقله أن يتحرر تلك السويغات من أنماط ومسلّمات قد يستريح إليها بحكم العادة والتكرار. ليس هناك ما يثري الفكر أكثر من المشاركة وليس هناك ما يضمن هذا الإثراء أقوى من التواصل.

لكنني وكما لاحظ القارئ لم أتخذ من الزمن دليلاً للتواصل لأنني لم أقصد كتابة مذكرات أو متابعة أحداث بعينها. كان دليلى أهمية الحوار بما يطرحه من أفكار وما يستدعيه من تساؤلات تمنح المشارك كاتباً أو قارئاً فسحة من التأمل والفحص. إن أعظم خصال العقل البشري وسر المعرفة التي ينشدها يكمن فى التساؤل ، ولا شئ يبطئ عمل العقل ويعجزه قدر التسليم بما يراه صاحبه أو يسمعه دون تساؤل ، وآيات القرآن التي تحفز على التساؤل والبحث والنظر فى كل شئ لا تخفى على مطلع ، حتى وحدانية الله تعالى توصل إليها عقل سيدنا إبراهيم عليه السلام حين طرح أسئلته على الكواكب والقمر والشمس فى حوار الخالد معها منذ آلاف السنين.

إذن فلنستمع للآخرين ولنحاول فهم ما يقولون وإن اختلفنا معهم أو رفضناهم. يعيش على الأرض ما يزيد عن ستة آلاف مليون إنسان وافترض اتفاق الجميع على رأى واحد فى قضية ما ضرب من المستحيل ، لهذا علينا أن نقبل الاختلاف ونتفهمه فهذا ما ننتظره أيضاً من الآخرين ، أما محاولة فرض الرأى ومصادرة الصواب واحتكار الحكمة فهو دعوة صريحة للعداء واستجداء متخف للشر ، وفى هذا يستوي المتدينون والملحدون.

يقول "هومت" منذ ثمانمائة عام قبل الميلاد ، البشرية جميعها فى حاجة إلى الخالق ويقول أفلاطون منذ أربعمائة عام قبل الميلاد ، بعض الناس لا يعتقدون فى وجود الخالق. فى حوار أجرته ونشرته مجلة نيوزويك الأمريكية الأسبوعية فى عددها الصادر فى ٩ أبريل ٢٠٠٧ حول الإيمان والالحاد ، يتقابل "ريك وارن" مسيحي متدين وراع لإحدى

الكنائس في أمريكا مع "تسام هاريس" ملحد حاصل على درجة الدكتوراه في علم الأعصاب، يدور الحوار لمدة أربع ساعات بدون تشنج أو اتهام أو سب، لا يحكمه سوى العقل ومحاولة كشف الحقيقة كما يراها الطرفان المتضادان، لم يلجأ أحدهما لقذف الآخر بالحجارة أو إطلاق الرصاص عليه، لم يصفه بالغباء أو يهدر دمه، انتهى الحوار وكلاهما على رأيه الذي بدأ به، أحدهما يؤمن بوجود الخالق والآخر لا يؤمن به. هل انهار العالم من حولهما أو توقفت الحياة؟ سوف يدوم هذا الحوار مادام وجود الإنسان على هذه الأرض مهما اتخذ من صور عديدة وأشكال متنوعة.

في مقدمة كتابها الذي صدر في المملكة المتحدة عام ٢٠٠٦ تحت عنوان "التحول العظيم، العالم في زمن بوذا وسقراط وكونفو شيوس وإيبي إرميا" تقول كارمن أرمسترونج إحدى أشهر الباحثيات في مسائل العقائد والأديان "ربما يعتقد كل جيل أنه قد وصل إلى نقطة تحول تاريخية، لكن مشاكلنا نحن تبدو على وجه الخصوص عصرية وسبقنا غير مؤكد بشكل متزايد. كثير من مصاعبنا يخفى من ورثته معضلة روحية أكثر عمقا، شاهدنا خلال القرن العشرين اندلاع العنف بشكل غير مسبوق. من المحزن أن مقدرتنا على تدمير وأداء بعضنا البعض تساوت مع تقدمنا العلمي والاقتصادي الفائق الحد. يبدو أننا نتقد الحكمة لضبط أنفسنا ووضع مشاعر العداء في حدود لائقة ونسبة انفجار أول قنبلتين ذريتين في هيروشيما وناجازاكي كشف في سفور قوة الإبادة الذاتية الكامنة في أعظم مكتشفات الحضارة الحديثة، نحن نخاطر بمواجهة مأساة بيئية لأننا لم نعد ننظر للأرض كمكان مقدس، ولكن مجرد مصدر لتمويل وجودنا. ما لم يكن هناك ثورة روحية من نوع، ما يمكنها مجازاة نبوغنا التكنولوجي فمن المستبعد أننا سنستطيع إنقاذ كوكبنا. لا يكفي التعليم القائم على العقل فقط، لقد اكتشفنا بثمن باهظ أنه إلى جوار الجامعة العظيمة يمكن أن توجد معسكرات إبادة. الأوسشفيتز وروانده والبوسنة وتدمير مركز التجارة العالمي، كلها علامات مظلمة تتبئ بما لا يدع مجالا للشك ما يمكن أن يحدث حين يفقد الإحساس بقدسية حياة إنسان واحد.

العقيدة التى يفترض أن تعيننا لمواجهة هذا الموقف تبدو وكأنها هى مصدر العنف واليأس فى زماننا. نرى الأمثلة فى كل يوم تقريبا للإرهاب والكراهية والرفض دافعها العقيدة. وهكذا يتزايد عدد الناس الذين وجدوا المعتقدات الدينية وممارساتها التقليدية كأشياء غير معقولة وغير ضرورية، فجنحوا للفن والموسيقى والأدب والرقص والرياضة وأحيانا المخدرات ليشعروا بالسمو الذى يبدو ضروريا للمخلوق البشرى..

أننى أعتقد بلا أدنى شك وكما حاولت أن أفند فى حواراتي المختلفة فى هذا الكتاب أنه لا غنى عن دور الدين فى مسيرة البشرية ولا أستثنى من ذلك عصرا أو زمنا ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، لكن على الدين أن يستوعب العصر الذى ينشد فيه دورا. المبادئ السامية والأخلاق الفاضلة لن يختلف عليها أحد، لكن الأسئلة التى تطرح نفسها عن حكمة الوجود ومعنى الحياة ومستقبل البشرية يجب أن تجد الإجابة التى يعقلها إنسان هذا العصر الذى استطاع أن يفك شفرة الخلية ويفسر جوهر المادة. إذا عجز أهل الدين أن يصلوا إلى لغة حوار تناسب العصر فسوف يسعى الإنسان لبدائل من الفن والموسيقى والرقص أو المخدرات.. وهذا لن يشفى حاجته الروحية ورغبته الكامنة فى السمو وستكون النتيجة محزنة.

مع ذلك التحدى وبالرغم من مظاهر اليأس التى تصيب الصورة بصيغة قاتمة، لازال هناك الأمل فى الوصول للسمو المنشود. هل تعرف كيف يتحقق هذا الأمل؟ حين يشعر كل منا أنه مسئول، مهما كان شأنه وأينما كان موقعه من شرق العالم إلى غربه.

الفهرس

٥	المقدمة
١٠	الفصل الأول:
	سلطنة برونای دار السلام
٤٥	الفصل الثاني:
	جمهورية فيتنام الاشتراكية
٨٣	الفصل الثالث:
	جمهورية إيران الإسلامية
١٠٩	الفصل الرابع:
	جمهورية تركيا الحديثة
١٣٧	الفصل الخامس:
	الولايات المتحدة المكسيكية
١٨٠	الفصل السادس:
	جمهورية نيجيريا الفيدرالية
٢٠٥	الفصل السابع:
	جمهورية ألمانيا الاتحادية
٢٥٣	الخاتمة

رقم الإيداع

٢٠٠٧ / ١٥١٩٣

الترقيم الدولي I. S. B. N. 977-209-164-4

